أمين الساطي
قصص
قصيرة
مرعبة

أمين الساطي

قصص قصيرة مرعبة

طبعة ثانية معدلة

٢٠٢٣

الإهـــداء

عندما يتقدم الواحد منا في العمر، يزداد تعلقه بعائلته، وتصبح محور حياته.

إلى ولديَّ منير وعمر وأحفادي، وجميع من ساعدوني في إعداد هذه القصص، أهدي لكم الطبعة الثانية من كتابي قصص قصيرة مرعبة.

تقـــديـم

في عالمك الذي تعيش فيه قصة مذهلة، ولكن ليس كل قارئ يستطيع أن يعايش أو يتلمس عالماً كهذا، قصة ستعجب أولئك، ولن يتقبلها هؤلاء، لكنَّ الخيال فيها يلعب دوراً رئيساً، كما في كل قصصك المشابهة، وأصبح القارئ يستطيع أن يتعرف أنك كاتبها، قبل أن يقرأ اسم الكتاب، يعني صارت ماركة مسجلة قائمة بحدِّ ذاتها.

الإعلامي منير الجبان

مقـــدمة

الخطُّ الفاصل بين الواقع والخيال هو مجرد وهم، ويمكن للشخص أن يتخطاه بسهولة.

أمين الساطي

الفهرس

الإبـــرة ٧
الحفرة ١١
الحلقة المفقودة ١٢
العلامات ٢٥
القطة السوداء ٢٩
اللعنة ٣١
الوهم ٣٤
سيارة للإيجار ٣٥
السيجارة ٣٩
تحت تأثير البنج ٤٤
الأيام الصعبة ٤٩
المحقق ٥٢
مهمّةٌ غير مقبولة ٥٤
يأتي في منتصف الليل ٥٩
القرين ٦٣
امرأة مسحورة ٦٧
حفلة في فندق الشيراتون ٧١
رسالة إلى العالم الثاني ٧٥
زوجة الشيطان ٨١
طارد الشياطين ٨٤

الحدأة ٨٩
الزوج المفقود ٩١
الكلب الأعور..... ٩٦
شبح امرأة..... ٩٩
نهاية غير متوقعة.....١٠٣
أشياء لا تُنسى ١٠٦
الجحيم الآن.....١١١
الطابق الخامس والعشرون ١١٥
الطبال.....١١٨
الموت يقرع الباب ١٢٣
إنذار من الفيسبوك.....١٢٦
رؤية خطيرة ١٣٢
سأخبر الله عنكم.....١٣٥
سهرة مشؤومة في فندق الكاربيتول ١٤١
علاقة على الفيسبوك.....١٤٨
الفوضى الآن ١٥١
تحت تأثير البنج.....١٥٦
قوارب الموت.....١٦١
لا تنظر إلى المرآة.....١٦٦
لعنة الرقم خمسة ١٧٠
لعنة شيطانية.....١٧٤
محتالة على المسنجر.....١٧٧

الإبـــرة

أطفـأت نـور الكهربـاء، واسـتلقيت علـى الكنبـة في غرفـة نـومي الضـيِّقة المظلمـة، بينمـا شـعاع الضـوء الخافـت المنبعـث مـن عمـود الكهرباء في الشارع، يتسلل من شقّ فتحة الستارة التي تغطي نافذتي الصغيرة، ليخيّم على الغرفة ضوء خافت، يعطي إحساساً بالكآبة والحزن . أشعلت سيجارتي، وبدأت أستمتع بنفث دخانها في الهواء، وأراقبه وهو يتحول إلى تلافيف سوداء تتصاعد نحو الأعلى، ثم لا تلبث أن تتحول إلى أشكال وصور لوحوش شيطانية مرعبة، قبل أن تزول وتتلاشى في الفراغ .

في هذه اللحظات، تملّكني شعورٌ غريبٌ بأني إنسان فاشل، ولم أعد أصلح لأي شيء، ولا بد لي من الاستعانة بقوى خفية من خارج عالمنا، لأمضي في حياتي . خطرت هذه الأفكار على بالي، وأنا أحاول أن أجد طريقةً ما لاستعادة صاحبتي رولا التي تركتني من أجل طالب ألماني يدرس معنا في الصف نفسه، في معهد باو سنترم في مدينة روتردام بهولندا . يجب أن أعترف بأنه في الآونة الأخيرة تغيّرت علاقتنا العاطفية نحو الأسوأ، فبات من الصعوبة الاستمرار فيها، ولعل ذلك يعود إلى اختلاف بيئتنا الحضارية ومفاهيمنا عن الحياة، فأصبحت أمرُ بفترة فقدت فيها توازني، وأمسى كل تفكيري ينصبُّ في الحصول عليها .

في صفنا طالبٌ من السنغال، كنت أساعده دائماً في حلِّ واجبات مادة الرياضيات، هناك شعور قويّ يجمع بيننا، لأننا غريبون عن هذا المجتمع الأوروبي الأبيض، وكنت قد قرأت مرة في مجلة عن سحر الفودو الذي يمارسه الإفريقيون، للتأثير في الأشخاص الذين يحبونهم أو يكرهونهم . فطلبت من صديقي السنغالي أن يساعدني، بحسب خبرته في السحر الأسود، لكي أستعيد حبيبتي رولا من جديد .

حذّرني صديقي من أن الدخول في عالم السحر الأسود خطير جداً، وخاصة للأشخاص الذين لا يتقنونه بشكل كامل، لأنه لا يمكنك أن تتنبأ دوماً بردود أفعال الشياطين، ولا يمكنك السيطرة عليهم، ما قد يتسبب في كثير من المصائب المدمرة . لكنني في تلك اللحظات كنت عازماً على استردادها دون التفكير بالعواقب، إنه شعور الرجل الشرقي عندما تتركه امرأة يحبها، ويحلم بأن يتزوجها، لتذهب مع رجل آخر . قررت أن أقوم بهذه الجلسة في شقتي الحقيرة في هذه الليلة، فطلب مني صديقي أن أحضر بعض المواد البسيطة التي تحتاجها جلستنا لتحضير روح الشيطان .

أطفأنا الأنوار كلياً في شقتي، وأشعل صديقي شمعةً صغيرةً وضعها في منتصف الطاولة، أخرجت من الدرج مكعب الشمع الأبيض الذي اشتريته بناءً على طلبه، وأعطيته سكينا، وبدأ ينحت في المكعب شكلاً بدائياً بالكاد يشبه شكل امرأة . طلب مني أن أعطيه صورة لصديقتي رولا، فأعطيته صورة لها، فلصقها على التمثال الشمعي، وهو يؤدي بعض الطقوس الوثنية، وأحضرت له بعض الشعرات من رأس رولا، والتي كانت قد تركتها على فرشاة شعرها، عندما كانت تعيش معي في شقتي، فألصق خمس شعرات على رأس الدمية، فأصبحت الدمية، بديلاً لرولا، ونشأت بينهما محاكاة خاصة لا تخضع لمفاهيمنا الطبيعية، ثم أخرج من جيبه لفافة من القماش فيها إبرة عادية، وبدأ يتمتم ببعض التعاويذ في اللغة الأمهرية، مناشداً الأرواح والكائنات الخفية لحضور جلستنا، بعد حوالي نصف ساعة، بدأت الإبرة ترتجف على الطاولة، وشاهدتها وهي تزحف ببطء شديد نحو تمثال الشمع، فتأكدت في لحظتها بحقيقة سحر الفودو الذي كنت أسمع عنه .

بعد أن اقتربت الإبرة لمسافة حوالي سنتمتر من التمثال، توقفت عن الحراك، فقال صاحبي: "يجب علينا أن نطعم روح الشيطان بنقاط من الدم" . في البداية لم أستوعب قوله، لكنه شرح لي بأن روح هذا الشيطان واسمه سلمو بحاجة إلى الغذاء . وأنه على استعداد ليكون كلبك المخلص، شريطة أن تغذيه من دمك في كل يوم، إن الأرواح تتغذى على الدم فقط، محذراً: "لكن إذا جوّعت كلبك في النهاية فسوف يأكلك" . . وأشار عليَّ بأنه يجب أن أجرح إصبعي بالسكين جرحاً بسيطاً، ثم أضغط عليه لتسيل بعض قطرات من دمي، ليتغذى عليها سلمو . بدت لي هذه الفكرة مخيفةً . فهي تؤسس لعلاقة خاصة بالدم، ستربطني بهذا الشيطان، فرفضتها فوراً. وقررت أن ننهي هذه الجلسة، ونطلب من الشيطان المغادرة .

أفهمني صديقي بأن الأمور قد تصبح مخيفةً، إذا طلبنا من سلمو أن يغادر الجلسة فوراً، وأنني إذا لم أعد أرغب في الحصول على رولا، فإنه سيطعم الشيطان من دمه، لنخرج من هذا المأزق، من شدة خوفي، قلت: "افعل ما تشاء، ولكن أخرجْ هذا الشيطان من بيتي" . فبدت على طرف وجهه ابتسامة غامضة، لكن سحنته السوداء أخفت عني حقيقة مشاعره في هذه اللحظة، فما كان منه إلا أن أخذ السكين وشطب خنصره، وبدأ يضغط على الجرح حتى نزلت منه سبع قطرات من الدم فوق الإبرة . فأخذت الإبرة ترتجف، وهي تشرب الدم من الثقب الموجود عند رأسها، وعندما انتهت من رشف الدم، زحفت وهي ترتعش نحو الدمية، فالتقطها بيده، ثم بدأ ببطء شديد يغرس الإبرة في رأس الدمية، التي أصبحت بديلة لصاحبتي السابقة رولا .

الآن أصبحت الدمية مرتبطة برولا، لا شك أنَّ رولا، في هذه اللحظات، تعاني من مشاعر خاصة في رأسها، إنه سحر المحاكاة، وهو

يعتمد على بقاء علاقة بين الإنسان وما ينفصل عن جسده، لذلك يقوم الإفريقيون عادة، بالتخلص من فضلات آثارهم بحرقها، لكيلا يستخدمها السحرة ضدهم . من شدة حالة الرعب التي انتابتني، أصبح كلُ همي أن يرحل صديقي السنغالي عن شقتي فوراً، مع كل هذه القذارة الموجودة على طاولتي، بعد أن غادر الشقة، قررت أن أقطع علاقتي به، وأن أشطب رولا وهذه الجلسة من حياتي .

بدأت أرى بعيني بعد أيام العلاقة الحميمة التي نشأت بين صديقي السنغالي وبين صاحبتي السابقة، وكنت أشاهدهما دائماً مع بعضهما في الجامعة، وسمعت من أصدقائنا المشتركين بأنها انتقلت لتعيش معه في شقته، وأنهما يتهيَّأان لإعلان زواجهما .

❖ ❖ ❖

الحفرة

وأخيراً أُغلقت عيناي من التعب، وغفوت قليلاً، فاسترحت من كل الضغوطات والآلام التي مررت بها . شعرت أنني بدأت أتلاشى في جوٍّ زهريٍّ مضيء دافئ، ما أعطاني سكينةً ونشوةً غامرةً، وأنني إلى جانب ابنتي الصغيرة التي توفيت منذ سنتين، وحدنا على الشاطئ، نراقب مشهد غروب الشمس، لنختم يومنا الطويل بلحظة ساحرة، تذكّرنا بأن لكل شيء نهايةً، وأن ساعات الوداع أكثر ألماً من ساعات الاستقبال .

الغريب أنني في هذه اللحظات، لم أقاوم فكرة الذوبان في عالمي الجديد، ربما بسبب وجود ابنتي الصغيرة إلى جانبي . شاهدت نفسي مغطى بكفن أبيض، لا يستر جسدي إلا هذه القطعة الصغيرة من القماش، ثم أنزلوني في حفرة عميقة بشكل مستطيل، بالكاد تتسع لجسمي، مدّدوني على جانبي الأيمن، ووضعوا حفنة من التراب كوسادة تحت رأسي، وشاهدت حبات التراب وهي تنهمر من أعلى الفتحة، بعدها سمعت صوت أقدام الأشخاص الذين كانوا معي، وهم يغادرون المقبرة .

لكن أكثر ما كان يرهبني في هذه اللحظات، سماع أصوات وأحاديث مألوفة وأنا راقد وحدي في الظلام، حاولت أن أحرّك أصبعي لكي أعطيهم إشارة بأنني معهم وأسمع أصواتهم، لكن أصبعي لم تكن قادرة على الحركة، عندما فتحت عينيَّ في غرفة الإنعاش بالمستشفى بعد عملية القلب المفتوح، وقع نظري على وجه الطبيب، ولا شك أنه لاحظ تعابير الخوف المرتسمة على وجهي، فقال لي: إن هذه الأحلام والكوابيس التي عشتها في غرفة العمليات، هي ردود فعل طبيعية، لتأثير المادة المخدرة التي تعرضت لها قبل إجرائك العملية الجراحية .

❖ ❖ ❖

الحلقة المفقودة

كان ذلك في شهر يناير على ما أذكر، وكنت قد التحقت في سلك الشرطة اللبنانية بعد تخرجي في الكلية العسكرية برتبة ملازم ثانٍ، وتمّ فرزي إلى مخفر مدينة جونية التي تبعد حوالي ستة عشر كيلو متراً عن بيروت، لقد أذهلتني جونية بشواطئها الخلابة، وبمنظر التلفريك الذي يصل بين خليجها ومنطقة حريصا التي تقع على قمة التلة المقابلة لها، والمغطّاة بأشجار الصنوبر والأرز الخضراء، ولاسيما أنني قد نشأت في قرية صغيرة وفقيرة في البقاع .

بينما أنا جالس وراء مكتبي كضابط مناوب في تلك الليلة الباردة، دخل الرقيب الأول إلى غرفتي مضطرباً، وكانت الساعة حوالي الثانية ليلاً، وهو يقول لي: هناك سيدة على الهاتف من قرية فاريا، تريد أن تتحدث مع الضابط في المخفر، رفعت سماعة الهاتف الموجود أمامي على المكتب، لأسمع صوتاً أنثوياً ناعماً رقيقاً، يرتجف من الجهة الأخرى، ما أثار في قلبي خوفاً مبهماً، لأنه بدا مألوفاً، على الرغم من أنني لم أدرك لمن هذا الصوت، عرّفتني على نفسها، بأنها الممثلة نادين، وأنّ لصاً ملثماً دخل منذ قليل إلى منزلها، وهو يحمل مسدساً في يده، ما أجبر زوجها بأن يطلق النار عليه دفاعاً عن زوجته وابنته الوحيدة الصغيرة، فأصابه بعدة طلقات، والسارق الميت ممدد أمامها على الأرض، وهي بحاجة إلى الشرطة لمساعدتها، أعطتني عنوان فيلتها التي تقع بالقرب من الفندق الفخم فاريا فلاج كلوب .

لفحتني الرياح الباردة وأنا أهمُّ بركوب السيارة، ما زاد من ترددي بالذهاب في هذا الوقت المتأخر من الليل، لكنه لم يكن أمامي خيار آخر . انطلقت بسيارة الجيب، وبجانبي الرقيب الأول متجهاً إلى فاريا التي تبعد عنا حوالي خمسة وعشرين كيلومتراً .

أخذت الطريق الساحلي البحري، ثم انعطفت نحو اليمين، تاركاً خلفي البحر الهائج في خليج جونية بأمواجه الرغوية، وشاهدت أضواء السفن الصغيرة الراسية من بعيد، وبدأت بالصعود في طريق جبلي ضيق مغطى على جانبيه بالثلوج، على الرغم من أن الثلوج كانت قد بدأت بالذوبان بفعل حرارة اليوم السابق، لتفسح الطريق لسيارة الجيب لكي تمر بسلام على الطريق الإسفلتي، لكنني كنت حذراً وأنا أقود السيارة، فالطريق يصعد بشكل متعرج قاسٍ وبصورة غامضة، وعلى جوانبه منحدرات شديدة الانحدار، ما زاد من شعوري بالوحدة .

عند وصولي إلى البلدة، اتجهت فوراً إلى فندق فاريا فلوح كلوب، كانت بجانبه عدة فيلات راقية متشابهة، تفصل بينها أسوار من أشجار الصنوبر، حتى وقع نظري على فيلا كبيرة وحديثة البناء مطلة على مساحة واسعة من الخضرة وأشجار الصنوبر، كما وصفتها الممثلة نادين على الهاتف، فاتجهت إلى بوابتها الحديدية الكبيرة، وما كدت أقترب منها، حتى فتح لي أحد العاملين الباب، وقال لي: إن المدام بالداخل في انتظاري، فاقتربت بسيارتي من مدخل الفيلا، لاحظت أن الفيلا بيضاء واسعة مبنية على الطراز الأميركي، وهناك حوض سباحة ضخم مواجه للمدخل، وألعاب متناثرة على العشب الأخضر المنتظم والكثيف، تتخلله ممرات من الحجر الأملس بنمط هندسي جميل، ما يدل على الذوق الرفيع والحياة المترفة التي تعيشها الممثلة نادين، وقارنتها لا شعورياً بوضعي المادي الصعب الذي أعيشه، وبراتبي المحدود الذي بالكاد يكفيني حتى نهاية الشهر .

وجدت السيدة نادين واقفةً بانتظاري عند مدخل فيلتها، وهي متلهفة للقائي، ما سبب لي بعض الشك . قادتني مباشرة إلى الممر العريض المتصل بالصالون، حيث كانت جثة القتيل مكومة على الأرض مغطاة بالدماء، وعلى وجهه قناع أسود يغطي جزءاً من رأسه، وبجانبه مسدس بلاستيكي يشبه لعب الأطفال . طلبت من

الجميع عدم لمس جثة القتيل، حتى يحضر المحقق الجنائي في صباح اليوم التالي، لأن الساعة كانت متأخرة في ذلك الوقت، طلبت من المدام أن تسمح لي بأن أتجول بالفيلا، لعلي أتمكن من تحديد المكان الذي دخل منه اللص إلى الفيلا، وأثناء تنقلي في الداخل لاحظت وجود صالة رياضية كبيرة إلى يساري، وتواجهها صالة مخصصة للسينما وساونا وصالون تجميل، فتأكدت من فخامة الحياة التي تعيشها مع أسرتها، ولكن الذي لفت نظري أن جميع نوافذ الفيلا مغطاة بشبك حديدي مشكل بطريقة فنية جميلة، بشكل أوراق الشجر، للحفاظ على البيت من السرقة، فأدركت في لحظتها، أنه لابد من أن أحد العاملين بالمنزل، قد سهّل له دخول الفيلا، ولاسيما أنني كنت قد شاهدت عند المدخل ثلاثة أشخاص من الحرس واقفين بالحديقة أمام المدخل .

بعد قليل نزل زوج المدام من الطابق الأعلى وسلّم عليَّ، وجلس على الكنبة المقابلة لي، وهو من رجال الأعمال الأغنياء المشهورين في بيروت، وجدت نفسي مضطراً نتيجة الشهرة والغنى لهذه العائلة، من أن أقول مواسياً له: الحمد لله على سلامتكم، هناك خوف ماثل في عقلي الباطن من الطبقة الغنية النافذة التي تسيطر على مقدرات البلد، تربيت عليه منذ الصغر، فبادرني بالحديث وهو ينظر إلى وجه زوجته، وكأنه يتحاشى النظر في عينيَّ، بأنه اضطر إلى إطلاق النار على اللص بعد أن أشهر المسدس بوجهه، وهدده بقتل عائلته .

راقبت يديه وهما ترتجفان وهو يحدثني بصوت متقطع عن هذه الفاجعة، ما جعلني أخمّن بأنه يعاني اضطراباً نفسياً شديداً، أو أنه قد تناول كمية من الكحول أو المهدئات، هنا تدخلت زوجته نادين مباشرةً، وقالت لي: إنها أصيبت بطلق ناري في رجلها أثناء تبادل إطلاق النار بين زوجها وبين السارق السوري الجنسية، فلاحظت حينها وجود ضمادة بلاستيكية صغيرة على بشرتها البيضاء الناعمة .

لم أستوعب كل حديثها، فقررت أنه من الأفضل أن أنتظر إلى صباح اليوم التالي، إلى حين وصول رئيسي النقيب بالمخفر مع المحقق الجنائي لموقع الجريمة لكتابة محضر التحقيق، فهناك حلقة مفقودة في هذه القصة، لقد أدركت بأن الموضوع أكبر مني، ولا أريد أن أتورط في هذه القضية، التي ربما قد تتشعب، لتقضي على مستقبلي في سلك الشرطة .

في أثناء حديثنا دخلت خادمة فلبينية جميلة نحيلة قصيرة القامة ذات شعر أسود كثيف، تمتاز بتلك النضارة التي تمتاز بها كل البنات في سن العشرينيات، وفي يدها ثلاثة فناجين من القهوة التركية، حاولت أن أسألها باللغة الإنكليزية خلال هذه الثواني، فيما إذا كانت تعرف القتيل الملقى على الأرض، وقبل أن تجيبني بأي كلمة تدخلت نادين قائلة لي: إن الخادمة لا تعرف الإنكليزية، فلم تترك لي مجالاً للاستمرار بالحديث . وللمرة الثانية وجدت نفسي خائفاً من متابعة القضية . ختمت جلستي بحديث أقرب إلى الثرثرة منه إلى التحقيق، مؤكداً أن على الجميع عدم لمس الجثة، أو اللعب بكاميرات المراقبة الموزعة داخل الفيلا، حتى حضور المحقق الجنائي في صباح اليوم التالي .

عدت مباشرة إلى مكتبي في المخفر، واتصلت عبر الهاتف على بيت رئيسي النقيب، و أخبرته بتفاصيل الجريمة التي وقعت قبل ساعات في بيت الممثلة نادين، ما كدت أنتهي من حديثي حتى سمعته يقول بسخرية: الممثلة نادين بشحمها ودمها، فهززت رأسي بالإيجاب وأجبت بنعم . . فقال لي: إنه سيحضر فوراً . ما كاد يصل إلى المخفر حتى اتصل بالمحقق الجنائي، وأعطاه عنوان فيلا الممثلة نادين، واتفقا على أن نلتقي غداً الساعة السادسة صباحاً في الفيلا .

مع بزوغ أول خيط من أشعة الشمس في الصباح، انطلقت مع النقيب باتجاه الفيلا، بعد وصولنا بحوالي نصف ساعة وصل المحقق، في وقتها كان النقيب منهمكاً في أخذ إفادة المدام نادين، حول عملية إطلاق النار التي جرت في فيلتها، قام المحقق بخلع ملابس الجثة الملقاة على الأرض، وأخذ قلماً وبدأ يرسم دوائر على موقع كل طلقة في جسد القتيل، حتى وصل عدد الطلقات النارية التي دخلت جسمه إلى خمس عشرة طلقة، بعدها بدأ بكتابة تقريره الرسمي، فذكر أن خمس عشرة طلقة أصابت جسم القتيل من الأمام، وأن سبعاً منها اخترقت جسده، وخرجت من الخلف، لكني لاحظت بعيني المجردة لأني كنت واقفاً إلى جانبه، أثناء معاينته للجثة، بأن ثلاث طلقات منها، كانت فتحاتها في جسم القتيل من الخلف، أصغر من فتحات الطلقات الأربع الموجودة بجانبها، والتي خرجت من جسم القتيل .

كنت قد درست في الكلية الحربية بأن المقذوف وهو يخترق جسم الإنسان يتشوه نتيجة اصطدامه بالأنسجة، وقد يسوق أمامه أثناء سيره بالجسم شظايا عظمية، ما يؤدي إلى توسيع فتحة خروجه من الجسم، فيصبح جرح الخروج أكبر من جرح الدخول، أبديت هذه الملاحظة للمحقق وقلت له: إن القتيل قد تلقى ثلاث طلقات من الخلف، فغمغم بكلمات غير واضحة . . ، شارحاً لي، بأن فتحة الجرح تتوقف أحياناً على نوع السلاح المستعمل، وعلى المسافة التي أطلق منها المقذوف، وأن تقريره الحالي هو تقرير ميداني أولي، وعند أخذ الجثة إلى المشرحة سيقوم الطبيب الشرعي بالتدقيق في اتجاه مصدر إطلاق النار، وتابع كتابة تقريره من دون أن يعطيني أدنى اهتمام، في هذه الأثناء ناداني النقيب، وطلب مني أن أتوقف عن التدخل في عمل المحقق .

تابع النقيب تحقيقاته مع زوج السيدة نادين، حاول أن يفهم منه كيف دخل السارق إلى الفيلا، فأجابه: إن اللص دخل الفيلا من الباب الرئيسي، بعد أن هدد الحارسين الموجودين في الحديقة بمسدسه ....، ما اضطرهما لأن يفتحا له الباب، هنا حاولت أن أجاريهما بالحديث فسألته: ماذا فعل الحارسان بعد أن سمحا له بدخول الفيلا؟ حينئذٍ أشار عليّ النقيب بيده لكي أتوقف عن التدخل في مجريات التحقيق، وتابع بنفسه استكمال الأسئلة. شعرت بأن هناك حلقة مفقودة في هذه النقطة، وأن الموضوع أصبح بحاجة إلى المحقق بوارو، بطل قصص الكاتبة أجاثا كريستي لاكتشاف الدافع وراء هذه الجريمة.

استمر بالتحقيق مع زوج المدام، حتى وصل إلى الموقف، الذي تحدث فيه مع السارق الملثم، وعرض عليه أن يعطيه ما يريد من الدولارات، مقابل أن يترك الفيلا ويخرج بسلام، لكن اللص رفض ذلك، وأصر بالذهاب إلى غرفة النوم التي فيها زوجته نادين وابنتهما، وخلال تجواله في الممر، الذي لا توجد فيه كاميرات المراقبة، وعند اقترابه من باب غرفة النوم، حينها وجد زوج نادين نفسه مضطراً إلى إطلاق النار عليه من مسدسه الأوتوماتيكي عيار تسعة ملميتر، واستمر بالضغط على زناد المسدس حتى نفدت ذخيرته، ولم يعرف عدد الطلقات التي خرجت من مسدسه، لأنه كان تحت ضغوط عصبية رهيبة من شدة خوفه على عائلته، لم أستطع أن أضبط أعصابي، فتدخلت من جديد وسألته، كيف يمكنك أن تجري هذا الحديث الطويل مع هذا الشخص الغريب الذي لا تعرفه في هذه اللحظة، تغيّرت ملامح وجه النقيب من الغضب، والتفت نحوي قائلاً: الحقيقة واضحة كالشمس، دخل اللص وهو يحمل مسدساً بلاستيكياً، ولو أراد صاحب الفيلا أن يتلاعب بالأدلة الجنائية، لأخذ المسدس

البلاستيكي واستبدله بمسدس حقيقي من المسدسات الموجودة مع حراس الفيلا .... وبناءً على ذلك تصبح القضية منتهية، ولا داعي لإجراء التحقيق، ثم استدار باتجاهي قائلاً: أنا أعرف أنك ملازم ذكي جداً .. لكن مشكلتك بأنك تركز على التفاصيل، ما يجعلك تنسى لبَّ الموضوع، فتضيع الحقيقة، وقال باللغة الفرنسية: الشيطان يكمن في التفاصيل التي يتباهى بأنه يتقنها ببراعة، ويخلطها أحياناً مع الكلمات العربية أثناء حديثه، ليجذب انتباه من حوله إليه، وليخبرهم بأنه تعلم في المدارس الفرنسية، التي ترددها عادة الطبقة الميسورة في المجتمع اللبناني .

في الحقيقة، فاجأني بهذا التحليل المنطقي، فوجدت نفسي عاجزاً عن الرد عليه، فواصل تحقيقاته مع زوج المدام قائلاً: إنه يعتقد أن اللص شخص منحرف جنسياً، ولذلك حاول الدخول إلى غرفة نوم نادين، لكنني لاحظت أنه لم يكتب هذه الجملة في سياق تقريره .

بعدها جاء المحقق وفحص رجل الممثلة نادين، وكتب في تقريره بأن الجرح العميق ناتج عن اصطدام رجلها بحافة باب الحمام أثناء دخولها إليه بسرعة مع ابنتها، لتحتمي هي وابنتها من الطلقات النارية، وأنها تحت عامل الخوف والشعور بالتهديد، تصورت أنها أصيبت بطلقة نارية، بينما كان التحقيق يشارف على نهايته .

رجوت النقيب بأن يستدعي الخادمة الفلبينية لكي يأخذ إفادتها، هنا تدخلت نادين بشراسة قائلةً: بأنها أرسلت الخادمة وابنتها الصغيرة منذ الصباح الباكر إلى بيت أمها في بيروت، لكي تبعد ابنتها عن دوامة الرعب المسيطرة على الفيلا، ولكيلا تتأثر نفسيتها بمنظر الجثة المخيفة الممددة على أرضية الممر، فهزّ النقيب رأسه بالموافقة، والتفت إليّ للمرة الثانية قائلاً: لا تغرق بالتفاصيل الصغيرة، حتى لا تنسى هدفك الرئيسي، ثم طلب من الحارس الموجود بالفيلا

تسليمه جميع الأفلام العائدة لكاميرات المراقبة الموجودة بداخل وخارج الفيلا، ليرسلها إلى المخبر الجنائي لمراجعتها والتحقق منها .

استغرقت عملية استجواب الشهود ومعاينة الجثة أكثر من ساعة ونصف، بعدها جلسنا في الصالون ندردش مع نادين وزوجها، وأحضرت لنا إحدى الخادمات الشاي، مع قالب كبير من كاتو الشوكولا المحشو بالفاكهة، وبينما كنت آكل قطعة الكاتو، تبادر إلى ذهني .... يا ترى كم ثمن هذا القالب؟ مئة دولار ... مئتا دولار؟ وما ثمن هذه الفيلا الفخمة؟ عشرة ملايين ... عشرون مليون دولار .... كم تملك هذه العائلة؟ خمسون .. مئة مليون دولار، وشعرت بنوع من الحقد على هذه الحياة المترفة التي تعيشها نادين مع زوجها، إنها امرأة جميلة رائعة، يتمنى كل رجل منا، لو أنها كانت زوجته، لكني تجاوزت شعوري بالكراهية لزوج نادين، وعدت للتفكير بفرضية أن أسرار حياة الإنسان كلها مخبأة في الأرقام، ويمكن معرفة ما يخبئه لنا الزمن من هذه الأرقام، فهناك صلة بين الإنسان والأرقام التي تحيط به، وتتداخل في حياته، فالأرقام هي الشيء الوحيد التي لها بعدٌ كمي في هذا الكون، ولكل رقم قوة خاصة به تميزه عن بقية الأرقام، فلو جمعنا اليوم عدد الطلقات الخمس عشرة التي أصيب بها القتيل، مع رقم عيار المسدس الذي هو تسعة مليمتر، لحصلنا على الرقم أربعة وعشرين، وهو تماماً عمر القتيل نفسه، الممدد أمامنا على أرضية الممر المجاور، إن الطبيعة كلها يمكن تفسيرها بلغة الأرقام .

فجأة قطع نسيج تأملاتي صوت المدام نادين، وهي توجه نظرها ناحيتي متسائلة، بماذا يفكر ملازمنا، وفي لهجتها الكثير من الرقة والدلع، لرفع الكلفة بيننا، أُحرجتُ من سؤالها، لأنني لو نقلت لها ما يدور في رأسي من الأفكار، لخافت مني ولاتهمتني بالجنون، فقلت لها بعفوية: الحياة مستمرة، ولا تتوقف على أحد، فضحكت بصوت عالٍ دون تصنع، فازداد إعجابي بشخصيتها، وبجمال نغمة صوت ضحكتها .

غيَّر زوجها دفة الحديث وسألني: ما رأيك في هذه المظاهرات التي تجتاح لبنان؟ فأجبته ببساطة وأنا أتظاهر بأنني أنتمي إلى الطبقة نفسها، التي ينتمي إليها جميع الحاضرين، فورة مؤقتة بالشارع، وستنتهي عندما يتعب المتظاهرون، ويأتي الشتاء . لاحظت عينيه تبرقان لتظهرا هذا الذكاء والدهاء الكامنين في داخلهما، وهو يقول لي: إن الموضوع أخطر من ذلك بكثير، إن بقايا الشيوعيين واليساريين يركبون موجة الإضرابات، من أجل تحطيم البلد اقتصادياً وتفليس البنوك، حتى إذا انهار البلد، تمكنوا من استلام الحكم .

كعادته قطع النقيب الحوار ليستلم دفة الحديث، وليوجهه بطريقة تضفي على ذاته بعض الأهمية قائلاً: إنه منذ يومين كان باجتماع مع كبار المسؤولين بالدولة، ونبههم إلى خطورة هذه المظاهرات التي اندلعت منذ أكثر من شهر، وطلب منهم إعطاء الضباط القادة في جهاز الأمن الصلاحيات اللازمة لاستخدام القوة المفرطة، ولإنهاء هذه المظاهرات بسرعة، لكن زوج المدام أجابه بخبث: إن الموضوع يفوق طاقة الشرطة، وإن على الجيش أن يتدخل بالقوة لسحق بقايا الشيوعيين واليساريين، إن الشيوعيين يثيرون الفقراء والزعران، ويوعدونهم بأنه إذا انتصرت الثورة، فسوف يصادرون أموال الأغنياء وممتلكاتهم ويتقاسمونها فيما بينهم، المشكلة أن الفقراء في لبنان يحسدون الأغنياء، ويريدون أن يعيشوا بمستواهم .

بعد أن انتهى من جملته، شعرت بعداوة غريبة لهذا الشخص، ولم أجرؤ أن أقول له: إن الفقر مؤلم، وأنا جربته على جرعات قاتلة، بعد وفاة والدي بقريتي الصغيرة في البقاع، إن الفقر الآن بدأ ينهش الطبقة الوسطى الكبيرة في بيروت، وانتشر كالسرطان في كل زاوية في لبنان، إن لبنان الذي نعرفه قبل هذه المظاهرات، لن يعود أبداً كما كان، ولعل حصوله على هذه الزوجة الحسناء المدللة، قد ساهم في زيادة كراهيتي له .

حاول المحقق أن يجارينا في هذا النقاش، فقال: إن كل مشاكل لبنان جاءت من اللاجئين السوريين الذين يزيد عددهم على مليونين، ولقد آن الأوان لتسفيرهم إلى بلدهم سورية، بعد أن هدأت الأحوال فيها .

لم يعلق أحد على مداخلته، لأن الجميع كانوا يعرفون أن السبب الحقيقي لهذا الحراك يتلخص في أن الأغنياء والسياسيين قد تشاركوا في سرقة البلد على حساب الفقراء، وأن هذه المظاهرات لن تنتهي إلا بحرب أهلية طائفية، أو بإعطاء الفقراء المهمشين بعضاً من حقوقهم المسلوبة، لم أشارك كثيراً في هذا الجدال خوفاً على مستقبلي في سلك الشرطة .

انتهت جلسة التحقيقات، خرجت مع النقيب واتجهنا إلى سيارة الجيب، كان الجو صافياً تحت أشعة الشمس التي ظهرت لأول مرة منذ يومين خلف جوانب الجبال المحيطة بقرية فاريا، ما جعل الهواء دافئاً بشكل لطيف، رغم أن الرياح التي تهب من قمم الجبال، مازال لديها حدة البرد القارس .

على الجانب المقابل من الفيلا، ظهرت قمة جبل صنين المغطاة بالثلوج، تلمع تحت أشعة الشمس، لتظهر منظراً ممتعاً، كنت قد حرمت من رؤيته بالأمس بسبب الظلام، شعرت بوجودي كما لم أشعر به من قبل . وأنا أفكر بتقاطيع وجه نادين، وأتحسس نبرات صوتها الناعم، وكأنها ماثلة أمامي . طردت هذا الوسواس من عقلي، قبل أن يقودني إلى الجنون . جلست خلف مقود السيارة، منطلقاً عبر الطريق الملتوي الهابط بشكل قاسٍ باتجاه أسفل التلة، وظلت السيارة تواصل نزولها على الطريق الإسفلتي الضيق تحت أشعة الشمس الساطعة، التي ساهمت في سرعة ذوبان الثلوج، وعادت الطبيعة إلى لونها الأخضر الجميل . وكنت أسمع صوت خرير الماء في

الجداول التي تشكلت في الخنادق على حافتي الطريق، وعندما انحنى الطريق على كتف التلة، ظهرت أمامنا مدينة جونية تحتضن البحر الأزرق، معطيةً ظهرها لقمم الجبال العالية المغطاة بالثلوج .

بالمصادفة وبعد ثلاثة أيام من هذه الحادثة، وبينما أنا جالس أتابع قناة هنا، وهي قناة فضائية لبنانية، شاهدت برنامجاً تلفزيونياً عن هذه الجريمة، وقد تحدث مقدم البرنامج مع أم القتيل السوري من قريتها في شمال سورية، وفيه دافعت عن ابنها، وقالت: إن ابنها ليس سارقاً، وكان يعمل بستانياً في حديقة فيلا السيدة نادين، وإنه قبل ثلاثة أشهر طرده زوجها من عمله، لأنه وجده في الصباح الباكر داخل الفيلا . حيث إنه دخلها ليأخذ كيس القمامة من المطبخ إلى خارج الفيلا، فاستدعى زوجها حرس الفيلا، وطلب منهم أن يمنعوه من الاقتراب من الفيلا، رافضاً أن يعطيه تعويض نهاية الخدمة وراتب الشهر الحالي، وراتب شهر الإنذار، كما ينص قانون العمل، وإن مجموع هذه المبالغ بحدود تسعمئة وسبعين دولاراً . ومنذ خمسة أيام اتصل أمامها من جواله في سورية، مع سكرتيرة زوج المدام، واسمها هيفاء، طلب منها خلال محادثته معها أن تبلغ معلمها المليونير، بأنه بحاجة إلى مستحقاته، وأنه سيحضر في اليوم التالي إلى لبنان، وسيمر على الفيلا لأخذ التسعمئة والسبعين دولاراً، وبأنه من الأفضل أن يدفع له هذا المبلغ بالحسنى، وإلا فإنه سيأخذه بقوة ذراعه، وانتهت المكالمة عند هذا الحد .

اعتبرت هذا الحديث هو إشارة من السماء، فلقد سمعته بعد ثلاثة أيام من زيارتي إلى فيلا السيدة نادين، وأنه قد تمّ طرده قبل ثلاثة أشهر، وأن المبلغ بحدود التسعمئة دولار، وهذا الرقم هو من مضاعفات الرقم ثلاثة، وبما أنه لا توجد مصادفة في عالم الأرقام، فهذه دلالة لا تقبل الجدال، ولم أستطع النوم في تلك الليلة، وأنا أترقب طلوع الفجر حتى أذهب إلى المخفر .

جلست أكثر من أربع ساعات، وأنا أترقب وصول النقيب إلى المخفر، بعد أن جلس خلف مكتبه، وصبّحت عليه، باشرته بقولي: إنني سمعت محادثة على التلفزيون بين أم القتيل السوري ومقدم البرنامج، وقبل أن أنتهي من حديثي قاطعني قائلاً: ماذا تتوقع أن تقول أم القتيل عن ابنها أمام جيرانها الفلاحين بالقرية؟ فأدركت أنه قد شاهد هذا البرنامج التلفزيوني أيضاً .

طلبت منه بوصفه المحقق الرئيسي في موضوع الجريمة، بأن يتصل بفرع المعلومات، لكي يتم التأكد من فرع داتا الاتصالات، فيما إذا كانت فعلاً قد تمت هذه المكالمة الهاتفية من سورية، فتفجر الغضب من تقاسيم وجهه، واتسعت حدقة عينيه، وقال لي بصوت عالٍ: اصحَ .... الموضوع انتهى وأغلقت القضية، وبعد أسبوع سيصدر القاضي حكماً ببراءة زوج نادين، مستنداً إلى أن حادثة القتل، كانت دفاعاً عن النفس، هل تتصور أنك أنت الشخص الوحيد الذكي في هذا البلد الذي يمكنه أن يعرف طريقة تعقب المكالمات الهاتفية ... اللي فينا بكفينا ... بيروت تحترق ... والمظاهرات تتوسع في كل يوم، والمتظاهرون يحاولون تدمير مؤسسات الدولة، وأنت مازلت مشغولاً بالتفكير بنادين .

شاهد علامات الامتعاض التي بدت على وجهي، فخفف من لهجته قائلاً: يا سيدي لنفرض أن كلام أم القتيل السوري صحيح ... ماذا تتوقع من زوج نادين أن يفعل عندما يدخل الرجل إلى بيته في منتصف الليل؟ لقد عرض عليه مبلغاً كبيراً من المال ليغادر الفيلا، ولكنه رفض أخذه، وحاول أن يدخل إلى غرفة زوجته نادين .... هل تتوقع منه أن يقف متفرجاً؟ كان لا بدَّ له من أن يفعل ما فعله، وأعتقد أنك لو كنت في مكانه لفعلت الشيء نفسه، ولنفرض أن زوجها ذهب إلى السجن، وتطلقت زوجته نادين، فإن أكثر من مئة

مليونير جاهزون للزواج منها، حاولت أن أبعد الشبهة عن نفسي. فأجبته: إنني أبحث عن العدالة فقط، فزمّ شفتيه قائلاً: لا توجد عدالة في هذا العالم الذي نعيش فيه .... إذا كنت تريد العدالة فسافر إلى السماء لعند الله.

عاد ليردّد بيروت تحترق.. المتظاهرون أخذوا ينهبون أجهزة الصراف الآلي الموجودة عند مداخل البنوك، كما حاولوا البارحة اقتحام مبنى مجلس النواب، وأشعلوا الحرائق في الدكاكين التجارية ضمن الأسواق الرئيسية في مركز العاصمة، إنهم لا يريدون الإصلاح، بل يريدون تدمير المؤسسات الحكومية، لقد استلمت البارحة تقريراً من فرع المكتب الثاني بالمخابرات، وفيه أسماء وصور الشيوعيين والفوضويين الذين يقودون المتظاهرين في مدينة جونية، وأريد منك أن تندس غداً باللباس المدني بين المتظاهرين، لتقوم بتصوير الأشخاص الذين يقودون المظاهرات بوساطة هاتفك الجوال، علينا أن نتأكد من وجود هذه الأسماء في المظاهرات، قبل أن نقوم بإلقاء القبض عليهم، لكي ننقذ لبنان من الانهيار، وأنا أتوقع من كل عنصر في هذا المخفر، بأن يقوم بواجبه تجاه وطنه لبنان.

❖ ❖ ❖

العلامات

بدأت القصة معي منذ حوالي شهرين، عندما كنت جالساً على المقعد بجانب سائق التاكسي، حينما لفتت انتباهي الأرقام الموجودة على لوحة الباص الذي أمامي، لقد اكتشفت بالمصادفة، بأن اللوحة تبدأ برقم خمسة ثم واحد، وهذا الرقم واحد وخمسون، يصادف بأنه السنة الميلادية التي ولدت فيها، بعدها جاء الرقم صفر، تلاه رقم ثلاثة، ثم واحد، فأصبحت محصلة مجموع هذه الأرقام الأخيرة أربعة، فسَّرتها على أنها إشارة ضمنية إلى شهر نيسان الذي ولدت فيه، من تطابق هذه الأرقام، تأكدت أنها إشارات خاصة، أخذت تخاطبني بها القوى الخفية الموجودة في هذا الكون، مستغلةً بعض العلامات التي تستعمل فيها لغة الأرقام، وعلى الرغم من علاقتي العضوية بالرقم أربعة، فأنا أكره هذا الرقم السحري، لأنه رقم مشؤوم عند الصينيين . فهو يلفظ بلغتهم بشكل سيئ، وهو يماثل لفظ كلمة الموت، ما دفعني إلى الشعور بالخوف والقلق منه . بالنهاية لم أجد بداً، من أن أحاول أن أستفيد من هذه العلامات، لحل مشاكلي التي لا تنتهي .

إلا أن حقيقة الأمر، هي أني أعمل مدرساً للرياضيات في مدرسة ثانوية، وراتبي بالكاد يكفيني حتى نهاية الشهر، فأكثر من نصفه يذهب لدفع أجرة غرفة الغسيل التي أسكنها على سطح البناء، التي حولتها صاحبتها الأرملة إلى غرفة سكن مفروشة، وزاد من جشعها، بأنها ضاعفت أجرتها في هذه السنة بحجة غلاء المعيشة، ما زاد من معاناتي في هذه الظروف الصعبة التي أعيشها .

والآن بدأت أبحث عن الأرقام، وأحاول أن أربط بعضها ببعض، لكي أتمكن من فك الشيفرة التي ترسلها لي هذه القوى المجهولة،

فالأرقام ليست مجرد أشكال هندسية، إنما هي مخلوقات حية مثلنا، تعيش بيننا، وتتفاعل معنا، ولها مفاهيمها ومعانيها المدهشة، ولها انعكاسات على حياتنا، وعلى مجرى الأحداث التي نعيشها .

فأصبحت أمشي في الطرقات، وأقرأ أرقام السيارات محاولاً ربطها بالأمور التي تجري من حولي، حتى إنني في الأسبوع الفائت، ذهبت إلى السينما، واخترت مقعداً رقمه واحد في الصف الخامس، وهي سنة تاريخ ميلادي نفسه، وكان هدفي أن أعيش تجربة هذا الرقم من جديد، وأتقرب منه، عسى أن يساعدني على حل مشاكلي المادية، لكن لسوء الحظ، فلقد حضر رجل وزوجته يحملان بطاقتين، إحداهما تحمل رقم الكرسي نفسه الذي أجلس عليه، طلب مني بلطافة أن أنتقل من هذا المقعد، فرفضت ذلك بشدة، واحمرت عيناي من الغضب، وخطر لي أن أصفعه على وجهه أمام زوجته، لتعرف قيمته الحقيقية .

خاف من تعابير وجهي، فابتعد مع زوجته عني، وذهب وشكاني إلى الموظف الذي يعمل مرشداً في السينما، فجاء الرجل، وطلب تذكرتي، وبعد أن فحصها أشار عليَّ بأن أغير مكاني، وأجلس في المقعد المسجل على تذكرتي، فقدت في لحظتها السيطرة على أعصابي، وتصورت بأنها مؤامرة ضدي، فلكمته على صدره، ورفضت تغيير مقعدي، فانسحب بهدوء، وعاد بعد قليل ومعه شرطي، اصطحباني بالقوة إلى مخفر للشرطة قريب من موقع السينما، ثم جاء شاب برتبة ملازم أول، وفتح محضر تحقيق بالقضية .

سألني عن عملي، وفيما إذا كنت أتعاطى المخدرات، وبعد أن تأكد من السجلات الموجودة على الكومبيوتر، بأنني لست من أصحاب السوابق، انتابه نوع من الشفقة، لمنظري المضطرب وعصبيتي الزائدة وسلوكي العدواني، وأحس بمشاكلي النفسية، فأقنع مرشد السينما بأن يتنازل عن

حقه الشخصي، وطلب مني بالمقابل أن أعتذر منه، وتمّ إطلاق سراحي بعد أن تعهدت خطياً بأنني لن ألجأ إلى استخدام العنف مرة ثانية .

وبينما أنا أهم بمغادرة المخفر، همس الملازم في أذني، بأنه من الأفضل وأنا أمر بهذه الظروف الصعبة، أن أراجع طبيباً نفسانياً، ليساعدني على تخطيها، فوعدته بذلك، لكنني في أعماق نفسي، اعتبرت هذه الحادثة بأنها علامة من السماء، تؤكد لي بأنني أسير على الطريق الصحيح .

إن أكثر الأشخاص الذين أراهم من حولي لا يفهمون الرياضيات، ولا يعرفون قيمة الأرقام، ولقد حفظت عن ظهر قلب مقولة لأنشتاين: "إذا لم يشك شخص واحد أسبوعياً بأنك مجنون، فأنت لا تحدث تأثيراً حقيقياً في العالم" . ولطالما اعتبرت أنشتاين مثلي الأعلى في الحياة، وكنت خلال دراستي بالجامعة، دائماً أحلم بأن أكون مثله، لكن الذي بدأ يزعجني بالفترة الأخيرة أنني أصبحت أسمع طنيناً مستمراً في أذني اليمنى، ما جعله يحرمني من النوم المستمر بالليل، فاضطررت لزيارة الطبيب، فأعطاني بعض المهدئات والفيتامينات، وطلب مني أن أراجعه بعد أسبوعين، إذا لم تتحسن حالتي .

مضت عدة أيام، ولم تخف شدة الطنين في أذني، ما أثر في نمط نومي خلال الليل، وجعله متقطعاً، فزاد من شعوري بالتوتر والإجهاد، أصبحت أتمشى في الطرقات، وأنا مركز على أرقام لوحات السيارات التي تمر أمامي، محاولاً أن أجد منها إشارة تفسر ما يحدث معي، فجأة خطر لي أن سبب هذه المشكلة، ربما قد يكون مرتبطاً بأرقام وتواريخ ولادة صاحبة الغرفة التي استأجرتها، فعدت فوراً إلى غرفتي وراجعت عقد الإيجار، فوجدت أن اسمها الأول نوال، يتكون من أربعة أحرف، أما اسم كنيتها نوري، فيتكون لسوء الحظ أيضاً من أربعة أحرف، وهذا الرقم في اللغة الصينية يعني الموت، فتأكدت من دون أدنى شك أن اسمها سبب لكل هذه المشاكل التي أمر بها .

حاولت أن أقمع هذه الأفكار والمخاوف غير المنطقية، التي بدأت تسيطر على تفكيري، جربت أن أتجاهلها، لكنها تخيلات عنيدة غير إرادية، ترفض أن تتركني لحالي، استمرت هذه الوساوس بإزعاجي، ولم أتمكن طوال ليلة البارحة من النوم ولو لدقيقة واحدة، ما أفقدني توازني، عندما طلع الصباح، كنت على وشك الانهيار، فكان لابد لي من التصرف للتخلص من هذه الوساوس .

قرعت الجرس عدة مرات، حتى فتحت الأرملة الشمطاء الباب، كان يبدو من شكلها أنها كانت نائمة، وأنها استيقظت على صوت دقات الجرس، لما شاهدتني، ارتبكت وظهر عليها الارتياب، ولعلها خافت من منظر تقاطيع وجهي وجسمي المرتعش، فحاولت أن تغلق الباب، فوضعت قدمي في شق فتحة الباب، ودفعته باتجاهها، فأخذت تصرخ لتلفت انتباه الجيران، وركضت باتجاه غرفة الجلوس، فأسرعت خلفها وجذبتها من شعرها، وألقيتها على الكنبة الموجودة بالغرفة، وجلست فوقها لتثبيتها، لكي أتمكن من وضع يدي على فمها لإسكاتها، حتى لا يتجمّع الجيران على صوتها، لم يكن في نيتي أن أقتلها، لكنني كنت أود أن أحذرها، لكي تتوقف عن إلقاء لعنة التعويذة العائدة للرقم أربعة، ولا أدري كيف أتتها القوة، فأخذت مزهرية البورسلين الموجود على الطاولة بجانب الكنبة، التي كنّا نتصارع عليها، وضربتني بها على رأسي .

لما فتحت عينيَّ، وجدت نفسي ممدداً على السرير، والضمادة على رأسي، وكانت أفكاري مشوّشة، ولم أستوعب في لحظتها، ما يدور من حولي، بعد فترة قصيرة، جاءت المرضة مبتسمة: "لا تخف، أنت في مستشفى الأمراض العقلية، وإن شاء الله، بعد فترة قصيرة من العلاج، ستعود إلى حياتك الطبيعية" .

❖ ❖ ❖

القطة السوداء

يقوم المشعوذون باستخدام القطط السوداء في السحر الأسود، ولطالما كانت في الأساطير القديمة رمزاً للشرّ والخراب . وبما أنني من المؤمنين بالقوى الخفية، التي تعمل من وراء الستار وتحرك الأحداث في العالم، فلو حدث وصادفت في طريقي قطة سوداء، فأنا أبقى متوجساً منها طوال اليوم، على الرغم من كل هذا، فلقد كنت مضطراً لزيارة بيت أختي، التي عندها قطة سوداء اسمها كارليتا . وفي أثناء وجودي كنت ألاحظ أن القطة تحدق في وجهي باستمرار، كما أشعر ببرودة غريبة تنتابني في حضورها، قد لا تصدق بأنني بدأت أقلل من زيارتي لبيت أختي، من أجل أن أتحاشى نظرات قطتها .

كان لونها الأسود وعيناها الزرقاوان أكثر ما يخيفني في منظرها، ولقد ذكرت ذلك مرة لأختي، فأُعجبَتْ من كلامي، وقالت لي: إن عينيها صفراوان، ونادت ابنتها وسألتها عن لون عيني قطتها، فأجابتها الصغيرة ببراءة: صفراء، فأدركت في لحظتها بأني الشخص الوحيد الذي يرى لون عينيها على حقيقتهما . شعرت بهلع شديد لعدة دقائق نتيجة لاكتشافي صحة نظريتي، ثم سيطرت على أعصابي، وتظاهرت بعدم اكتراثي لهذا الجدال . عندما وصلت إلى بيتي كنت مرهقاً من نوبة الأفكار المتضاربة التي مرت بخاطري .

في إحدى الزيارات لبيت أختي، جلست القطة أمامي محدقةً بي بشكل مستمر، فأدركت بلحظتها بأنها تنظر مركزة على شيء ما خلف ظهري . عندما عدت إلى بيتي، جلست وحيداً أمام المرآة في غرفة النوم، وأطفأت الأنوار ماعدا بصيص الضوء المتسلل من مصباح الشارع، وبدأت أحملق بالعتمة الخافتة في وجهي على المرآة . من دون أن ترفَّ جفوني، بعد عدة دقائق من التركيز، اكتشفت خلفي وجهاً يشبه وجهي إلى حدٍّ كبير، كان لونه أبيض يميل إلى الأزرق، وشعرت بلحظتها بأنفاسه تدغدغ رقبتي، لم أشعر بالخوف، لأنني كنت أتوقع أن أجده خلفي .

عندما ذهبت إلى فراشي للنوم، شعرت بأنَّ هذا الظل يشاركني السرير، وشعرت ببرودة خفيفة تغطي كامل الغرفة، وفي أثناء طريقي إلى عملي كنت أشعر بأنه يمشي إلى جانبي، في بادئ الأمر حاولت أن أعتاد عليه، لكن بعد فترة بدأت أشعر بأنه يشاركني وجودي، أخذت أفقد خصوصيتي، إنه يتابعني في كل مكان، ما دفعني إلى الجنون . باشرت أسأل نفسي، إلى متى أستطيع أن أتحمّل هذه المضايقات؟ بعد أسبوعين أصبحت على أبواب انهيار عصبي، فقررت أنه لا بدَّ لي من التخلص منه .

إنه مطَّلعٌ على كل تصرفاتي، فهو يرافقني طوال الوقت، لكنه حتى هذه اللحظة، لم يتمكن من الدخول إلى جسدي، لكي يعرف أفكاري، أمضيت يومين وأنا أضع الخطة في دماغي للتخلص منه . لما دخلت المطبخ، أخرجت بطيخة خضراء وسكيناً كبيرةً لكي أقطعها، وبينما بدأت أحزُّ قشرتها الخارجية الخضراء، دفعتُ فجأةً السكين بيدي إلى خلفي، فوق كتفي إلى رأس الشبح الذي يرافقني، فشعرت بألم رهيب عندما انغرزت السكين في ظهري، وبدأت الدماء تسيل بغزارة، ولا أدري كيف تحاملت على نفسي، فتوجهت مسرعاً نحو بيت الجيران، وقرعت الباب المقابل إلى شقتي، فحملوني إلى المستشفى، وأُجريتْ لي عملية تمَّ خلالها خياطة الجرح، ثم جاء دور الشرطة الجنائية للتحقيق في الحادثة . وفي أثناء أخذ إفادتي، سألني المساعد الأول: كيف جرت الكارثة؟ فقلت له: إنني وفي أثناء وقوفي بالمطبخ، التفتُّ فشاهدت رجلاً أسمر قصيراً، لم أشاهده من قبل في حياتي، يطعنني بالسكين من خلفي، فصرخت من الألم، فهرب الرجل، وهرعت إلى بيت الجيران . بدت علامات الدهشة على وجه الشرطي، وكأنه لم يصدّق كلمةً واحدةً مما أقوله، لكنه بالنهاية ختم المحضر بعبارة: قضية ضد مجهول .

❖ ❖ ❖

اللعنة

هذه قصة حقيقية حدثت معي، منذ أكثر من عشر سنوات، كنت حينها طالباً في الصف الثالث بكلية الطب في جامعة دمشق . كانت لي عمة اسمها فوزية، وكنت أحبها كثيراً . ولها بنت وحيدة أصغر مني، وكانت عمتي دائماً تقول بأن ابنتها لمياء ستكون من نصيبي، وستزوجني إياها بعد أن أنتهي من دراسة الطب . لم أكن أشعر بمشاعر جنسية نحو ابنتها، فهي قصيرة وسمينة ومتوسطة الجمال . لكني كنت أكتفي بمسايرتها، وأهزُّ رأسي بالإيجاب .

أصيبت لمياء بمرض سرطان الرئة، وبدأت حالها تسوء من يوم إلى آخر . في إحدى الأمسيات، اتصلت عمتي على جوالي، وطلبت مني الحضور فوراً إلى منزلها، فهي خائفة من أن تدوخ وتسقط على الأرض . عندما وصلت إلى هناك، كانت عمتي جالسةً على الكرسي إلى جانب ابنتها التي تبكي من شدة ما تكابده من آلام فظيعة، وعمتي ممسكة بيدها لتشعرها بأنها معها، مستمرة بأحاديثها، على الرغم من أن لمياء غير قادرة على الكلام، فهي تعيش بين حالة الوعي واللاوعي . تأكدت بأنها تحتضر، وهي على وشك الموت، ولن تعيش حتى الصباح . أخذت عمتي تبكي وتنوح مرددةً بأنها ستقتل نفسها إذا ماتت ابنتها وتركتها وحدها في هذا العالم، ولقد أكد الطبيب الاختصاصي مراراً لعمتي بأن مرض ابنتها متقدم كثيراً، ولا يمكن علاجه، لكنها ظلت ترفض تصديق ذلك .

من دون أن أسأل عمتي، ذهبت وأحضرت إلى بيتها ممرضاً أعرفه، يمارس التنويم المغناطيسي في مستشفى الجامعة، ليقوم بتنويم لمياء مغناطيسياً، وليخفف عنها آلام سكرات الموت . أخرج الممرض من جيبه ورقة بيضاء وعليها نقطة دائرية سوداء . ويبدو من حركاته بأنه يستعملها عادة مع مرضاه، بدأ طالباً من لمياء الاسترخاء

والتركيز ببصرها على النقطة السوداء التي أمامها، وأخذ يحرك الورقة بحركات دائرية، موحياً لها بكلمات منخفضة تشبه الهمسات، بأن عليها أن تعود إلى أيام طفولتها، وتتذكر شكل أمها من خلال متابعتها للنقطة السوداء التي أمامها . استمرت العملية حوالي عشر دقائق . فبدا على وجهها بأنها نائمة، وفي أثناء مغادرته باب المنزل دسَّت في يده مئتي ليرة سورية، مقابل هذه الخدمة .

ما كدت أعود إلى غرفتها، حتى استيقظت من جديد، وبدأت تصرخ بشكل هستيري . اتركوني اتركوني، فهي ترى صورة أبيها الذي مات وهي طفلة صغيرة، يمرُّ من أمامها . فالتفتُّ ورائي، ولم أرَ شيئاً . لقد دخلت حالة الاحتضار، في حالة من الهلوسة الممزوجة بالخوف الشديد، لأنها ربما ترى وهي مقبلة على الموت أشياء لا أستطيع رؤيتها . لن تعود بعد هذه المرحلة للحياة مرة أخرى . وأمها جالسة على طرف الفراش مرددةً إذا ماتت فسأقتل نفسي .

خطر لي في هذه اللحظة أن لمياء مادامت لا تزال تحت تأثير التنويم المغناطيسي وفي حالة اللاوعي، فإن روحها لن تغادر جسدها . لقد اكتشفت عمتي هذه الحقيقة بحاستها السادسة، فشعرت بالسعادة، وتصورت بأنها تستطيع أن تحتفظ بابنتها في هذه الوضعية على الدوام، لكن لمياء لم تتوقف عن البكاء، وهي تناشدنا أن نتركها، لأنها لم تعد تتحمل هذا العذاب . أصبح الموقف في هذه اللحظة مخيفاً، حاولت أن أوقظ لمياء من وضعية التنويم المغناطيسي بكل الطرق التي أعرفها ففشلت . أنينها يزداد قوةً، مسبباً الطنين في أذني . اتركوني اتركوني لم أعد أستطيع أن أتحمل، أريد أن أموت وأرتاح، وعمتي تتظاهر بأنها لا تسمع هذا الصراخ . لقد كان كل ما يهمها أن تبقى جثة ابنتها تتنفس معها في البيت، فأدركت بأنني أنا السبب في كل ما حدث .

طلبتُ من عمتي أن تُحضرَ لي فنجاناً من القهوة، فأعصابي لم تعد تتحمّل هذا المنظر المرعب، وأنا على شفير انهيار عصبي، لما تأكدت بأن عمتي أصبحت في المطبخ . قمت من على الكرسي . وأخذت المخدة الموجودة على السرير، ووضعتها على وجهها، وأطبقت يديَّ على المخدة، وأنا أضغطها بكل قوتي، والغريب أنها لم تبدِ أيَّ مقاومة، وكأنها كانت تشعر بسعادة من هذا الألم الفائق، بعد لحظات توقف جسمها عن الارتعاش، وسكتت إلى الأبد، ورحلت عن هذا العالم، الذي لم تعرف فيه سوى الشقاء .

❖ ❖ ❖

الوهم

عندما تجلس وحدك في المكتب، وأمامك ورقة بيضاء، تحاول أن تكتب قصة قصيرة، لتنشرها على أحد المواقع الإلكترونية .

حينما لا يوجد في عقلك أفكار تستحق كتابتها، لكنك عبثاً تحاول أن تخطّ بعض الكلمات الغامضة وغير المترابطة، لتعطي الانطباع بأنك مفكر من الطراز الرفيع، فتتشكل بالنهاية على الورقة، جمل قصيرة غير موزونة، فتملأ الصفحة بها، تحت عنوان: خواطر أدبية، حتى إنك تجد نفسك بعد هذا العناء، عاجزاً عن النجاح في تلك التمثيلية .

تفتح الفيسبوك من جديد، وتحاول أن تمرَّ بسرعة على البوستات المصوّرة، لكي تحصل على بعض الإلهام، لكنك تجد أن أكثرها تافهٌ لا يستحق المتابعة، ثم يخطر لك أن تفتح موقع غوغل لمشاهدة صور بعض الممثلات الشهيرات وهن عاريات، لعلك تحصل على بعض الإثارة، ما قد يشجعك على الكتابة في موضوع الجنس، لتجذب القارئ على متابعتك، لكنك عبثاً تفعل، فالمقالة باردة، لأنها غير مشحونة بالعواطف الصادقة، ولتكتشف بالنهاية أن جميع هذه الأشياء التي وردت على بالك، لا تستحق الكتابة عنها .

عندما تصل إلى هذه النقطة، تكون قد أصبحت حراً، لأنك قد تحررت من الوهم، بأن هناك أشياء في الحياة، تستحق الكتابة عنها .

❖ ❖ ❖

سيارة للإيجار

منذ ثلاث سنوات، كانت المظاهرات في شوارع بيروت ما زالت في بداياتها، لكن الأحوال المعيشية ما زالت مقبولة . في تلك الفترة تخرجت في كلية الهندسة المدنية بالجامعة اللبنانية، وتوظفت لدى مديرية الأشغال العامة بمدينة بيروت . واستمررت بالعيش مع والدي المتقاعد ووالدتي، ولم أكن مسؤولاً عن مصروف البيت . بعد فترة قصيرة أصبح معي سبعة آلاف دولار، فأعطاني هذا المبلغ الصغير الشعور بالثقة في المستقبل، ما شجعني للاستماع إلى نصيحة والدتي، والتقدم لخطبة ابنة خالي هيفاء، التي تقيم مع عائلتها بمدينة عمّان في الأردن .

بعد سنة تزوجتُ ابنة خالي، وانتقلتُ هيفاء لتعيش معنا في الشقة التي يملكها والدي، وكنت محظوظاً لأني وجدت عروساً توافق على العيش مع حماتها في شقة صغيرة في بيروت، ولعلها رضيت بالوضع على مضض، لقلة الخيارات التي كانت متاحة أمامها . لكن المصائب لا تأتي فرادى على قول شكسبير، فبعد فترة حملت زوجتي، وبدأت علاقتها بحماتها تتدهور بشكل كبير، ولما كانت أحوالي المادية لا تمكنني من استئجار أي سكن في بيروت، فكان الحل الوحيد أمامي هو مسايرة زوجتي، لتوافق على البقاء معي في هذه الشقة اللعينة .

أصرت زوجتي على شراء سيارة صغيرة، لكي نتمكن من الذهاب بمشاوير في يوم الجمعة إلى الجبل والاستمتاع بمناظره الخلابة وجوِّه البارد الجميل، بعيداً عن شقتنا التي باتت كالسجن في عينيها، كما دفعتني الرغبة لامتلاك سيارة للذهاب والعودة من الوظيفة، من دون انتظار جحيم الباصات، الذي أصبح لا يُطاق بهذه الظروف الصعبة . بالنهاية وجدت سيارة ماركة بيجو صغيرة مستعملة وبحالة

جيدة، وسعرها أحد عشر ألف دولار، ولما كان كل ما أملكه في ذلك الوقت لا يزيد على سبعة آلاف دولار فكان الحل الوحيد، هو حصول زوجتي من والدها في الأردن على المبلغ المتبقي لثمن السيارة، على أساس أنه دين على رقبتي، وسوف أرده في المستقبل عندما تتحسن أحوالي المادية .

مع الأيام ازدادت الاضطرابات في لبنان، وبدأ يفقد توازنه الهش واتزانه الظاهري، وارتفعت الأسعار بشكل جنوني، وأصبح راتبي وراتب تقاعد والدي بالكاد يكفينا لفتح البيت، وأصبحت تكلفة البنزين وتصليح السيارة ودفع التأمين عليها يفوق قدراتي، ففكرت ببيع السيارة لضغط المصاريف إلى الحد الأدنى، لكن زوجتي قاومت هذه الفكرة بشدة، واقترحت عليّ أن أطلب من صديقي المهندس سمير الذي أمرُ عليه في طريقي لاصطحابه معي إلى المديرية في كل يوم، أن يدفع حصته من ثمن البنزين، في البداية شعرت بالخجل من مفاتحته بالموضوع، لكني بالنهاية وجدت نفسي مضطراً لأخذ مبلغ مقطوع منه تحت اسم بدل مواصلات، لكن الأسعار تابعت ارتفاعها، فطلبت من صديقي سمير أن يتوسط مع المهندسة التي تعمل معنا في المديرية لكي نقوم بتوصيلها يومياً إلى بيتها مقابل مبلغ مقطوع، وبعد مناقشات ومساومات مستفيضة توصلنا معها إلى صفقة مقبولة .

الأمور يبدو أنها ستستمر في التدهور على المدى البعيد، ومصروف البيت وطفلي الصغير لا يعرفان الرحمة، لذلك طلبت من صديقي سمير أن يعرض خدماتنا للتوصيل على المدير المالي، وكالعادة بعد أخذٍ وردٍ اتفقنا على مبلغ مقطوع، لا يغني ولا يسمن من جوع .

الأمور ما زالت تتدهور في كل يوم، والتضخم في الأسعار ينهش الجميع، فعرضت مرة ثانية على سمير بأن يفاتح مدير الشؤون الإدارية في مديريتنا، بأن نؤمن له المواصلات إلى المديرية، مقابل مبلغ

مقطوع أسوة ببقية زملائه، فوافق المدير على ذلك، لكن برزت لنا مشكلة جديدة، فالمدير بدين، وسيارة البيجو بالكاد تتسع في مقعدها الخلفي لثلاثة أشخاص نحيفين وقصار القامة، فما كان من سمير النحيف، إلا أن تبرع بمقعده الأمامي للمدير، ليجلس بالمقعد الخلفي .

كل شيء بالنسبة لي يسير بطريقة معكوسة، وتكلفة المعيشة بارتفاع مستمر، عندما عرض مدير الشؤون الإدارية بأن يستأجر السيارة مني في يوم الجمعة من كل أسبوع، مقابل مئتي دولار شهرياً، وافقت فوراً، إنها رزقة إضافية وقعت من السماء، ولا يمكنني رفضها، قابلت زوجتي هذا الخبر بامتعاض، لأننا تعودنا في أغلب الأحيان على الذهاب إلى الجبل في أيام الجمعة للاسترخاء والفضفضة، ومشاهدة المناظر الطبيعية الساحرة لجبل لبنان، وهو ينحدر بشكل قاسٍ ليلتقي بالبحر البلوري الأزرق، بعد فترة تشجعت المهندسة التي في مجموعتنا، وأخبرتني بأن زوجها يرغب في أن يستأجر السيارة مني، في عطلة يوم السبت مرتين شهرياً مقابل مئة دولار، فوافقت على اقتراحها من دون تردد .

لما عدت إلى البيت، لم أجد بداً من الاعتراف لزوجتي بأنني قد قمت أيضاً بتأجير السيارة في يوم السبت، فقالت لي غاضبة "بأن الحياة قد وصلت إلى نقطة لم تعد تحتمل"، لأنه لم يعد باستطاعتها تمضية كل أيام السبت مع الشلة، على شواطئ مياه البحر الصافية في خليج جونية، فشرحت لها "بأننا صحيح قد قمنا بتأجير السيارة، ولكننا ما زلنا نحمل صك الملكية، ويمكننا في كل لحظة أن نستعيدها ونتوقف عن تأجيرها"، فرسمت ابتسامة غبية ساخرة على وجهها، وكأنها لا تصدق ما أقول، ما أثار غضبي، وأجّج شعور الإحباط المتراكم في أعماقي، فاقترحت عليها أن تسافر إلى بيت والدها في عمان لفترة قصيرة، لتخفيف عبء المصاريف، أو أن

تسأل أباها المرتاح مادياً، لكي يعطيني قرضاً بمبلغ عشرين ألف دولار، وسوف أسدده له عندما تتحسن أوضاعي المالية . أصابها الذهول من جوابي القاسي، فتظاهرت بأنها لم تستوعبه، وأجابتني "الله يصبرنا على هذا المقدور"، فأدركت من جملتها، بأنها أصبحت مرغمة على الموافقة .

بعد فترة قصيرة، وفي يوم الجمعة، اتصل معي مدير الشؤون الإدارية بالهاتف، وأخبرني بأنه موقوف بمخفر المصيطبة، لأنه تعرض لحادث اصطدام مع سيارة ثانية، ومن الضروري حضوري فوراً إلى هناك . لما وصلت إلى المخفر تبيّن لي أن صاحبنا قد اصطدم بسيارة مرسيدس رياضية حديثة، وأن تكلفة إصلاحها تزيد على خمسة آلاف دولار، ما عدا إصلاح سيارتي المتضررة، وأن بوليصة التأمين على سيارتي تغطي الحادث فقط، في حال أنني كنت أقودها بنفسي . وفوق ذلك، وبما أنني مالك سيارة البيجو، فعليَّ شخصياً دفع تكاليف إصلاح سيارة المرسيدس، وقال لي مدير الشؤون الإدارية، وهو يحاول أن يقلل من وقع المصيبة: "إنه لا يملك حالياً هذا المبلغ، لكنه دين برقبته وسيدفعه لي عندما تتحسن ظروفه المادية"، فاضطررت لبيع سيارتي المعطلة بوضعها الحالي إلى أحد الكراجات، فحصلت على ستة آلاف دولار، وبعد أن دفعت تكلفة تصليح سيارة المرسيدس، لم يبقَ معي سوى أقل من ألف دولار .

إثر هذه الحادثة، استقلتُ من وظيفتي، وهاأنذا الآن في التاكسي مع زوجتي وطفلي في طريقنا إلى عمّان، لنعيش في بيت خالي مؤقتاً، حتى أحصل على وظيفة جديدة، وتتحسن أحوالي المالية، لكي أتمكن من فتح بيت مستقل لعائلتي، في المستقبل المجهول .

❖ ❖ ❖

السيجارة

في الغرفة وحدي جالسٌ على الكنبة مع صديقي سعيد، نراقب بخمول مباراة كرة القدم على التلفزيون، وأنا أنفث دخان سيجارة الحشيش في الهواء، أتأمله ملياً وهو يتصاعد عمودياً بشكل حلقات صغيرة متصلة ببعضها، لتتلاشى في الفراغ، مستمتعاً بنفث الدخان عالياً مثل نجوم هوليوود المشهورين .

الجلسة تعطيني الشعور بالاسترخاء، وتنقلني من حالة نفسية إلى أخرى، فأنا أشاهد نفسي الآن، ألعب كرة القدم على أرضية الملعب الخضراء، والجماهير كلها بحماس تهتف باسمي، وكدت قبل قليل أسجل هدفاً في مرمى الخصم، تمرُّ عليَّ لحظات سعيدة، فأعيش أحلامي بالشكل والزمان الذي كنت دائماً أتمناه، بعيداً عن هذا الواقع المقيت .

صديقي إلى جانبي لا يتوقف عن الكلام، فيقطع عليَّ سلسلة الأحلام الجميلة التي تركض أمام عيني كشريط فيلم سينمائي، وقد قمت بكتابة السيناريو له، وأخرجته على نفقتي الخاصة، والمشكلة أن صديقي مازال مستمراً بهذا الحشْو، وأنا في وضع مشوّش، أجد صعوبة كبيرة في تمييز الكلمات التي تخرج من فمه، موزعاً نفسي بين ما أسمعه، وبين أحلام اليقظة التي تلبسني بالكامل، بالنهاية وصلت إلى درجة، أصبحت لا أستطيع أن أفهم فيها، ماذا يريد من هذا الحوار، لكني كنت أجد نفسي مضطراً للإيماء برأسي من حين إلى آخر، لأعطيه الشعور بأنني أتابعه باهتمام .

فهمت من مجرى المحادثة، بأن هناك بعض الحكي عن بنت جيراننا ناديا، فهززت رأسي بالموافقة، لمجاراته في هذه الشائعات، ثم فاجأني بسؤاله: هل أنت متأكد من الموضوع، ولمَ كنت

مضطرباً؟ في البداية خطر لي أن أعترف بصراحة، بأنني لم أستوعب القصة، لكني بحكم النشوة التي أعيشها، ولكيلا يقطع عليَّ نوبة الزهزهة التي أمرّ بها، مرة ثانية، رغبت في اختصار النقاش، فأجبته: "مية في المية" فسألني أكيد؟ ولكي أنهي الحديث، أجبته: طبعاً أكيد .

سمعت بعدها صدى صوت باب شقتي يغلق بعنف شديد، ما جعل كل قطعة من جسمي تتناثر، وطارت النشوة من رأسي، فقررت الذهاب إلى الفراش، لعلي أستطيع الاسترخاء واسترجاع المتعة التي هربت مني، بسبب صوت دوي الباب، وبينما أنا ممدد على الفراش، أحاول أن أستعيد صورتي، وأنا أركض بالملعب مقترباً من المرمى، في هذه اللحظة، وأنا أركل الكرة بقدمي اليسرى، لأسجل هدفاً جميلاً يثير جنون الجماهير، التي بدأت تهتف باسمي من المدرجات، يرنّ فجأة جرس الهاتف، في البداية تكاسلت، وفكرت بألا أرفع السماعة، لكيلا أقطع سلسلة الأفكار السعيدة التي بدأت تراودني في مخيلتي من جديد، لكن الجرس اللعين لم يتوقف، عندها رفعت السماعة، لأسمع صوتاً خشناً يسألني: "حضرتك الأستاذ محمود صليح"، فأجبته نعم، فتابع كلامه: "معك المساعد أحمد من مخفر الصالحية"، فشعرت بسعادة كبيرة، وتصورت أن جوالي نوكيا الجديد، الذي كان قد سُرق مني منذ شهرين، قد وجده أحدهم وأوصله إلى المخفر، فأخذت أشكر المساعد أحمد، لإرجاعه جوالي النوكيا، لكنه أجابني بنشافة: "شو جوال! شو نوكيا"! حينئذٍ توقف عقلي عن الدوران، ولم أعد أستوعب ما يجري . وتابع حديثه: "مطلوب منك أن تحضر غداً صباحاً إلى قسم التحقيق في مركز الصالحية، للإدلاء بإفادتك حول إطلاق صديقك سعيد النار على خطيبته ناديا، وإصابتها بجروح خطيرة" .

بناءً على المعلومات التي أعطيتها له، من شدة خوفي فكرت في بادئ الأمر بأن أقول له، بأنه غلطان برقم الهاتف، لكنني ترددت خوفاً من عواقب اكتشافه لهذه الكذبة، فأجبته: حاضر . بعدها حاولت أن أعود إلى خيالاتي، وأتصور نفسي بأنني مازلت في مباراة كرة القدم، لكن لسوء حظي، فإن مشاعر الهلوسة قد طارت، وصحوت نهائياً من تأثير الحشيشة، نتيجةً لهذه الرعبة، وعدت أفكر بما سأقوله غداً في إفادتي، وتوهمت للحظة بأن أسهل وسيلة للهروب من هذه الورطة، أن آخذ مسدس البريتا الموجود في خزانتي، وأطلق النار على رأسي، فأتخلّص من هذا الواقع والشقاء الذي لا ينتهي، لكنني أعرف بأعماقي، بأنني أجبن من أن أفعل ذلك .

بالنهاية جمعت نفسي، واتخذت قراراً، بما سأقوله غداً، بأنني آخر مرة شاهدت فيها صديقي سعيد كان منذ يومين، عندما زارني في دكاني، وطلب مني قرضاً، فاعتذرت منه لصعوبة أوضاع السوق المالية في هذه الأيام .

في صباح اليوم التالي، وصلت إلى المخفر متثاقلاً، فما الذي سأقوله للمحقق؟ ناديا جارتنا، وسعيد صديق الطفولة، ويعزّ عليَّ ما حصل، كنت أتمنى في سري ألا تكون إصابة ناديا خطيرة، كما أخبرني الشرطي على الهاتف، وبعدها أدخلوني إلى غرفة صغيرة في منتصفها طاولة، وحولها ثلاثة كراسي . كنت أسمع صدى أصوات تعذيب مستمرة صادرة من حولي، جربت أن أقنع نفسي بأنها صادرة عن آلات تسجيل موجودة في غرفة مجاورة، من أجل إدخالي في نوبة من الهلع، انتابتني حالة خوف مفاجئة، فشعرت بهبات ساخنة، وزيادة في معدل خفقان قلبي، وبدأت أفقد السيطرة على نفسي، واعتقدت أني سأصاب بنوبة قلبية، فبدأت أتنفس بعمق، وأحدّث نفسي بلطف، بأن الأمور كلها ستكون على ما يرام، لكي أسترخي وأعود إلى طبيعتي .

بعد حوالي نصف ساعة، فُتح الباب، ودخل المساعد أحمد ومعه صديقي سعيد حافي القدمين، ولقد ظهرت آثار التعذيب على وجهه، وقال المساعد موجهاً حديثه لي: البارحة جارتك ناديا ماتت بالمستشفى، وصاحبك سعيد كتب في إفادته بأنه عندما سألك عن وجود علاقة بين خطيبته ناديا، وزميلك حازم تاجر الأدوات الكهربائية أجبته بالمرة الأولى مية بالمية، ولما كرر لك السؤال فيما إذا كان يجب أن ينتقم منها، لأنها مرغت سمعته بالتراب، كان جوابك طبعاً أكيد، لقد قمت بتحريضه على ارتكاب جريمة قتل ناديا .

اندهشت من سماعي خبر وفاة جارتنا ناديا، فطارت من فكري القصة التي أعددتها حول زيارة سعيد لدكاني، ولم أعد أعرف ماذا عليَّ أن أفعل، فتابع المساعد حديثه: "كل شخص يدخل المركز، يتظاهر بالبراءة، ولكن بعد وضعه ساعتين على الفلقة، يكره حياته، ويبدأ بالتغريد مثل البلبل، الله يرضى عليك لا تعذبني، ولا تعذب حالك، اعترف بالحقيقة أحسن لك، الفلقة عندنا لا ترحم أحداً" .

وضع قلماً وورقة رسمية بيضاء أمامي على الطاولة، وهو يضحك مستهزئاً، "إن شاء الله خطك حلو، اكتب اعترافك بخطٍّ واضح، لأن المحقق الجنائي عندنا بصره ضعيف"، كان يحاول بهذه السخرية مني أن يحطم ما بقي من إرادتي، وتابع ساخراً: "خذ وقتك ساعة . . ساعتين . . ثلاث، ما حدا لا حقك بعصا، لكي تتأكد من صحة المعلومات التي تكتبها" . مستخدماً بخبرته الطويلة أسلوب الاستهزاء والترهيب لإذلالي، لكي أخضع لمشيئته وأستسلم، ثم غادر الغرفة مع سعيد، وبقيت جالساً وحدي وراء الطاولة، أفكر بماذا سأكتب .

بدأت ركبتاي ترتجفان بشكل لا يمكن السيطرة عليه من شدة خوفي، فلو أنني اعترفت بأني كنت تحت سيطرة سيجارة الحشيش، فسأذهب إلى السجن وتُدمّر سمعتي . أما إذا اعترفت بأنني أجبته

بمية بالمية، ثم طبعاً أكيد، فسأحاكم بتهمة التحريض على القتل، تصورت في هذه اللحظة بأن أفضل طريقة، هي أن أتمسك بقصتي السابقة التي حبكتها، عن رفضي إعطاء سعيد قرضاً مالياً، فبدأت بكتابتها على الورقة الرسمية التي أمامي .

بينما أنا منهمك في الكتابة، سمعت أصوات هرج ومرج قادمة من الطرف الآخر للمخفر، وبالكاد ميزت فيها صوت المساعد أحمد وهو يصرخ: "العمى بقلبك كيف ما شفت حزام البنطال، وكيف تركته لابسه"، وبدأت الأصوات العالية تتلاشى، ليتحول الجدال إلى نقاش وهمهمة بصوت منخفض أصبح من الصعب عليّ متابعته .

بعد قليل انفتح باب الغرفة، دخل الشرطي وقال لي: "صديقك سعيد شنق نفسه بالزنزانة بحزام بنطاله الجينز، والآن تمَّ إغلاق موضوع التحقيق، ويمكنك الذهاب إلى بيتك" .

❖ ❖ ❖

تحت تأثير البنج

بينما أنا مستلقٍ على سريري في المستشفى، أعاني من الضجر، فساعات الانتظار عادةً تمرّ ببطء شديد، كنت متوتراً ولا أدري ماذا أفعل . خطر لي أن أركّز ببصري على نقطة سوداء، لرأس المسمار الموجود أمامي على الحائط . استمررت بالتحديق فيه بشكل ثابت، من دون أن أشتّت انتباهي أو أرمش بعيني، فصفا ذهني، وشعرت بالهدوء والاسترخاء، وتخيلت صوراً لوجوه أشخاص أحبهم، فدخلت في حالة من السكون . لقد اعتدتُ على القيام بتمارين القوة المغناطيسية للنظرة منذ صغري، فهي تريح أعصابي، وأنا الآن أمضي وقتي بممارستها، حتى يحين موعد عمليتي الجراحية لاستئصال المرارة بوساطة المنظار . هناك دائماً شعور بالرهبة من الموت، لكني في تلك اللحظات لم أكن خائفاً، لأن الطبيب الجراح أكد لي مراراً، بأنها عملية بسيطة، ولا تستدعي القلق، لكن تبقى فكرة الخوف من المجهول مسيطرةً على تفكيري . قد لا يرتبط التخدير العام بالوفاة، إلا أنه قد يحدث بسببها أحياناً .

أخيراً جاءت الممرضة، وحقنتني بإبرة مسكنة في الوريد، لكي تساعدني على الاسترخاء . بعد فترة قصيرة، عادت ومعها ممرض، ساعدتني في الجلوس على كرسي متحرك، دفعه الممرض باتجاه غرفة العمليات الجراحية، لأجد نفسي بالنهاية، ممدداً على طاولة العمليات . أول ما لفت انتباهي في هذه اللحظة شدة الأضواء الساطعة المركزة على جسدي، فأُصبت بالانبهار من شدة لمعانها . وضع الطبيب الكمامة على أنفي وطلب مني أن أستنشق غاز التخدير بشكل طبيعي، وأن أتوقف عن التوتر، وأن أبدأ بالعدّ من واحد إلى مئة، وأخذ اختصاصيُّ التخدير يتحدث لي عن ميزات عملي كمهندس مدني، ليشدَّ انتباهي بعيداً عن انتظار وتوقع لحظة

فقدان الوعي . شعرت بالخوف من أن يبدأ الجراح العملية قبل أن أكون قد دخلت في مرحلة اللاوعي، فصرت أحرك سبابتي باستمرار، لأعطيه الإشارة بأنني مازلت واعياً .

أصبح كل خوفي الآن منصباً على ألا أتحدث من دون وعي، وأنا تحت تأثير البنج، فأنا الآن عالق بين مستوى الوعي واللاوعي، وقد يبوح عقلي الباطن بما أفكر فيه بشكل دائم، فيكشف لساني عن بعض أموري السرية، ويخرجها من طَي الكتمان إلى عالم العلن . لكل واحد منا قصص مستورة يحاول أن يخفيها عن الجميع، ربما لأنه يخجل منها، أو لأنها خطيرة، قد تؤدي به إلى الهلاك . علماً بأن الجهاز الطبي يدّعي أن كل ما ينطق به المريض، يعتبر سراً مقدساً، لا يمكن التحدث به لأي إنسان، لأنهم أدوا القسم على التمسك بقسَم أبقراط، قبل مزاولتهم مهنة الطب، لكن في هذه الأيام، أصبح من الصعوبة بمكان، أن تثق بأيٍّ إنسان .

كانت ليلة ضبابة كئيبة على ما أذكر، تدنت فيها الرؤية، بعد أن غادرت بار فندق الشيراتون في منتصف الليل، أخذت الطريق الضيّق المؤدي إلى ساحة الأمويين، كانت العتمة تلف الشارع، إلا من بعض الأضواء الخافتة المنبعثة من المصابيح القليلة المعلقة على أعمدة الإنارة المنتشرة على جانب الطريق . شاهدت خيالاً لدراجة تسير في منتصف الشارع، وما زاد في ظلام الليل، أني نسيت إضاءة المصباحين الأماميين لسيارتي . وفجأة أحسست بهزة خفيفة في السيارة، تلاها صوت ارتطام خفيف . شاهدت ظلاً لرجل وهو يطير في الهواء، ليقع على جانب الرصيف، فاختفت النشوة التي كنت أعيشها من جراء كأسي الويسكي . ولم أعد أدري ماذا أفعل . توقفت ونظرت من نافذة السيارة إلى المسكين، وشاهدته وهو يئن محركاً رأسه . فاطمأن بالي، فلا شك أن إصابته خفيفة . فأنا أصلاً لم أكن مسرعاً عندما صدمت دراجته بسيارتي، حاولت التبرير لتبرئة نفسي، بأنه هو المسؤول عن

هذه المصيبة، فقد كان يسير باتجاه معاكس في منتصف الشارع، وهو بذلك مخالفٌ للقانون . لربما كان سكراناً أو تحت تأثير المخدرات، فأسرعت في طريقي مبتعداً عن موقع الكارثة . على الرغم من شعوري بالذنب، لم أتوقف لمساعدته، وأقنعت نفسي، بأن السيارة القادمة بعد بضع دقائق، ستشاهده وهو ملقى على قارعة الطريق، وسوف تأخذه إلى المستشفى . عملياً كنت خائفاً من قدوم الشرطة ومن المساءلة القانونية .

لما وصلت إلى بيتي شعرت بذعر شديد، وسمعت صوت دقات قلبي في أذني، وأخذت أتنفس بسرعة، فعرفت حينها بأنني أصبت بنوبة هلع ما بعد الصدمة . أخذت حبتين من دواء منوم، وذهبت إلى فراشي لأتخلص من التوتر، ولكي تهدأ أعصابي . ما كدت أغمض عينيّ حتى شاهدت قطاً أسود جاثماً على صدري، تسيل من أنيابه نقاط دم حمراء، لتقع على قميصي، حركت يدي اليمنى لأدفعه بعيداً عني، ولكني لم أحسّ بها . أصبح جسمي كله مشلولاً وعاجزاً عن الحركة . حاولت أن أصرخ بأعلى صوتي لأخيف القطّ، ولكن صوتي ظلَّ مختنقاً في حنجرتي . انتابني فزع شديد، واستيقظت من نومي، لأجد أن كل ما شاهدته، كان عبارة عن حلم قصير استمر لبضع دقائق . أصبحت خائفاً من العودة إلى النوم، خشية أن يتكرر هذا الحلم من جديد .

بدأت أتجنّب النوم لكثرة الأحلام المرعبة التي أشاهدها، أثّرت قلةُ النوم في حياتي، فأصبحت مشوش التفكير وغير قادر على التركيز . بدأت أحبّ العزلة والابتعاد عن أصدقائي . لم أعد أعيش الحياة التي كنت قد تعودت أن أعيشها . ولأول مرة في حياتي بدأت أعاني من وسواس الموت والخوف من العقاب .

لاحظ صديقي سعيد تغيّر أحوالي، ففاتحني بهذا الموضوع، وردَّ ذلك إلى أن عيناً قد أصابتني، لأني تاجر غنيٌّ، أو لربما أن هناك

فتاة، ألقت عليَّ تعويذة بوساطة ساحر شاطر، لكي ترغمني على الزواج منها، مع أنني لا أؤمن بهذه الخزعبلات، لكن كنت كالغريق الذي يحتاج إلى قشة ليتعلق بها .

دبّر لي صديقي موعداً مع غجري يعيش في منطقة القدم، على أطراف مدينة دمشق، وعلى حسب زعمه فهو مشهور في فكّ السحر والإصابة بالعين، وعنده القدرة على استحضار قوى غير مرئيّة من الكون، يمكنها أن تساعدني على حدوث تغييرات في جسمي، فتخلصني من اضطراباتي النفسية . لما دخلنا الخيمة التي يعيش فيها، أجلسنا على الأرض حول طاولة خشبية مستطيلة متهالكة . أخذ عود أسنان من على الطاولة، رسم به ست علامات على شمعة حمراء، فقسمها إلى سبعة أجزاء متساوية، وعلى الوجه الآخر بالعود نفسه كتب اسمي بحروف لاتينية . وضع الشمعة بيني وبين مرآة صغيرة، حملها بيديه، وطلب مني التركيز على لهيب الشمعة، وأخذ يلقي تعاويذ بلغته الدومرية . وعندما احترقت الشمعة بكاملها، أخبرني بأن اللعنة قد دُمّرت مع احتراق الشمعة . عند مغادرتنا الخيمة، دسست في يده عشرة آلاف ليرة سورية .

يقوم مبدأ السحر على الوهم، فهو نشاط يغيّر حالة معتمدة، بناء على إرادة الشخص، إنه الإيحاء للشخص المسحور بأن في مقدرته تغيير أحواله، باستقدام الأفكار الإيجابية الموجودة حوله في الكون وجذبها إلى دماغه . وبذلك تتحقق الأماني التي يريدها، وتصبح جزءاً من واقعه الحالي، يلعب الزمن دوراً في تسهيل هذا الأمر . إن الطبيب يعتمد على القدرة الذاتية لجسم المريض للشفاء، بمساعدة مرور الوقت، والدواء يحفّز قدرة الجسم اللامتناهية للتخلص من المرض، إذ لا يمكن لشخص أن يشفي شخصاً آخر إذا لم يكن عند الآخر الرغبة في الشفاء . وبدأت مع مرور الوقت أعود

إلى حياتي الطبيعية السابقة . تناسيت حادثة الدراجة برمَّتها، ولم يعد هناك ما يربطني بها سوى بعض الهلوسات التي أشاهدها في المنام من فترة لأُخرى .

بعد انتهاء العملية الجراحية، نقلوني إلى غرفة الإنعاش، لأتعافى من التخدير . لما أخذت أصحو شاهدت اختصاصيَّ التخدير بجانبي . فسألته بتردّد: "هل تتذكر ما قلته في أثناء العملية تحت تأثير البنج"؟ فأدار وجهه نحوي مبتسماً: "السوالف التي نسمعها في غرفة العمليات لا تحصى ولا تنتهي" . فعدت من جديد مكرراً سؤالي، فقاطعني: "في أثناء الجراحة، يركز كل واحد منا على عمله، لأن الغلطة بكفرة، ولا يعني ما يقوله المريض شيئاً، تحت تأثير البنج" . تابع حديثه: "على ما أذكر، منذ حوالي شهرين كان هناك مريض شاب في حوالي الثلاثين من عمره، وكنا نجري له عملية قلب مفتوح، لقد اعترف تحت تأثير البنج، بأنه هو القناص الذي اغتال جون كندي رئيس أميركا في مدينة دالاس قبل خمسين عاماً" . فتحت فمي من الدهشة، وسألته: "هل معقول أنه قام بذلك"؟ فسكت قليلاً ثم أجابني: "ربما هذا الرجل أتى من العالم الموازي لعالمنا، لأنه بعد أقل من أربع وعشرين ساعة، اختفى الرجل مع الأوراق الثبوتية كافة، والمتعلقة بدخوله إلى المستشفى .

❖ ❖ ❖

الأيام الصعبة

مشكلتي أنني أعيش عالقاً في حالةٍ متناقضة، بين عالمين مختلفين، متوازيين بالوقت نفسه . عندما كان الأستاذ يشرح الدرس على السبورة، كنت أتخيّل نفسي أستمتع بالتسكّع في إحدى الحدائق . هذه الأحلام التي لا تنتهي، أدّت إلى رسوبي سنتين متتاليتين، في امتحان الشهادة الثانوية، وطردي من المدرسة، فأصبحت أجلس طوال الوقت في البيت، عالةً على أسرتي المتوسطة الحال .

كنت معجباً ببنت جيراننا، وكنت كلّما صادفتها على البلكونة المواجهة، أقوم ببعض الإشارات، لكي ألفت انتباهها، فما يكون منها في كلّ مرة، إلا تجاهلي، وكأنني غير موجود أمامها .. فأردُّ ذلك إلى أن الفتيات يتظاهرن دائماً عكس مشاعرهن . تعلمت ذلك من فيلم «جيمس بوند» الذي شاهدته ثلاث مرات، وفي كلّ مشاهدة كنت أتخيل نفسي، وأنا أقوم بتمثيل هذا الدور، وحولي عددٌ كبيرٌ من الجميلات ..

رغبتي بأن أصبح ممثّلاً، سيطرت على تفكيري، لكنني ولسوءِ حظّي، شعرتُ بأنني لن أتمكن أبداً، من إيجاد مُخرجٍ يقدّر موهبتي .

أبي يدفعني باستمرار للبحث عن عمل، لكنّ أمي تقف دائماً إلى جانبي، فأنا ابنها الوحيد بين ابنتين، ولولاها لتركت البيت منذ زمنٍ طويل، وهاجرت .. تقدّمت للحصولِ على وظيفة فرّاشٍ في وزارة السياحة، لكنّي رسبت في فحص المقابلة، وبالنهاية تمكّن والدي من تعييني مساعد ممرّض، في وزارة الصحّة .

في أثناء المقابلة، لاحظ الطبيب بأنني شخصٌ ذو معرفة واسعة، فسألني عمّا إذا كنت أتناول حبوباً مهدّئة للأعصاب، أو أتعاطى شيئاً؟ . جنّ جنوني من هذا السؤال، وغادرتُ مباشرةً قبل انتهاء المقابلة، ليتّصل الطبيب بعدها بوالدي، ويقترح عليه عرضي على طبيبٍ نفساني .

فكّرت بكتابةِ روايةٍ عن الأحداث التي جرت على مدى السنوات العشر الأخيرة في سوريةٍ، ويكون عنوانها «الأيام الصعبة» . توقّعت بأنها ستكون بمستوى رواية «الحرب والسلام» للكاتب الروسي «تولستوي» . صحيح أنني لم أقرأها، لكنني شاهدت الفيلم مرّتين، وتأثّرت به كثيراً .

بعد فترةٍ تقدّمت للحصولِ على وظيفة حارسِ غابات في وزارة الزراعة، وتصوّرت بأنها الوظيفة الملائمة لي، ذلك أن سفري إلى الشمال السوري، وطبيعة وظيفتي التي تحتّم عليّ المشي في الغابات تحت ظلال الأشجار، سيمكّنانني من البدءِ بروايتي، لكن العائق الوحيد أمامي، هو إيجاد الشخص الذي بإمكانه مساعدتي للحصول على هذه الوظيفة .

أخيراً ابتسم لي الحظّ، وتوسّط لي ابن خالتي للعمل عند صديقه، الذي يملك مكتبةً صغيرة لبيع الكتب . . وعلى الرغم من أن الراتب كان قليلاً جداً، إلا أنني كنتُ سعيداً بالحصول على هذا العمل، فقد شعرت بأنه سيجعلني أثق بنفسي، ويتيح لي فرصة الكتابة في أثناء الدوام .

في الصباح، خرجت متوجّهاً إلى عملي، الشوارع شبه فارغة، وأنا شاردٌ أحلمُ بأشياءٍ كثيرة، ومنها أنني سأصبح كاتباً مشهوراً، بعد الانتهاء من كتابة «الأيام الصعبة» . .

أيقظني من شرودي، صوت زمور سيارة خلفي . . لم ألتفت له، وقلت لنفسي: إنه سائقٌ متهوّر يريدني أن أبتعد عن طريقه . . فجأة انطلق صوت عالٍ، نتيجة احتكاك الإطارات بالإسفلت، وبسبب الضغط الزائد على دعسةِ الفرامل بغية إيقافها فوراً . .

نظرت أمامي، فشاهدت سيارة قد تسمّرت في مكانها، على بعد نصف مترٍ مني، وبسرعة البرق نزل منها شخصان مسلّحان، ملتحيان، متأهّبان .

اقتربا منّي، فلم أعد أفكّر أو أحلم بأيّ شيء، فقد أيقنت بأنني أعيشُ في اليقظة .. شلّت الصدمة إحساسي، ومنعني الخوف من النطق بأي كلمة .. وحده السواد الذي بدأ يحيط بي، بسبب العصابة السوداء التي وضعاها على عينيّ، جعلني أشعر بأنني سأكون إحدى الضحايا، الذين لن يتاح لهم أن يُدفنوا، في «الأيام الصعبة» .

❖ ❖ ❖

المحقق

عدت إلى مكتبي بالمخفر متعباً، وكانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلاً، وأنا أشعر بالتعب والقرف من هذا اليوم الطويل الممتلئ بالمشاكل، لقد اصطدمنا مع المتظاهرين الذين حاولوا احتلال مجلس النواب، واستخدمنا ضدهم بناءً على تعليمات القيادة الغاز المسيّل للدموع والرصاص المطاطي، ما أدى إلى وقوع عدد كبير من الجرحى بينهم . وبينما أنا أهيّئ نفسي للعودة إلى بيتي، دخل العريف أنور إلى مكتبي متحدثاً: "سيدي الملازم، لقد طلب مني النقيب أن أخبرك بأنه قبل مغادرتك المكتب، عليك ان تحقق مع أحد المتظاهرين المحتجزين بالمخفر" . وأعطاني ورقة مكتوبة بعجلة بخط اليد، تشير إلى أن المتهم أقدم على لطم شرطي على وجهه .

طلبت من العريف أن يجلب المتهم، وأن يجلسه على الكرسي المقابل لمكتبي .

ثم سألته: "لماذا ضربت الشرطي على وجهه"؟

فأجابني: "لأنه شتم أمي، وقال عنها بأنها مومس"، فتابعت استجوابي: "كيف عرف الشرطي أن أمك عاهرة"؟

فأجابني بتحدٍّ: "لأنها تعمل مع أمه في بيت الدعارة نفسه" .

لما سمعت هذا الجواب، لم أتمالك أعصابي، وتأكدت من أن هذا الشخص يتحدى الحكومة التي أنا أمثلها، ويهين جميع أفراد الشرطة الذين أنا واحد منهم، فقمت من وراء مكتبي، وتقدمت باتجاهه، ولكمته بكل ما أوتيت من قوة على وجهه، فما كان منه إلا أن انقلب هو والكرسي الجالس عليه، وشاهدت الدم ينفر من أنفه، فأدركت متأخراً بأنني قد كسرت عظمة أنفه، وبدأت أفكر بالأعذار التي يجب أن أكتبها في التقرير لتبرير استخدامي لهذه اللكمة، فناديت العريف أنور، وطلبت منه أن يحضر من الصيدلية الميدانية الموجودة بالمخفر

الشاش والمواد المعقمة، ليتمكن من إيقاف النزيف بأسرع ما يمكن، لقد أوقعت نفسي في مشكلة لا أدري كيف سأخرج منها .

بعد أن قدّم العريف الإسعافات الأولية، تمكن بالنهاية من إيقاف النزيف، فحان دوري الآن لكي ألطّف الجو . فقلت للمتهم: "عليك أن تعتذر من الشرطي الذي لطمته، وأنا بدوري سأضغط عليه لكي يقبل اعتذارك ونغلق الموضوع" .

أجابني بنشافة: "إنه لن يعتذر منه، لأن الحق على الشرطي" .

محاولةً مني لحل المشكلة بأي ثمن، اقترحت عليه أن يتصافح مع الشرطي، وأنا بدوري سأفعل اللازم، لكي يقبل الشرطي ذلك، فأجابني غاضباً بأنه لن يصافحه .

أدركت أن الموضوع بدأ يفلت من يدي، فطلبت له كأساً من الشاي، وبدأت أحدثه بلطف، وأنصحه كصديق، بأن نغلق الموضوع، لكنه إذا بقي مصراً على رأيه، فسأحول الإضبارة إلى المحكمة العسكرية، وحينها ربما سيرسلونه إلى السجن لمدة ستة أشهر أو أكثر . لكنه أجابني: "بأنّ كرامته تمنعه من أن يصافح رجلاً قال عن أمه بأنها مومس" .

لأول مرة أدركت معنى كلمة الكرامة، وشعرت بالتعاطف مع هؤلاء المتظاهرين، وكيف أن الحكومة تستغلنا لاستخدام القوة المفرطة ضدهم للحفاظ على سيطرتها عليهم وعلى مقدرات البلد . بعد أن انتهى من شرب كأس الشاي، سألته: أين تسكن؟ "فأجابني في شارع الجديدة على مفرق المطار" . فالتفتُ إليه: "بيتك عَلى طريقي، وسأوصلك إليه بسيارة الجيب" . فهزّ رأسه موافقاً .

عند المغادرة، أخذت ورقة الضبط، وأخفيتها في سترتي، لقد قررت أن أغلق الموضوع على مسؤوليتي، وعند وصولنا إلى مفرق المطار، أخرجت من جيبي مئة دولار، وحاولت أن أدسها في يده، تعويضاً عن الأذى الذي ألحقته به، لكنه رفضها، ودفع يدي بلطف وهو يبتسم: "شكراً . . ممنون عطفك" .

ونزل من السيارة، وشاهدته وهو يختفي في ظلام الليل .

مهمّةٌ غير مقبولة

لا أذكر تماماً تاريخ بداية القصة، لقد حضرت جلستين لتحضير الأرواح في منزل صديقي أيمن، والسبب الوحيد الذي دعاني لحضورهما، وجود أخته الصغيرة لميس ذات السبعة عشر عاماً معنا في الجلستين . في هذا العمر، تركّز الفتاة على شكلها وحركاتها لكي تلفت الانتباه إليها، وهذا هو السرّ الذي يجعل الرجال يعشقون خمر الأنوثة غير الناضجة، في البنات المراهقات .

في الجلسة الثالثة كنت قاعداً كالعادة مع أيمن وأخته وقطّها الأسود، ننصت لصوت الريح وهي تهبُ مزمجرةً في الخارج، والأنوار مُطفأة، ماعدا شمعة صغيرة موضوعة على الطاولة، لتبدّد العتمة، ولتجذب الأرواح بضوئها وحرارتها . كان على سطح الطاولة ورقة رسمت عليها دائرة، قُسّمت بخطوط حمراء بشكل محزَّز تلتقي في مركزها، وفي كل حزٍّ حرف من حروف اللغة العربية . فوق المركز يوجد فنجان قهوة مقلوب . في بدء الجلسة، يضع كل واحد منا سبابته على ظهر الفنجان، ثم يبدأ أيمن بالتمتمة وقراءة بعض التعاويذ، وبعدها يسأل الروح المطلوبة أن تحضر لرفقتنا، وكنا جميعاً ندرك، بأن الهدف من الجلسة التسلية وقتل الوقت والاستمتاع بأجواء ما وراء الطبيعة .

في تلك الليلة الباردة المشؤومة، سألتني لميس وفي صوتها غنجٌ ودلالٌ: "الآن صار دورك، سمِّ أنتَ الشخص" . منحني صوتها الدافئ بدلعته بعض الجرأة، وخطر لي فجأة اسم الطفل الصغير في حارتنا الذي دهسته سيارة عندما كان يلعب الطابة بمنتصف الطريق، في وقتها لاذ السائق بالفرار، وقُيِّدت القضية ضد مجهول .

وضع كل واحد منا سبابته اليسرى على الفنجان، ودفعت أصبعي لكي تلتصق بأصبعها، فأحسست بأنها لم تمانع في ذلك .

ولاحظت ابتسامة خفيفة قد ارتسمت على شفتيها، فشعرت بنشوة في جسدي . نتيجة لهذا الكبت الجنسي الذي يعشّش في أعماقي، وتذوقت لذةً ما عرفتها من قبل . وسرى في جسمي تيارٌ باردٌ . بدأ الفنجان يتحرك بسرعة غريبة، تختلف عن كل المرات السابقة . فأيقنا جميعاً لأول مرة، بأن هناك قوةً خفيةً حقيقيةً تحرك الفنجان . توقفتْ أذن الفنجان عند الحرف قاف لبضع ثوانٍ، ثم تابع الفنجان اهتزازه لتتوقف الأذن عند الحرف تاء، ولتنتهي بالحرف لام، وعندما ربطنا هذه الأحرف بعضها ببعض ظهرت كلمة قتل . لاحظت أنّ القطَّ الأسود، كان يحدق في نقطة ثابتة، قبل أن يقفز فجأة، ويخرج راكضاً من الغرفة، أحياناً لا يمكن شرح الأشياء الخارقة للطبيعة، ومن المعروف أنَّ القطط لديها قدرات مدهشة، وتستطيع أن ترى الأشباح .

هذه النشوة الجنسية التي استمتعت بها لعدة لحظات، أدت إلى تفريغ شحنة الكهرباء الساكنة الموجودة في جسمي تلقائياً إلى فنجان القهوة، فانخفض مستوى الطاقة في جسمي، فأصبحت ضعيفاً، ما سهَّل انجذاب تلك القوة الخفية ودخولها إلى بدني . لقد أدركت ارتكابي لهذا الخطأ متأخراً بعد فوات الأوان . أحسست بتشنج في يدي اليسرى، إنها القوة نفسها التي كانت تسيِّر أصبعي لتحريك الفنجان، لكن الغرابة أنني أصبحت من دهشتي عاجزاً عن طرح سؤال لهذه الروح التي استحضرتها . في بعض الأحيان تؤدي مفارقة الشخص الحياة في ظروف تتسم بالعنف، إلى أن يخلّف رواسب روحية في عالم الأحياء، لا يمكن تبديدها بالكامل إلا مع مرور الوقت، إن أمارات الخوف والاضطراب كانت واضحة على وجهي، فقام أيمن بإنهاء الجلسة فوراً .

عندما أويت إلى فراشي في تلك الليلة، كنت أشعر بضيق شديد وتنميل في يدي اليسرى . في أثناء نومي، تخيلت أنني مستيقظٌ، وأرى شبح جارنا الطفل الصغير جاثماً على صدري، ويده الصغيرة تحرك

أنفي، بينما تتساقط قطرات الدم من فمه المفتوح على وجهي، من رعبي حاولت الصراخ فلم أستطع، حاولت أن أحرِّك يدي لأمسح الدماء التي تغطي وجهي، لكن يدي لم تتحرك، خطر لي في لحظتها أن أقوم من فراشي، وأهرب إلى غرفة أمي، لكنني كنت مشلولاً وعاجزاً عن الحركة، ما جعلني عالقاً في عالمين متوازيين بالوقت نفسه . على الرغم من أن هذه النوبة لم تستمر إلا لبضع دقائق، لكنها كانت تجربة رهيبة، لدرجة صرت أخاف من تكرارها .

في الليلة التالية، من شدة هلعي لم أستطع النوم . وجلست طوال الليل أراقب التلفزيون، وأتابع الأخبار على شاشة هاتفي الجوال، وبعد فترة لا أعرف مداها غفوت بالنوم، حتى أيقظتني والدتي من أجل الذهاب إلى الجامعة، وتكررت خشيتي من النوم في الليالي المتعاقبة، ما أدى إلى عدم حصولي على قسط كافٍ من النوم، فبدأت أشعر بالتعب الدائم وقلة التركيز وفقدان الحافز للذهاب إلى الجامعة، لقد لاحظتْ أمي هذه الأعراض التي تنتابني، فأرجعتها إلى أنني مصابٌ بالعين .

تشجعت بعد عدة أيام، وقررت الذهاب للنوم في سريري بشكل طبيعي، في منتصف الليل استيقظت لأشاهد جمجمة الطفل الصغير المهشّمة فوق رأسي، وقد خرج منها دماغه، وأخذ يسيل منها على وجهي سائلٌ لزجٌ أسودُ له رائحة نتنة، فصرخت من شدة خوفي، إلا أنَّ يدَ الطفل الصغيرة أغلقت فمي، ثم همس في أذني: "سأكلفك بمهمة، أريدك أن تنتقم من الشاب الذي دهسني بسيارته، وسوف أقتلك إن أخبرت أحداً بهذا الموضوع" .

بدأتُ أتجنّب الذهاب إلى الفراش، لخوفي من مشاهدة شبح الطفل الصغير في أثناء نومي، إن قلة النوم تحولت إلى مشكلة . وأخذت أعاني بعض الاضطرابات النفسية التي لا يمكن تفسيرها، وتجتاحني وساوس وأفكار مخيفة عن الموت . خلال النهار كنت أعيش نوبات متقطعة من

القلق الشديد، فتتحول غالباً، إلى أعراض جسدية حادة، بحيث أعتقد بلحظتها أنني مصاب بنوبة قلبية أو بنزيف في الدماغ .

بعد مرور أسبوعين عن جلسة تحضير الأرواح، لم أعد الشخص الذي كنت أعرفه من قبل، أصبحت أعيش القلق والحزن المتواصل، لم يعد لديّ القدرة للاستمرار في الحياة، وفقدت الأمل بأن تتحسّن أحوالي . خطر على بالي أن أنتحر لكي أضع حداً لمشاكلي التي لن تنتهي .

في تلك الأثناء، تعرض صديقي أيمن لحادث مروري مروّع، نتيجة اصطدام مركبته بسيارة أخرى، كان يقودها شاب مراهق في الاتجاه المعاكس، عندما سمعت الخبر أصبت بالدهشة، ولم أصدقه في بادئ الأمر . بعد أن تأكدت منه، وبطريقة لا شعورية اتصلت بالهاتف بلميس وعزّيتها بوفاة أخيها، وسألتها فيما إذا كان يمكنني الحضور إلى منزلها لتعزية والدتها، فرحبت بي .

في اليوم التالي بعد الظهر ذهبت لتعزيتهم، لقد قابلتني أم أيمن بجفاء ظاهر، حتى إنها لم تجلس معنا بالغرفة لأكثر من خمس دقائق، فشعرت بأنني ضيف غير مرحّب به، فغادرت منزلهم فوراً، بعد انتهائي من شرب فنجان القهوة . وأنا أشعر بكره وحقد كبيرين على أم أيمن، لكنّ عواطفي نحو لميس ازدادت تأججاً بعد الزيارة، فتأكدت بأنني لم أعد أستطيع التحكم بأفكاري نحوها .

بعد حوالي أسبوع أصابت أم أيمن جلطة دماغية، نتيجة لحزنها الشديد على ابنها الوحيد أيمن، وماتت غير مأسوف عليها، بعد نقلها إلى المستشفى بيومين، بدأت الوساوس تسيطر عليَّ من جديد، لا شك أن لميس تشعر الآن بالوحدة، فقد تكون فرصتي الوحيدة والأخيرة للتقرّب منها والحصول عليها . تصوّرت بأنها تبادلني المشاعر نفسها . اتصلت معها بالهاتف، وأخبرتها بأني أرغب في الحضور إلى منزلها لرؤيتها ولتعزيتها، من دون أي مقدمات وبنشافة أجابتني: "بأنها لا تستقبل رجالاً غرباء في منزلها"، وأغلقت السماعة في وجهي، أحسست

بلحظتها بالخجل من نفسي، لأني بدوت صغيراً في عينيها، وأنني صفرٌ بالنسبة إليها، تحول إعجابي بها في تلك الثواني إلى كرهٍ مقيتٍ مدمِّرٍ .

اكتشفت عن طريق المصادفة أنني بدأت أستطيع تحريك الشوك والمعالق الموجودة على طاولة الطعام، من خلال نظرتي إليها . فمن المعروف علمياً، بأن الذبذبات الكهربائية التي تنطلق من دماغ الإنسان هي عبارة عن مجرد موجات مادية تتنقل في الهواء كما تفعل أمواج البحر في الماء، الإنسان بحاجة إلى التركيز بشدة على فكرة معيّنة، لتزداد قوة هذه الأمواج، وحينها يمكنه السيطرة على عقل الشخص الجالس أمامه، ليقنعه بأن يتصور في دماغه أشياء مادية محسوسة غير موجودة بالواقع، خطر لي أن أستغل هذه القوى الخفية التي وجدتها في نفسي للاستحواذ على لميس .

بعد عدة أيام مرضت لميس وأدخلوها المستشفى، وهي تعاني من نزيف داخلي في معدتها، لما سمعت الخبر، انتابني الشعور بالذنب والقرف، كما لو أنني كنت أنا المسؤول عن مرضها . اشتعلت النار في عقلي، ولم أعد أستطيع تمالك أعصابي . أحسست بصعوبة في التنفس، وأصبت بالإغماء المفاجئ لعدة دقائق، إنها علامات الانهيار العصبي، الذي بدأ يلوح في الأفق بانتظاري .

لا شيء يشفي مثل الزمن، ورغبة المريض ذاتياً في الشفاء . مضت عدة أسابيع، وجدت بعدها نفسي مع الله، استعدت توازني، شعرت بأني قد ولدت من جديد، لقد أدركت بأن السعادة ليست في الحصول على لميس، ولا مجرد لحظات وفرح وبهجة مؤقتة، إنها شعورٌ دائمٌ بالرضا النابع من ثقتك بخالقك، الذي يؤمن لك سكينة القلب الدائمة في هذا العالم المادي والنعيم الأبدي في الآخرة، قررت أن أتجنّب رؤية لميس، وأن أبتعد عن فكرة الاتصال بعالم القوى الخفية، وداعاً لجلسات تحضير الأرواح .

❖ ❖ ❖

يأتي في منتصف الليل

الرياح العاتية تعصف بأغصان أشجار الزيتون، وتجرّدها من أوراقها النابعة بالحياة، بينما ضوء القمر الشاحب المغلف بالغيوم، يتسلل بخجل من النافذة الصغيرة الموجودة بغرفتنا، فأمسيت قادراً بصعوبة على رؤية وجه صاحبي أبو مسعود المتجمد مثل وجوه الموتى . ونحن جالسون ندردش ونشرب المتة في بيته، وكلبي السلوقي الأغبر ممددٌ على أرضية زاوية الغرفة، لقد قالت مذيعة نشرة الأخبار في الصباح: إنه من المتوقع أن تكون ليلة ممطرة مع رياح شديدة، لكن حتى الآن لم نسمع سوى صوت الرياح الكئيبة .

لقد تفاقم الوضع الاقتصادي بسب موجة الجفاف التي عشناها في السنتين الأخيرتين، لذا فنحن الآن جالسون في الظلام، فزيتُ الكاز وأصابع الشمع أصبح سعرها غالياً في السوق السوداء . قطع حديثنا صوت ثلاث نقرات خفيفة متتابعة على السقف، ولا شك أن الكلب أحسَّ بها، فبدأ بالنباح، كما لو كانت حياته في خطر، وشاهدنا ظلاً لرجل أسود طويل يمر بسرعة أمام نافذتنا، وتصورنا بعدها، بأن أحدهم يحاول أن يفتح قفل باب الدار، فركض أبو مسعود وأخرج من الخزانة الخشبية المتهالكة بندقية صيد بدت لي أنها صدِئة، لا تصلح للاستعمال، لكنه طمأنني بأنها على الرغم من قدمها، فهي من نوع "سجوجرين" السويدية نصف الأوتوماتيكية، وفيها خراطيش عيار واحد، قادرة على أن تفتح ثقباً كبيراً في بطن البني آدم، بقطر عشرة سنتمترات، وتقتله فوراً، ولقد شاهد ذلك بأمّ عينيه .

من شدة خوفي، في البداية شعرت بالارتياح لوصفه لفاعلية البندقية السويدية . وبعد أن تلاشت الأصوات، توقف الكلب عن النباح، وحلَّ السكون من جديد، شعرت برعب حقيقي من منظر البندقية، وعدنا مرة ثانية للدردشة وشرب المتة، وتطرقنا إلى

الحديث عن الموت، فذكرت له، بأن أمي المرحومة في آخر أيامها كانت تخاف من الليل، لأنها ترى أشباح صور أهلها الأموات على حيطان بيتنا . لكن عندما تشرق الشمس، تغمرها السعادة، وكأن روحها رُدت إليها، كانت تخاف من أن تموت بالليل . وبدأت أستعرض أسماء الأشخاص الذين أعرفهم، والذين ماتوا خلال الليل، إنها سلسلة طويلة لا تنتهي، وجاء دور أبو مسعود، فذكر بأن أباه وأمه ماتا أيضاً خلال الليل، حتى إنه وصل بالنهاية إلى قناعة، بأن جميع الأشخاص الذين يعرفهم ماتوا في أثناء منتصف الليل .

عندما وصلنا إلى هذا الاستنتاج، قام أبو مسعود، وأشعل مصباح زيت الكاز، ووضعه على الطاولة، فشعرت بنوع من الارتياح، ثم نظر فجأة إليَّ بعينين مملوءتين بالهلع، وبادرني بسؤاله: أتعرف عمي أبو محمود؟ الذي رفض أن يزوجني ابنته سميّة، التي هي حسب الأصول، من حقي ونصيبي، وفضّل عليَّ ابن مختار ضيعة كفر الزيات، فتذكرت في لحظتها قصة عمه وابنه البكر، اللذين هربا إلى تركيا منذ عدة أشهر، بسبب الأحداث في سورية، فهززت رأسي بالإيجاب، "الله يرجعهما بالسلامة" . فالتفت نحوي، "أيُّ سلامة، لقد ذهبا لعند الله، ولن يعودا"، ازداد خوفي من منظر الخطوط الحمراء التي برزت في بياض عينيه، بعد أن أدرك خطورة زلة لسانه، لقد ندم على سرد هذه القصة، لكن بعد فوات الأوان . فقاطعته متظاهراً بالبراءة: "يجب أن أعود الآن إلى بيتي، فزوجتي بانتظاري، لأنني أخبرتها بأنني لن أتأخر بالسهرة في بيتك" .

غادرت منزله بسرعة وعلى عجل، فأحسست بالرياح الشمالية الغربية، تلفح وجهي مزمجرةً غاضبةً مني . وتدفعني رغماً عني نحو شجرة زيتون كبيرة قريبة من المنزل، فقررت الاحتماء بهذه الشجرة حتى تخفَّ شدة الرياح، لأتابع بعدها طريقي لبيتي، وفي أثناء جلوسي على الأرض، سمعت وقع أقدام خلفي تقترب مني، فتوقف

قلبي عن الخفقان، ثم بدأت تتسارع باتجاه البيت، فالتفت إلى يساري، فشاهدت شبح شخصين يمران من أمامي، لكنني لم أستطع تمييز ملامحهما من شدة العتمة .

لما وصلت إلى منزلي، كنت في حالة إعياء شديدة، اندهشت زوجتي من منظري، فعلامات الفزع باديةٌ على وجهي . وأكثر ما أثار رعبها وجود بعض البقع الترابية الملتصقة بوجهي ويدي وملابسي . لقد تصورت المسكينة بأنني على أبواب جلطة قلبية، فتجنَّبتُ الحديث معها عن القصة الغامضة التي حدثت معي، وذهبت فوراً إلى الحمام، واغتسلت بالماء البارد القارس، لعدم توافر الماء الساخن، وغسلت ملابسي التي كنت أرتديها بنفسي، وأويت بعدها إلى فراشي، محاولاً أن أنسى ما شاهدته في هذه الليلة .

بعد العصر استيقظت على صوت زوجتي وهي تهزُّني بلطف، وإشارات الهلع مرسومة على وجهها: "انهضْ .. رئيس المخفر على الباب، يريد رؤيتك" . لم أستوعب كلماتها، لأنني كنت أغطُّ في نوم عميق في عالم آخر، لما وصلت إلى الباب، شاهدت رئيس المخفر، وبعد أن تبادلنا السلام، سألني مباشرةً: "متى آخر مرة اجتمعت بصديقك أبو مسعود"؟ من صدمة السؤال، لم أتجرأ بالكذب عليه، فقلت البارحة بالليل . فأجابني: المسكين وجده جاره أبو غسان اليوم مقتولاً، وعندما كشفت على البيت كان المنظر فظيعاً، فالدماء الغزيرة تناثرت على الجدران، وكأنَّ وحشاً أو آلة حادة قد فصلت رقبته عن جسده . وكان هناك على أرضية الغرفة غطاء خرطوشتين فارغتين، ما يفيد بأن المرحوم قد أطلق النار مرتين من بارودة الصيد الملقاة إلى جانبه، قبل أن يفارق الحياة . هناك آثار دماء كثيرة مختلطة بالغرفة، لاشك أنه أصاب الذين اعتدوا عليه بجروح بليغة، ولكنني لم أجد بجانب جثته، أيّ بقايا لبني آدم أو حيوان، لقد

طالبت فوراً بحضور الطبيب الشرعي من دمشق، للتحقيق في آثار وطبيعة هذه الدماء، ولا أخفي عليك، إنني على الرغم من خبرتي الطويلة بمناظر الدم، فلقد بدا لون بعض بقع الدم الصغيرة المتناثرة على الجدران غريباً، فلونها يميل إلى السواد .

ثم أنهى حديثه: "من الأفضل أن تُبقي باب البيت مقفولاً بالمفتاح طوال الوقت، وأن تخبر زوجتك وابنك ألا يغادرا البيت إلا في الحالات الضرورية، حتى يحضر الطبيب الشرعي، ونحلّ لغز هذه الجريمة، فهززت رأسي بالموافقة، وأنا أتحدث مع نفسي، الموضوع قد انتهى . الله يرحمك يا أبو محمود .

القرين

هذه قصة حقيقية بكامل تفاصيلها، حدثت مع جارنا الموظف الصغير في المديرية العامة للشؤون العقارية، والساكن في قبو البناء الذي أعيش فيه .

مضى عليه يومان، لم يستطع خلالهما النوم ولو لدقيقة واحدة، اتصل بمديره، وطلب إجازة إدارية لمدة أسبوع . جلس وحيداً يشعر بالقلق والإرهاق، إنه يرزح تحت ضغوطات مالية كبيرة، فأجرة البيت ستستحق بعد أسبوع، وعليه ديون كثيرة، يجب تسديدها في نهاية الشهر . لا شيء أسوأ من الوحدة في حالات الاضطرابات النفسية، عادت به الذكريات إلى أيام طفولته التعيسة، وانتحار والده عندما كان في العاشرة من عمره، دخل في مرحلة الاكتئاب، وتذكر أنه شخص فاشل في مدرسته منذ صغره، وأنه الآن وبعد أن أصبح شاباً، لم يحقق نجاحاً واحداً مهماً في كل حياته المهنية، فأصابه الإحباط، وراودته في لحظتها فكرة الانتحار .

دخل إلى الحمام ليأخذ دوشاً من الماء الساخن ليستعيد نشاطه، وبينما هو واقف يطيل النظر بالمرآة، ظهر له خيال لشخص صورة طبق الأصل عنه، فتوهّم أنها مجرد تخيلات ناجمة عن قلة النوم، ولعدم قدرته على التركيز، لكنه بعد أن دخل غرفة المعيشة، وجد هذا الشخص جالساً أمامه على الكنبة، ما أثار الذعر في نفسه، وتأكد في لحظتها، أن ما تراه عيناه هو الحقيقة، وليس مجرد هلوسة وأحلام يقظة .

قرّر أن يذهب لعيادة الطبيب المتعاقد مع المديرية، لأن الضمان الصحي يغطي تكلفة العلاج، لكنه فكّر ثانيةً، ماذا سيحدث عندما يخبر الطبيب، بأن هناك شبحاً يشبهه ويعيش معه في البيت نفسه، ربما يتهمه بالجنون، وسيصبح مسخرة الموظفين بالمديرية، ومن المحتمل أن يستغنوا عن خدماته .

هداه تفكيره للذهاب إلى الصيدلية القريبة من بيته، لما دخل، شاهد الصيدلاني وجهه الباهت وعينيه المنتفختين، وأخذ يُبيّن للصيدلاني بأنه لا يستطيع النوم من كثرة الضغوطات المالية المترتبة عليه، فشعر الصيدلاني بالشفقة عليه، وأعطاه علبة من الحبوب المهدئة للأعصاب، ورفض أن يتقاضى ثمنها، وطلب منه أن يأخذ منها حبة واحدة قبل النوم .

بالفعل لما عاد إلى بيته أخذ حبة واحدة، شعر بعدها بالاسترخاء والسعادة، ونام لفترة قصيرة . بعد أن استيقظ أخذ حبة ثانية للوصول إلى المفعول والمشاعر نفسها التي حصل عليها من الحبة الأولى . الأدوية المهدئة للأعصاب تخفف من أعراض الحالات العصبية، ولكنها لا تشفيها، واستمرّ يأخذ الحبة تلو الأخرى ليحصل على الهدوء والسكينة . بعدها اتصل بصديقه محمود، وشرح له ما يعانيه من اضطرابات نفسية تجعله على شفير الانهيار، فأخبره بأنه سيمرُّ عليه بعد انتهاء الدوام، ليصطحبه إلى شيخ روحاني قدير، ليعالجه من هذا الوسواس من دون مقابل .

عندما دخلا بيت الشيخ، حملق الشيخ طويلاً في وجهه الباهت، ولاحظ آثار التعب والإجهاد المرسومة عليه، فأجلسه أمامه على الأرض، وبدأ يقرأ وينفث في وجهه . بعد أن انتهى من القراءة، أخبره بأن جنياً دخل إلى جسده وتلبسه، نتيجة إصابته بالعين من بنت خالته التي تخطط للزواج منه . اندهش من هذه الخبرية، فبنت خالته الوحيدة هي سلمى، التي توفيت منذ أكثر من خمس سنوات، تذكّر إعجابه بها، ولطالما كانت دائماً بطلة أحلام اليقظة التي يمارسها، كما أنه سيحتاج إلى الشيخ لطرد الجني، وإلى أن يقوم الشيخ بشراء ذبيحة ليقرأ عليها بعض التعاويذ، ثم يوزعها على الفقراء، وهو لا يبغي لنفسه أي منفعة من وراء ذلك سوى مرضاة الله، لما سمع بضرورة شراء الذبيحة، غادر بيت الشيخ فوراً، فالموضوع خارج عن إمكانياته .

جاء اليوم الرابع وأحواله تزداد سوءاً، فخيال توءمه يظهر أمامه كلما وقف أمام المرآة، ما أثار في نفسه كثيراً من الضيق ومن المخاوف غير المنطقية . خمّن أنه ليتخلص مؤقتاً من هذه المعاناة، ومن جو الاكتئاب المخيم على البيت، فعليه أن يتصل ببائعة هوى اعتاد على مخالطتها، لتحضر إلى شقته . في بادئ الأمر رفضت القدوم إلى منزله، بسبب أنه في المرة الماضية لم يدفع لها أتعابها، لكنه أقسم لها إنه سيعوِّض عليها في هذه المرة .

حضرت المومس حسب الموعد إلى بيته، وأطلق لتخيلاته العنان في أثناء ممارسته الجنس، وتصوّر أن شريكته هي ابنة خالته سلمى، محاولة من عقله اللاواعي للتصدي لفكرة أنه شخص منبوذ، لا يمكنه أن يمارس الجنس إلا مع العاهرات . بعد أن انتهى من العملية، اصطدم الخيال المبالغ فيه مع الواقع، فشعر بالغثيان والرغبة في التقيُّؤ، فدخل عارياً بسرعة إلى الحمام، عندما مرّ أمام المرآة شاهد صورة قرينه، وقد ظهر بشكل وحش قبيح يميل لونه إلى السواد، فشعر بالقرف من نفسه، وخرج راكضاً إلى الخزانة الموجودة في غرفة الجلوس، وأخرج المسدس الذي كان أبوه قد انتحر به قبل عشرين عاماً، وعاد به إلى الحمام .

نظر من جديد إلى المرآة، فوجد صورة الوحش وهو يضحك ساخراً منه، أخذ المسدس وأطلق النار على رأس هذا المسخ، فوقع على أرضية الحمام مضرجاً بدمائه، سمعت صاحبته وهي مستلقية على الفراش صوت الطلقة النارية، تلاها صوت جلبة في الحمام، فدخلت وشاهدت زبونها على الأرض غارقاً في دمائه، والمسدس ملقى إلى جانبه .

قررت في بادئ الأمر أن تتصل بالشرطة، لكنها ترددت قليلاً، فهي تعرف بأن الشرطة سوف تحقق معها، وتسألها عن علاقتها بالقتيل، وستقع حتماً في مشاكل هي في غنى عنها . ارتدت ملابسها بسرعة،

وهمت بمغادرة الشقة . وبينما هي في طريقها للخروج، تذكرت أجرة أتعابها وأتعاب الجلسة السابقة، فشعرت بأنه ظلمها واستغلها . أخرجت محفظة نقوده من بنطاله، فوجدت فيه ورقة واحدة بعشرة دولارات، فدستها في حقيبتها، جنَّ جنونها، لأنها تأكدت بأنه كان مفلساً، وأنه كان يحاول أن يغدر بها للمرة الثانية . نظرت حولها في البيت لعلها تجد شيئاً صغير الحجم وثميناً بالوقت نفسه، لتصادره وتأخذه معها، تعويضاً عن حقها المهدور، فلم تجد شيئاً .

خطر على بالها، أن تأخذ المسدس الموجود على أرضية الحمام، لتبيعه إلى أحد زبائنها، دخلت الحمام، ورفعت المسدس من على الأرضية، ومسحت آثار الدماء الموجودة عليه بفوطة معلقة على الحائط، ثم وضعت المسدس في حقيبتها، واتجهت نحو الباب .

عندما فتحت الباب، فوجئت بعدد من الجيران المتجمعين أمامه، نتيجة لسماعهم صوت الطلقة النارية محاولين أن يعرفوا ماذا حدث في بيت جارهم . أغلقت الباب خلفها بهدوء، وشقت طريقها بسرعة بين الشباب، صاعدة الدرج وقلبها يخفق بجنون من شدة خوفها، عندما وصلت الدرجة الخامسة، وجدت شاباً منتصباً أمامها : "مدام عليك انتظار وصول شرطة النجدة، لقد طلبناهم بالتلفون، وهم الآن في طريقهم إلى هنا، ربما سيحتاجون إلى أخذ إفادتك .

❖ ❖ ❖

امرأة مسحورة

اليوم السبت التاسع عشر من فبراير، وهو عيد ميلاد سهير، لقد اعتادت أن تحتفل مع صديقاتها في كل عام بعيد ميلادها . إلا أنها اليوم ولأول مرة، شعرت بالتعاسة والشقاء . جلست وحيدةً تفكر بحالها، لقد بلغت التاسعة والثلاثين عاماً ولم تتزوج حتى الآن، بينما جميع صديقاتها عندهن ربع درزينة من الأولاد .

صحيح أنها موظفة في الحكومة، وتعيش وحدها في البيت الذي ورثته عن أمها ومستقلة مادياً، إلا أنها أدركت في تلك اللحظة بأن الوقت يداهمها، ولربما بعد أربع سنوات ستصبح عاقراً، غير قادرة على الإنجاب . في هذه اللحظات من اليأس، بحثت عن حلول غيبية غير منطقية لحل مشكلتها، فهداها تفكيرها إلى أن تفتح الإنترنت وتبحث عن شيخ روحاني يساعدها للحصول على عريس .

بدأت تتصفح الإنترنت، هالها هذا العدد الكبير من الإعلانات عن الأشخاص الروحانيين القادرين على إنقاذها . بالنهاية اختارت ويب سايت الشيخ عبد القادر، الذي أعلن فيه، بأنه على استعداد لتقديم أقوى الأعمال الروحانية المجربة والمضمونة، وبأنه قادر على جلب الحبيب، والكشف عن السحر وفكه، وتسهيل الزواج من أي شخص تتمناه، والدفع الكامل يأتي بعد إنهاء العمل وإتمام الزواج . ما أعطاها الثقة في كلامه، وشجعها على ذلك سهولة الاتصال به . حيث يقيم في بيروت الغربية، في منطقة باب إدريس، بالقرب من الحي الذي تعيش فيه .

اتصلت به عبر الهاتف، فضرب لها موعداً في مساء اليوم التالي . فكرت في بادئ الأمر أن تذهب إليه مع صديقتها سعاد، ثم غيّرت رأيها، لأنها لا تريد أن ينتشر الخبر بين معارفها، فيسخرون منها، فقررت أن تذهب بمفردها . عندما قابلته سألها عن وضعها، لكي

يتمكن من إيجاد العلاج المناسب لحالتها . فسردت له قصة حياتها باختصار . الغريب في الأمر، أنه لم يتطرق إلى أجرته التي سيحصل عليها بعد إيجاد العريس وإتمام عملية الزواج، كان الجو بارداً . فجلس متربعاً على الأرض قرب مدفأة المازوت وجلست مقابله، وضيّفها كأساً من الشاي الأخضر، ثم ألقى بكمية قليلة من البخور على سطح المدفأة الساخن، فانتشرت رائحة البخور في الغرفة الصغيرة . فالبخور عنصرٌ أساسيٌ في طقوس السحر . أخرج كتاباً قديماً وبدأ يقرأ فيه بعض التعويذات بلغة غير مفهومة، تصورت بأنها بالسريانية، مقدماً البخور قرباناً إلى الجني لكي يحضر لمساعدتها .

أعطاها البخور والشاي شعوراً بالراحة والاسترخاء وبنوع غريب من التخدير والرؤية الضبابية . أصبح الجو مهيّاً لحضور الجني ميمون الذي سيكلفه بإتمام عملية الزواج . وتحت تأثير هذا الجو الغامض، دخل دماغها في حالة مختلطة لا تمثل أياً من اليقظة والنوم، وشعرت بأن هناك قوى غير مرئية ثقيلة تتحرك فوقها، لتشعرها بحدوث تغيّرات في جسدها رغماً عنها .

قرب انتهاء الجلسة، أخبرها الشيخ، بأن هناك عملاً معمولاً لها من إحدى قريباتها التي أخذت أثراً منها، وهي عبارة عن قطعة قماش من أحد أثوابها . وذهبت بها إلى عرّاف يمارس السحر الأسود، وأعطته الكثير من المال، فقام بقراءة بعض التعاويذ الشيطانية عليها، لمنع أي عريس من الزواج منها، وأن الشباب الذين جاؤوا لخطبتها ذهبوا من دون عودة . فتذكرت بلحظتها فعلاً أسماء بعض هؤلاء الشباب . كما أخبرها أنه سيوقف معمول السحر الأسود، وسيذهب بذاته إلى المقبرة التي دفن فيها العراف قطعة القماش، لاستخراجها وإبطال السحر . طلب منها أن تحضر بعد ثلاثة أيام بهذا الوقت نفسه، لكي يقوم بفك طلسم السحر نهائياً، بعدها ستشاهد بأم عينيها تهافت الشبان عليها . شعرت بسعادة كبيرة من حديثه، فأخرجت عشرين ألف ليرة لتدفعها له

على الحساب، رفض أخذ المبلغ مدعياً بأنه يقوم بهذا العمل من دون مقابل، لمساعدة الناس المحتاجين .

عندما وصلت إلى منزلها شعرت بألم بسيط وإحساس غريب غير مألوف، ثم لاحظت وجود بعض قطرات الدم على ملابسها الداخلية، فاكتشفت بأن العالم الروحاني قد ضحك عليها ومارس الجنس معها، وأنها فقدت عذريّتها، فأصيبت بالصدمة والخوف وبحالة من الذهول، ولم تستوعب أبداً، لماذا غرّر بها، دخلت في حالة اكتئاب حاد، وفقدت حتى ثقتها بنفسها، وشعرت بالخوف من الجميع، لأنها بعد أن تعرضت للاغتصاب، أصبحت عرضة للانهيار، وأمست فريسةً لسلسلة من الأفكار السوداوية، التي دفعتها إلى التفكير بالانتحار .

بعد ثلاثة أيام وفي الموعد المحدد، جاءت إلى منزله، جلس على الأرض بجانبها حول مدفأة المازوت، فشعرت بالاشمئزاز منه ومن رائحته الكريهة، وبشّرها بأن الأمور كلها على ما يرام، وأنه استحضر الأثر المدفون من المقبرة بمساعدة الجني ميمون، فوجد عليه تعويذة ربطها العراف، عقد بموجبها قرانها على جنيٍّ صومالي قوي وخبيث اسمه حيبور، ولا توجد طريقة لفك هذه العقدة سوى أن تتزوجه شرعياً بالمحكمة، فيصبح حينئذ زواجها من الجني الصومالي باطلاً، وتتحرر من سيطرته نهائياً، وبعد زواجهما سينتقل ليعيش معها في شقتها، لأن هذا البيت الذي يعيش به وحده مستأجر وقديم، ولا يصلح لأن تعيش فيه امرأة بجمالها ووضعها الاجتماعي . سيقوم الآن باستحضار الجني ميمون، لكي تتشكره على مساعدته لها . أخرج بعض البخور وألقاه على سطح المدفأة الساخن، ففاحت رائحة البخور العطرة في أرجاء الغرفة الصغيرة .

صُدمت من كلامه، ما جعلها في حالة من الكرب والتوتر الشديد . لقد جرحتها هذه الكلمات، وشعرت بالعجز والخوف من هذا الرجل الذي فرض نفسه عليها . قدّم لها كأساً من الشاي الأخضر، والتفت إلى يساره ليجلب كتاب السحر ليقرأ بعض التعاويذ ولاستحضار الجني ميمون، فالتقطت من حقيبتها الموجودة إلى جانبها على الأرض مفك براغي صغيراً، لا يزيد طوله على عشرة سنتمترات، وغرزته بسرعة بجانب رقبته المحاذي لها، عندما سحبت المفك وألقته على الأرض، نفر دم أحمر سميك بغزارة من الجرح، بشكل لا يصدق، لأنها قطعت أحد الشرايين الرئيسية في رقبته، وبدأ الشيخ يتخبط على الأرض، وسمعت حشرجته وهو يحاول أن يكلمها، فشاهدت اللحظات الأخيرة من حياته .

في البداية لم تصدق أنها قد أقدمت على هذا العمل، حاولت أن تقنع نفسها بأنها تشاهد حلماً في أثناء نومها، لكن منظر الدماء وهي تسيل على أرض الغرفة أيقظها من أوهامها، فشعرت بكرب شديد، وفقدت قدرتها على التركيز، وانتابها إحساس بالخوف من أن تكتشف الشرطة فعلتها، لكنها بالنهاية أقنعت نفسها، بأنه من حقها أن تدافع عن نفسها تجاه هذا الوحش الذي اغتصبها، فاستعادت هدوءها وسيطرتها على نفسها .

أخذت طابة المدفأة المملوءة بالمازوت، ونثرت المازوت على جثة الدجال، وتابعت نشر ما بقي فيها على أرض الغرفة، ثم أخرجت ولاعة السجائر، ومحرمة قماشية من حقيبتها، وأشعلت المحرمة من طرفها، وألقتها على الجثة، فاعترتها نشوة غامضة، أشبعت غريزة الانتقام الجارفة، التي خلقتها هذه المعاناة . وبعد أن تأكدت بأن النيران بدأت تنتشر في أرجاء الغرفة، غادرت المنزل .

❖ ❖ ❖

حفلة في فندق الشيراتون

مضى عليّ أكثر من أسبوع وأنا طريح الفراش، أعاني من فيروس كورونا أوميكرون المعدّل، هدية مميزة مقدمة من عالمنا المتحضر، لقد خفّت فعلاً أعراض السعال، وانخفضت حرارتي في اليومين الأخيرين، وبدأت أفكر جدياً في حضور حفلة زفاف شريكي محمود، والذي سيقيمه في فندق الشيراتون في دمشق، غير آبه بتحذيرات أمي بأنني لم أشفَ نهائياً، وأن عليَّ عدم مغادرة البيت وفقاً لتعليمات الطبيب .

أقيمت الحفلة حول حوض المسبح في الفندق، كان الجو جميلاً دافئاً والسماء مرصعة بالنجوم، لم أكن مع الحاضرين على الرغم من جلوسي إلى جانبهم . لقد سرحت بخاطري وأنا أبحث عن فتاة جميلة بين المدعوين، لكي أتعرف عليها، وإذا أعجبتني، فيمكنني أن أرسل أمي إلى بيت أهلها لخطبتها . بينما أنا أتجول بعينيَّ بين الوجوه، لمحتها من بعيد، سمراء طويلة، واقفة بمفردها في أقصى زاوية السور الخشبي المحيط بالمسبح، بشعرها الكستنائي الغامق، ترتدي فستاناً أخضر فاتحاً قصيراً، كشف عن تناسق ساقيها، وأظهر تفاصيل منحنياتها، فلفت انتباهي جمال قوامها، وأحسست بانجذابي إليها .

بدأت أستجمع شجاعتي، وتقدمت منها وقلت : ' مرحباً '، وعرّفتها على نفسي بأنني مهندس مدني، وأن العريس هو شريكي في مكتبنا الهندسي للمقاولات العامة، لأضفي على نفسي بعض الأهمية، ولأقنعها بأحوالي المادية الجيدة وبمكانتي الاجتماعية . كان المهم أن ألفت نظرها إليَّ بأي شكل من الأشكال . تملكني في هذه اللحظة إحساس دافئ لذيذ بالراحة والخدر من وجودها بجانبي،

وكأني شربت كأسين من الويسكي، لقد وقعت في حبها من النظرة الأولى، وكل همي الآن إقناعها بأني أنا الفارس الذي تتوافر فيه جميع الصفات التي تريدها في زوجها .

ثبتُّ عينيَّ في عينيها الخضراوين، وابتسمت لها، ولكنها لم تبتسم، كانت ردة فعلها باردة، لكن بخبرتي الطويلة بلغة الجسد، أقنعت نفسي بأنها تبادلني الإعجاب، وهي مثل جميع الفتيات تتظاهر بعكس ما يدور بخاطرها، وتصرفاتها الدفاعية تدل على عكس مشاعرها .

وقفت حائراً كطفل صغير، نسيت جميع كلمات الإعجاب التي كنت قد حضرتها لها، لقد خانتني الكلمات، ربما يعود ذلك إلى أنني اصطدمت بمنظر شعرها الطويل الأسود الناعم المنسدل على كتفيها بإهمال متعمد، ووجهها الباهت الحزين الشاحب، وهذا الظل الأسود تحت عينيها الواسعتين، ما أعطاها طابعاً فريداً من الجمال .

قذفتني بنظراتها العميقة، التي بدت لي غير مفهومة، وكأنها تبحث عني بعينيها الخضراوين، وأنا موجود أمامها، وعرفتني على نفسها بأن اسمها رغداء سعيد، وهي صديقة للعروس منذ أن كانتا طالبتين في مدرسة الفرنسيسكان، فوجدت أن هذه نقطة جيدة مشتركة بيننا لبداية الدردشة، فأخذت أحدثها كيف أنني لما كنت طالباً في الثانوية، كنت وأصدقائي ننتظر بلهفة نهاية دوام مدرستهن، وخروج الطالبات من بوابة المدرسة لمراقبتهن، وكنّا أحياناً نمشي خلفهن في شارع أبو رمانة، ليقوم بعضنا بتلطيشهن ببعض الكلمات اللطيفة الحلوة، التي تعبّر عن إعجابنا .

تطرقنا بعدها إلى أحوال عملي، وتطلعاتي إلى المستقبل في هذه الظروف الصعبة، كانت تهزّ رأسها بالموافقة، وتبدي إعجابها بالآمال التي كنت أبنيها أمامها . حاولت أن أشدها لتتكلم عن نفسها، ولكنها كانت مترددة، فعللت ذلك لنفسي بأنها بنت محافظة، ربما لا تفكر

إلا بالزواج . حاولت أن أحصل منها على عنوان منزلها، ولكنها تمنعت بدلال، لتوحي لي بأنها ليست سهلة المنال . بالنهاية وبصعوبة بالغة حصلت على رقم هاتف منزلها، وبينما أنا مسترسل في حديثي معها، نزعت زنبقة حمراء داكنة من إحدى باقات الزهور الموجودة حولنا، وقدمتها لها تعبيراً عن إعجابي بها، ثم جاء شريكي محمود وأخذني ليعرفني على والد عروسه، فاعتذرت منها على أساس أنني سأغيب خمس دقائق، وأعود إليها فوراً لنتابع حديثنا . لما عدت إليها بعد قليل لم أجدها، وبحثت عنها في كل أرجاء الحفلة ولم أجدها أيضاً، فأثار اختفاؤها المفاجئ الذعر في نفسي .

ولما استلقيت في فراشي لم أستطع أن أنام في تلك الليلة، فصورة وجهها لا تفارق مخيلتي . وفي اليوم التالي بعد أن عدت من عملي بعد الظهر إلى البيت، أعطيت أمي رقم هاتف أهل رغداء، وطلبت منها أن تتصل بهم فوراً، وتأخذ موعداً لزيارتهم من أجل التعرف على ابنتهم بنيّة الخطبة . مانعت والدتي هذه الخطوة، على أساس أننا لا نعرف عائلة البنت، ويجب علينا أن نستفسر عن أحوالهم وسمعتهم قبل أن نتسرع في خطواتنا .

لكن تحت إلحاحي الشديد، لم تجد أمي خياراً سوى أن تأخذ الهاتف وتتصل بالرقم . بعد عدة رنات سمعت صوت سيدة عجوز يجيبها من الطرف الآخر 'ألو'، فبادرتها والدتي بالسلام وقالت لها: 'عندكم صبية حلوة اسمها رغداء، وابني مهندس اسمه سعيد، ونحن نفكر بأن نحضر لزيارتكم لرؤية المحروسة' . هنا طار عقل المرأة العجوز، وبدأت تصرخ 'ما بيكفيكم شماتات، بنتي ماتت وشبعت موت، وهي راقدة في الدحداح . وأنتم لاحقينها لهون ....' فاندهشت أمي من هذا الكلام، فأغلقت السماعة بسرعة، ونظرت إليّ باستغراب، وهي لا تصدق ما تسمع .

تصورت في بادئ الأمر أنها مزحة من رغداء، لكنني أصبحت في هذه اللحظة منساقاً من دون وعي لمتابعة الموضوع، فأخذت سيارتي واتجهت إلى مقبرة الدحداح المعروفة في دمشق . ركنت سيارتي خارجاً، ومشيت بسرعة جنونية إلى داخل المقبرة، فصادفت أحد الموظفين عند مكتب المدخل، أخرجت من جيبي كل ما معي من النقود، وأعطيتها له، وأعتقد أنها حوالي ثلاثين ألف ليرة، وسألته فيما إذا كان يوجد هناك قبر باسم رغداء سعيد . ففتح الموظف سجلاته، ثم أجابني: 'هذا اسم لشابة توفيت منذ حوالي أسبوع بحادث سيارة' . فطلبت منه أن يدلني على قبرها، فمشى معي لمسافة طويلة، ثم أشار إلى أحد القبور . اقتربت منه، فكانت هناك أزهار ذابلة وبعض الأغصان الجافة لشجيرة الآس، موضوعة بعناية على القبر، وبينما أنا أحملق في شاهدة القبر الرخامية الجديدة، لأتأكد من اسمها، لاحظت بين الزهور الميتة الزنبقة الحمراء الداكنة، التي كنت أعطيتها إياها البارحة في الحفلة .

رسالة إلى العالم الثاني

البارحة توفي زوجها تاركاً لها ولدين صغيرين، لم ينتبْها الحزن عليه، فلقد كان المرحوم بخيلاً جداً، على عائلته وعلى نفسه أيضاً، حتى إنه في أيامه الأخيرة، رفض دخول المستشفى، على الرغم من حالته الحرجة، مفضلاً أن يعالجه الطبيب في منزله، لكي يقلل المصروف، زاعماً بأن المستشفيات شلة حرامية، همّها الأول سرقة المرضى .

عندما فتحت الخزانة التي يحتفظ فيها بنقوده، لم تصدق عينيها، فلم يكن فيها إلا حوالي مليون ليرة لبنانية . كانت على يقين بأن زوجها يملك مبلغاً أكبر من ذلك بكثير، وهي تعرف جيداً بأنه يكره البنوك، ويعتبر القائمين عليها شلة لصوص . لقد شاهدته مراراً وهو يدسّ بالخزانة أونصات الذهب الأصفر، أخذت تفكر أين اختفت هذه الأونصات ؟ فهي بحاجة ماسة لها، من أجل تأمين حياة أفضل لولديها، ولاصطياد عريس مناسب لها .

كان المرحوم يملك بقالية كبيرة في القرية، تدرّ عليه شهرياً مبلغاً محترماً، ولكي تستمر البقالية في العمل، اتفقت مع سلفها، على أن يتولى إدارتها مقابل تقاسم الأرباح . المشكلة الرئيسية التي لا تستطيع أن تفهمها حتى الآن، أين اختفت أموال زوجها ؟! بدأت بحملة تفتيش دقيقة بالبيت محاولة إيجاد الكنز الصغير الذي تركه زوجها، ولكنها لم تجد شيئاً . أخبرتها إحدى جاراتها بأن الطريقة الوحيدة لاكتشافه، بأن تبحث عن شخص متوفى حديثاً، وتحمله رسالة لزوجها، مكتوبة على ورقة صغيرة، وهو بدوره سيقوم بإيصالها إلى المرحوم، عندما يجتمع معه بالعالم الثاني، وحينها سيحضر زوجها لزيارتها في أحد أحلامها، ليرشدها إلى موقع الكنز .

في البداية بدت لها هذه النصيحة سخيفة وغير معقولة، ولكن بعد أن أعياها البحث عن الكنز الذي تركه زوجها، قررت الاتصال به، ومما زاد من مخاوفها قول جارتها، بأن الذهب المدفون تحت الأرض إذا لم يستعِده الورثة، بعد فترة قصيرة من وفاة صاحبه، فستستحوذ عليه ملوكُ الجن، ويصبح من مقتنياتها، لذلك عليها الإسراع في تحصيل مقتنيات زوجها من الذهب .

مرَّ عليها شهرٌ ولم يتوفَّ أي شخص من معارفهم، بدأت تفكر بالتخطيط لإغواء سلفها، لكي يتزوجها فوق زوجته الحالية، فيما لو فشلت خطتها بالحصول على كنز زوجها . صحيح أنه أكبر منها بحوالي سبعة عشر عاماً، لكنه أفضل الموجودين أمامها . والكل يشهد بأنها أجمل بألف مرة من زوجته الحالية . في الحقيقة إنها بحاجة إلى رجل ليبقى معها ويشبع رغباتها الجنسية، ولن تمانع بأن تكون الضرّة على زوجته الأولى، في هذه الأثناء توفيت إحد ى قريبات زوجها، فسارعت إلى التقرّب ومسايرة أهل الفقيدة، حتى تمكنت بالنهاية من دس لفافة صغيرة من الورق في كفنها، أثناء تحضيرها للجنازة .

مضى الأسبوع الأول، وها هو الأسبوع الثاني وقد قارب على الانتهاء، ولم يظهر لها زوجها في المنام . توهمت في إحدى الليالي بأنها رأته، حاولت أن تسأله عن أونصات الذهب، ولكنها من شدة خوفها لم تستطع الكلام . جرّبت الوقوف على رجليها للوصول إلى مفتاح الكهرباء لتشعل الضوء، فشعرت بأنهما مشلولتان، فقررت من فزعها في تلك اللحظة، أن تصرف النظر عن موضوع الرسالة، لكنها لما أخبرت جارتها بهذا الكابوس المرعب، أجابتها : "هذه إشارة إلى أن المرحوم قد استلم الرسالة، ولا شك أن جواب رسالتها، موجود الآن في قبره" .

تصميم المرأة تحت تأثير رغباتها الجامحة، يمكنه أن يتجاوز أي منطق . لقد زارت حفار القبور المسؤول عن مقبرة القرية في بيته، وعرضت عليه أن يفتح قبر زوجها . خاف الرجل في بادئ الأمر من الفكرة، لكنها لاحظت في أثناء حديثهما، بأنه يختلس النظر إلى أسوارتي الذهب اللتين على معصمها، فشلحت أسوارة من يدها وقدمتها له، على أساس أنها عربون لفتح قبر زوجها، وبعد الانتهاء من العملية ستعطيه الأسوارة الثانية، تحت إغراء لون الذهب الأصفر اللماع، وافق الحفار على فتح قبر زوجها، اتفقت معه أن تأتي غداً إلى بيته الذي بطرف المقبرة حوالي الساعة العاشرة ليلاً، ليذهبا معاً لفتح القبر .

كانت المقبرة غارقة في سكون عميق، والظلمة شديدة السواد، نظراً لبعد أضواء القرية القليلة عنها . ظهرت لها السماء مظلمة، على الرغم من هذا الكم الهائل من النجوم التي تتزين بها . شعرت بنسمات خفيفة باردة تلفح وجهها، وهي تسير خلف الحفار داخل المقبرة، حاملاً في إحدى يديه مصباح الكيروسين، لينير لهما الطريق، بينما في يده الثانية رفشٌ لحفر التراب . بدت لها جميع القبور متشابهة تحت ظلال الإنارة الخافتة، وترددت كثيراً لتشابه القبور، قبل أن تحدد قبر زوجها، ثم أشارت إلى أحد القبور، وطلبت منه أن يباشر حفره بسرعة، قبل أن يمرّ أحد الأشخاص مصادفةً بالقرب منهما .

بدأ بإزالة الأتربة بوساطة الرفش، وأحسَّ بأنها طرية نوعاً ما، وأعاد ذلك إلى الأمطار الغزيرة، التي هطلت على القرية في اليومين الأخيرين، ما جعل التربة رخوة بعض الشيء، وسهّل له عملية الحفر . بعد ساعتين من إزاحة التراب وصل إلى عمق متر ونصف المتر تقريباً . انتبه إلى حركة خفيفة تجري تحت قدميه، وأحسّ بأن بعض ذرات التراب تهتز من تلقاء نفسها، فطار قلبه من ضلوعه

خوفاً، فقرر الخروج فوراً من حفرة القبر، وإعادة ردم التراب، فما كان من زوجة المرحوم إلا أن شلحت أسوارة الذهب الثانية التي في يدها وأعطته إياها، وأخذت تستفزه، وتنعته بأنه ليس رجلاً شجاعاً، وتحت تأثير الطمع والرغبة في إثبات رجولته أمام هذه المرأة الجميلة، تابع الحفر على مضض .

شعر بيد رخوة تمتد وتقبض بعنف على رسغه الأيسر، حاول في بادئ الأمر أن يقنع نفسه بأنه يتوهم ذلك، لكنه أحسّ بعدها براحة اليد تجذبه بقوة إلى الأسفل، ليتمكن صاحبها من الوقوف على قدميه . نظر بخوف ليجد يد امرأة بيضاء شاحبة تتمسك بشدة بمعصمه، اختلط عليه المشهد، ولم يستوعبه بلحظتها، نتيجة للإنارة الخافتة المنبعثة من مصباح الكيروسين، لكن فجأة أحسّ بيد ثانية تجذبه من حزام بنطاله إلى الأسفل، ففقد عقله، وبدأ يصرخ "ساعديني" جنيّة جنيّة . . . اعطيني يدك، وأفلت معصمه من يد الجنيّة، فما كان منها إلا أن تمسكت بقدمه، وأخذت تسحبه نحوها . ارتفع صراخه على زوجة المرحوم، طالباً مساعدتها للخروج من الحفرة، التفتت برأسها، وهي تقف بمواجهته في الظلام، فشاهدت خيالاً لنصف امرأة عارية، لها شعر أسود طويل، خرجت من كفنها، متشبثة بالحفار .

رفعت مصباح الكيروسين من على الأرض، واقتربت من حافة القبر، حيث العتمة مخيّمة كلياً على الحفرة، مبحلقة في شبح المرأة، فتمسك الحفار بقدمها اليسرى ليرتكز عليها، ليجر جسمه لخارج الحفرة . فأحست بأنها على وشك أن تفقد توازنها، وتقع في الحفرة، نتيجة لحركته السريعة غير المتوقعة، فأفلتت قدمها بصعوبة من بين أصابع يده، وتراجعت خطوة إلى الوراء، وفي أثناء هذه الحركة وقع مصباح الكيروسين بالحفرة، فانكسر زجاج القنديل، وتدفق سائل زيت الكاز إلى أسفل الحفرة، فانتشرت النار من الفتيل

المشتعل على أرضية القبر . أخذ الحفار يدور حول نفسه، يراقص الهواء في صراخ مرعب، بينما الجنيّة تحاول أن تدحرج نفسها على الأرضية لإطفاء النار العالق على جسدها، لكن المكان ضيّق ولا مجال للهروب، فأخذا يصرخان بشكل هستيري، وألسنة اللهب تتصاعد من الحفرة .

هالها المنظر، فسارعت إلى الفرار، التفتت إلى يمينها وهي تشق طريقها بالعتمة بين القبور مسرعة باتجاه باب المقبرة، فاكتشفت حينئذٍ أن قبر زوجها كان إلى يمين القبر الذي قام الحفار بفتحه، فأدركت متأخرة وهي راكضة، أن الفتاة التي كانت مدفونة بالقبر لم تكن ميتة فعلاً عند دفنها، فقد يحدث أحياناً في حالات نادرة، بأن يتوقف القلب عن الخفقان لمدة قصيرة، فيموت الشخص مؤقتاً، ثم يعاود القلب خفقانه فيستيقظ الشخص من نومه ويعود للحياة من جديد .

لما وصلت بيتها فتحت الباب بهدوء، لكيلا توقظ ولديها، واتجهت نحو الحمام مباشرة، إن الاغتسال في جميع الأديان السماوية يعني التطهّر من الرجس والأعمال الشيطانية . حتى في الديانة الهندوسية فالاستحمام بمياه نهر الغانج يطهّر الهندوس من جميع خطاياهم، ويعطيهم الشعور بالولادة من جديد . بعد أن اغتسلت بالماء شعرت بارتياح نفسي عميق، فجأة خطر على بالها، بأنها تركت أسوارة يدها الذهبية في القبر مع الحفار، فاجتاحتها نوبة من الذعر، لأن اسمها منقوش على الوجه الداخلي من الأسوارة، وغداً عندما تبدأ الشرطة في التحقيقات، ستربط علاقتها بالحادثة من وجود الأسوارة بالقبر، وهي لا تستطيع إنكار أن الأسوارة لا تعود لها، لأن المحل الوحيد الذي يبيع المشغولات الذهبية في القرية، والذي صاحبه أبو وائل، هو الذي نقش اسمها عليها .

حاولت أن تخلد إلى النوم لشعورها بالتعب نتيجة تسارع الأحداث في الساعات الأخيرة، لكن الإثارة والتفكير والقلق من الغد، زاد من توترها، إنها تنهار نفسياً، ولم يعد باستطاعتها الاستمرار. عادت بذاكرتها إلى مدرستها الثانوية، حيث كانت أجمل بنات صفها، وكيف أن أباها أخرجها من الصف الثامن ليزوجها رغماً عنها من هذا الرجل الشحيح الذي يكبرها بخمسة عشر عاماً. لقد كانت تتمنى موته منذ اليوم الأول لزواجهما، لكي ترث ثروته، وتبدأ حياتها من جديد مع رجل وسيم يشبه أبطال المسلسلات المصرية التي تشاهدها على التلفزيون، وها هي أمنيتها قد تحققت أخيراً، من دون أن ترث الثروة التي تمكنها من بلوغ أحلامها، وفوق كل هذا، سوف ينتهي بها الأمر في السجن، لقد أنهى أبوها حياتها منذ زمن بعيد، قبل أن تبدأ، فشعرت بكراهية كبيرة تجاهه، وخجلت من الاعتراف بأنها استمتعت وهي تراه يتألم من أوجاع مرض السرطان في أيامه الأخيرة.

إنها تحترق نفسياً، سيطرت عليها الكآبة والشعور باليأس، مرت حياتها السابقة أمام عينيها كشريط سينمائي سريع، لم تحظَ خلاله بلحظة واحدة من السعادة، قامت من مكانها، واتجهت نحو خزنة الأدوية، وأخرجت الزجاجة الزرقاء التي فيها الحبوب المسكنة التي كان يتناولها زوجها قبل أن يموت، مازال في العلبة أكثر من عشرين حبة، أخذت من المطبخ كأساً من الماء، واتجهت إلى غرفة نومها، وجلست على حافة السرير، وشعرت بكراهية مطلقة لجميع الأشخاص الذين عرفتهم طوال حياتها بلا استثناء، بدأت تبتلع الحبة تلو الأخرى مع رشفات متقطعة من الماء، وهي تتصور أن الشقاء في هذا العالم لا يمكن أن ينتهي.

❖ ❖ ❖

زوجة الشيطان

تكره زوجها لدرجة كبيرة، ويتصاعد حقدها، مع كل ليلة تمضيها معه بالفراش في غرفة النوم، فرائحته العفنة تزكم أنفها، وتشعرها بالرغبة في التقيؤ، ما يدفعها دائماً للتفكير بالزواج من رجل آخر . فهو أكبر منها بخمسة وعشرين عاماً، لقد تزوجته رغماً عنها وبضغط من أخيها الكبير، الذي كان يعمل عنده في مصنع البسكويت . كان همُ أخيها من وراء هذه الزيجة تحسين أوضاع عائلتهم . في البداية لم تقاوم كثيراً هذه الزيجة طمعاً في ثروة عريسها . وأوهمها أخوها، بأن زوجها يعاني ارتفاعاً مزمناً في ضغط الدم، ولن يعيش طويلاً، حتى تنعم بتقاسم ثروته مع ابنته دلال من زيجته الأولى .

الآن قد مضى على زواجها أكثر من خمس عشرة سنة، وزوجها المريض، مازال رابصاً على قلبها . بمرور كل ليلة يزداد إيمانها، بأن هذا المشؤوم سيعيش ليدفنها . أيامها تمضي بسرعة، وجمالها التي طالما تباهت به بين قريناتها آخذٌ في الذوبان . الوقت يداهمها، عليها أن تفكر بسرعة لكي تتخلص منه، وبعد أن ترثه، فهناك ألف شاب يتمنون الزواج منها .

أخبرتها إحدى صديقاتها، بأن هناك لعبة اسمها المرآة، ويمكنها أن تلعبها لتصبح خليلةً للشيطان، وبعدها فإنه سيساعدها للتخلص من زوجها الاختيار . وهذه الطقوس لا يمكن أن تتحقق إلا مرة واحدة كل عشر سنوات . حيث يجب أن يكون الرقم النهائي للسنة هو ستة، وأن يكون في السادس من يونيو، لأن الرقم ستة هو رقم الشيطان .

ما زال هناك حوالي شهرين حتى يحين موعد ستة يونيو، وأخذت

تترقب الأيام وهي تمضي ببطء، وهي تفكر باسم الرجل الذي عليها أن تنسج شباكها حوله ليتزوجها، ولهف قلبها إلى سائق السيارة الخاص الذي يعمل عند بنت زوجها . إنه شاب وسيم وفقير، وأصغر منها بحوالي عشر سنوات، ولا شك بأنه سيتمنى لو أنها تتزوجه، عليها الآن أن تسيطر على أعصابها، ولا تتسرع في خطواتها، لكيلا تلفت نظر عائلة زوجها إليها .

في تلك الليلة المرتقبة، ذهبت إلى غرفتها، وأطفأت الأنوار وأقفلت بابها، وأشعلت ست شمعات على طاولة صغيرة في ركن الغرفة، لتجذب انتباه الشيطان . خلعت ملابسها، وجلست عارية أمام المرآة، تتأمل تضاريس جمال جسدها المتناسق، وتتحسر على الأيام التي أضاعتها مع زوجها . ثم أغمضت عينيها، وبدأت تتحدث إلى الشيطان، لكي يظهر أمامها، لتعقد معه صفقة، تمكنها من التخلص من زوجها .

أخذت تنتظر ظهور الشيطان لتساومه على نفسها، لكن شيئاً من هذا لم يحدث . وبعد ساعة من الانتظار، خطر لها أن هذه هي مجرد لعبة، ولا وجود للشيطان فيها، وفكرت بأن تطفئ الشمعات، وأن تنهي هذه الجلسة، في تلك اللحظة، أحست برياح صامتة باردة برودة الموت، تتسرب من خلال باب البلكونة لتلفح وجهها، ثم شعرت برعشة قوية في أطراف أصابع قدمها اليسرى، فتصورت بأن الشيطان دخل منها إلى جسدها، فأحست بصداع قوي، وشعرت بضيق شديد في تنفسها وانقباض في معدتها، فأدركت بفطرتها بأن الشيطان قد خدعها واستحوذ عليها، من دون أن يعطيها أي فرصة لمناقشة صفقة زوجها، نظرت حولها فشاهدت بشكل مفاجئ ثعباناً أسود لامعاً، يزحف باتجاهها على أرضية الغرفة، مقترباً بسرعة منها، ثم شعرت بحراشفه وهو يزحف على بشرتها صاعداً فوق

صدرها، ليلتف على رقبتها، فأدركت بأن الشيطان قد تمكن منها، فخرجت عيناها لمؤخرة رأسها، وسمعت أصوات بكاء مرعبة، تنبعث من وراء باب الغرفة، فانتابتها نوبة من الهستيريا، ولم تعد في هذه اللحظة قادرةً على التمييز بين مشاعر الضغينة التي تكنّها لزوجها ورعبها الشديد واحتقارها لنفسها، فاندفعت بلا إرادة منها نحو بلكونة غرفتها، تقودها رغبة الانتقام، وتجذبها قوة خفية لا يمكنها تفسيرها، لتجد نفسها تطير في الهواء، ساقطةً من الطابق السادس إلى الأسفل، باتجاه سطح الطريق .

❖ ❖ ❖

طارد الشياطين

حتى جاءت تلك الليلة المشؤومة، عندما كان يقود سيارته حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، والمرسيدس تشق طريقها، صاعدةً الطريق الجبلي الضيّق المؤدي إلى الجادة الرابعة من حيِّ المهاجرين، الممتد على سفح جبل قاسيون، والمطل على مدينة دمشق. تراءت له خيالات شيطانية، قد رسمها الظلام الخافت على الأبنية الموازية للطريق. ما أعطاه نوعاً من الإثارة، ضاعفت من شعوره بالنشوة التي تركتها خمسة كؤوس من الويسكي. حينما وصل إلى البناية التي يقطن فيها، ركن سيارته بجانب الطريق، وصعد بصعوبة إلى شقته في الطابق الثالث، لم يلاحظ في أثناء مروره على البسطة في الطابق الثاني، أنه عدا على خيط رفيع من الرمل الأبيض كان موجوداً على أرضية البسطة.

الكحول كانت مهربه الوحيد، ليقابل المجتمع الذي يخاف أن تظهر شخصيته الحقيقية أمامه. إن الكحول يكسبه الشجاعة للتعامل مع النساء. لقد لفت انتباهه منذ فترة شابة شقراء مفعمة بالحيوية اسمها لمياء، تعمل موظفة صغيرة في مديرية جباية الضرائب التي هو مديرها، بسبب قلقه من أن تكتشف مشاعره نحوها، حاول دائماً تجنّب الأحاديث معها، خوفاً من أن تفضحه نظراته الجنسية إلى جسمها. لم يكن يتكلم معها إلا عند ضرورة العمل.

لم يدرك بتلك الليلة وهو في حالة الثمالة والضعف خطورة المشي فوق خط الرمل الأبيض، الذي كانت جارته قد وضعته خصيصاً له، بعد أن ألقت عليه تعويذة مكتوبة بالسامرية، كانت قد قرأتها مصادفة في كتاب للسحر الأسود. لم تفهم في حينها معناها، حيث ظنت بأنها ستجعله يتعلق بابنتها الوحيدة ويتزوجها، لم تكن

تعرف بأن هذه التعويذة، معمولة خصيصاً لإدخال الشيطان إلى جسد الإنسان .

دخل غرفته لينام، فانتابه شعور غريب من الثقة بالنفس والخوف بالوقت نفسه، فالإنسان المقترن بالشيطان هو في الحقيقة إنسان مزدوج الشخصية، فتارة يتصرف بطبيعة الإنسان العادي، وأحياناً تتوارى شخصية الإنسان العادي، وتظهر عليه الشخصية الشيطانية، بينما هو جالس على الكرسي أخذ يبكي ثم يضحك من دون سبب، وأحسّ بيد تلمس كتفه، لم تكن لديه الجرأة ليلتفت إلى جانبه لينظر من لمس كتفه . شعر بعدها برغبة جامحة لا يستطيع السيطرة عليها، فأخذ جواله واتصل بلمياء الشقراء المعجب بها .

عندما سمعت صوته في منتصف الليل شعرت بالهلع في بادئ الأمر، لكنها شعرت بعدها بالاطمئنان والفرح، عندما أخبرها بأنه يهيم حباً بها، وسوف يحضر غداً، مع عائلته ليخطبها من أبيها، إضافة إلى أنه مديرها، فهو يملك سيارة مرسيدس سوداء، وينحدر من أسرة غنية مرموقة، وأن جميع الموظفات العزباوات في المديرية، يتمنين الزواج منه .

بدأ مأمون يعيش الوساوس والخيالات . مرةً بينما كان جالساً على التلفزيون، شعر بشخص آخر يجلس إلى جانبه، لم يتبين شكله بسبب العتمة . وسأله عن اسم خطيبته، من شدة المفاجأة فقد السيطرة على نفسه، وأصبحت دقات قلبه سريعة جداً، ولم يعد يستطيع الكلام . في اليوم التالي سأل أمه وأخته فيما إذا كانت إحداهن قد دخلت غرفته في أثناء جلوسه وحده أمام شاشة التلفزيون، ما أثار الشكوك في أعماقهما، وتتالت القصص عن سماعه لأصوات غريبة بلغات غير معروفة وحركات خافتة في غرفة نومه أثناء الليل .

في أحد الأيام أخذ مرطبان الزيتون، وألقاه على رأس جارتهم التي تقطن بالطابق الثاني، وهي تهمُّ بدخول المبنى، ولكن لحسن حظه، لم يصبها، فطفح الكيل بأهله بعد هذا التصرف الخطير الشاذ، فاصطحبوه إلى أشهر الأطباء لمعالجته . فوجدوه سالماً، ولم يستطيعوا تشخيص حالته المرضية، فأخذته أمه إلى شيخ معروف، فعمل له حجاباً، لكن جنونه لم يخفّ .

أخذت تصرفاته الشاذة تخيف أهله وخطيبته لمياء، وكان باستمرار يشتكي من أن شخصاً آخر يمشي دائماً خلفه . وعندما يلتفت فجأة نحو الخلف، لا يجد أحداً . بالنهاية توصلت أمه إلى عنوان شيخ روحاني متخصّص في حالات التلبس وطرد الجن من جسم الإنسان، وبعد أن قام بمعاينته، أخبرهم بأن هناك شيطاناً قد دخل جسمه في لحظة غفلة وضعف، من إحدى أصابع قدميه . في لحظتها انتابت أمه من خوفها تشنجات عضلية، وشعرت بالتعرق وضيق النفس، وأنها على أبواب نوبة قلبية، إلا أن العالم الروحاني هدّأ من روعها، وطمأنها بأنه عندما يدخل الشيطان جسد الإنسان، فإنه يتجرد من كل قواه الخارقة، ويصبح في أضعف حالاته، وتصبح القوانين البشرية قابلة للتطبيق عليه .

شرح لها أن الطريقة السهلة لإخراج الشيطان من جسد ابنها، هو تعريض جسده للنار، ولما كان الشيطان مخلوقاً من النار، فبمجرد أن يرى جسد ابنها يشتعل، فسيخرج هارباً لكيلا يذوب ويموت في النار . الكلمات بسيطة لكنها مخيفة بالنسبة لقلب الأم، وتمنت بداخلها لو أنهم يحرقونها بدلاً عنه، إلا أن ثقتها في هذا العالم الروحاني المشهور، جعلتها توافق على هذا الحل .

في ليلة مظلمة أخذوه بعد أن ربطوا يديه بحبلة من البلاستيك، ليصبح عاجزاً عن مقاومتهم، إلى مبنى خالٍ في مكانٍ مقفرٍ بعيدٍ

عن مدينة دمشق . على ضوء فانوس خافت، أدخلوه إلى غرفة صغيرة جدرانها من البلوك، وأرضيتها عبارة عن صبَّة بيتونية ناعمة . أحضروا من السيارة غالونين من البلاستيك يحتويان على مادة سائلة، وست زجاجات من سائل لتطهير اليدين، يحتوي على نسبة قليلة من الكحول . فتح العالم الغالون الأول، ففاحت منه رائحة تشبه رائحة البنزين، ورشَّ السائل على الأرض، ثم أخرج ست زجاجات من المطهِّر، ونثر ما بداخلها فوق البنزين، وبعدها أطفأ الفانوس، فساد الغرفة ظلام دامس، ثم أشعل الروحاني عود ثقاب، وألقاه على المزيج، فاشتعل لهب أزرق خفيف أصبح ملحوظاً، لشدة السواد داخل الغرفة، حينئذ، دفع الرجل الآخر مأمون بقوة، فتعثر فوقع على النار، عندما لاحظ الجني أن مأمون بدأ يحترق، خرج مسرعاً من خنصر يده اليمنى فمزقها، ونفر الدم بغزارة، فبدأ مأمون يصرخ من شدة ألمه .

لما شاهد العالم هذا المنظر، ألقى بالماء الموجود في الغالون الثاني على مأمون، من باب الاحتياط فقط . فالنار التي ولّعها الروحاني اسمها في علم الكيمياء النار الباردة، وهي تعتمد على إنتاج ألسنة النار الباردة نتيجة لتفاعل الإسترات مع الأحماض، وهذا الوهج ينشأ نتيجةً لتفاعل هذه المواد الكيميائية مع بعضها بعضاً . وكثيراً منا شاهد في الأفلام كيف يحمل بعض الناس شعلة من النار في أيديهم ويتلاعبون بها، كما أنها تستخدم لإنشاء مؤثرات خاصة في الأفلام السينمائية . أما الغالون المحتوي على سائل تشبه رائحته رائحة البنزين فهو عبارة عن ماء عادي، أضيفت له مادة كيميائية لها رائحة البنزين . كانت الفكرة من كل هذه المسرحية هي إقناع الشيطان، بأن مأمون دخل في مرحلة الاحتراق، لكي يخاف ويخرج مسرعاً من جسمه .

أما بالنسبة لمأمون فلقد عاد، بعد هذه الحادثة رجلاً طبيعياً، وتزوج من لمياء التي يحبها، ومازال حتى هذا اليوم مديراً لقسم جباية الضرائب في مديرية المالية، أما لمياء فقد استقالت من وظيفتها الحكومية، وتفرغت لتربية ولدها الصغير أحمد، ولكن حتى الآن، يحاول مأمون أن يتجنّب مصافحة الناس بيده اليمنى، حتى لا يلاحظوا أنه بلا خنصر، لكيلا تدفعهم كثرة الغلبة لسؤاله عما حدث لخنصره .

❖ ❖ ❖

الحدأة

في البداية لم أصدق ما رأيته في الفيديو القصير الذي التقطه أحد الهواة عن طائر الحدأة، وهو يتعمد إشعال الحرائق في غابات أستراليا، فلقد ظهر الطائر بشكل واضح، وهو يقوم بالتقاط غصن صغير تشتعل فيه النار من طرفه، ثم يطير ليرميه في مكان آخر من البرية . إن نقله للعيدان المشتعلة من مكان لآخر يساهم في توسيع حرائق الغابات، فهو يقوم بحرق كل ما ينبت على الأرض من الأعشاب والأشجار التي تعيق رؤيته لفرائسه الصغيرة، لكنه بحرقه للغابات يحصل على جثث ضحاياه الصغيرة ناضجة مشوية، جاهزة لتكون وليمة فاخرة، مكافأة له على أفعاله الشيطانية .

هذا الفيديو القصير، شرح لي سبب انتشار الحرائق بالوقت نفسه في عدة مواقع بالغابات المحيطة بقريتنا بتلون، وهي قرية خضراء جميلة، تقع في أعالي سلسلة جبال لبنان الغربية، تحيط بها غابات شجر الزان والتنوب، وتطلُ على الأودية العميقة التي تجري فيها المياه المنحدرة من قمم الجبال بشكل دائم، ما دفعني لمحاولة الحصول على طائر الحدأة لمراقبته عن كثب، قبل أن أشرح لأهل ضيعتي سبب انتشار هذه الحرائق المتزامنة في منطقتنا .

بالنهاية تمكنت من الحصول على هذا الطائر، ووضعته في قفص كبير في حديقتنا، وبدأت بمراقبته . لقد أدهشني لونه البني الغامق المائل إلى الاحمرار مع الريش الأسود، الذي يغطي جناحيه وعينيه الحمراوين ورجليه البرتقاليتين . وبالرغم من أن طوله لا يزيد على نصف متر، فلقد بدا لي مرعباً، وتناقضت هذه الألوان مع حجمه الصغير، فشعرت بكراهية غريبة نحوه .

أدخلت إلى القفص غصن شجرة صغيراً جافاً، بعد أن أشعلته من طرفه وتركته داخل القفص، توقعت أن يحمل الحدأة هذا العود

وينقله إلى جدار القفص، لكي يشب فيه النار، ليتمكن من الفرار، ولكنه لم يتحرك من مكانه، ما أثار غضبي، فأخذت أوخزه بهذا العود المشتعل . في البداية كان يتحرك ببطء ليتجنب نار العود، وشعرت بأنه كان يتحداني، ولعله أدرك أنني كنت أحاول إثبات قوتي بإظهارها بالتعامل بقسوة معه، فقدت السيطرة على أعصابي، فأخذت العود وقربته من رأسه، ولا أدري كيف جرت الأمور، وبحركة غير مقصودة مني اقتربت النار من وجهه، وفقأت إحدى عينيه، فبدأ يصفر بصوت رفيع شديد، يشبه صرير الريح من شدة ألمه . ومن المعروف أن لهذا الطائر صفيراً عالياً يسمع لمسافات بعيدة . انتابني شعور بالندم من تصرفي، وقررت أن أطلق سراحه في اليومين القادمين، حالما يتحسن وضعه الصحي .

في أثناء نومي استيقظت على رائحة الدخان، ونار الخشب المشتعل تملأ البيت، اشتعلت النيران بسرعة رهيبة، فخرجت مبتعداً عن بيتي إلى الحديقة حتى لا تلفحني النيران، لفت انتباهي أن باب القفص كان مفتوحاً، وأن طائر الحدأة الأعور لم يكن في داخله، وعلا بالخارج صوت صراخ الجيران، فزعٌ ورعبٌ وخوفٌ يعيشه أهالي الضيعة بعد اشتعال النيران في منازلهم وفي جميع أماكن القرية، من دون سبب واضح . ما جعل الجميع يعتقد أن سبب الحرائق هو وجود جان تشعل النيران في القرية، وأخذ الأهالي يحفزون أنفسهم لمحاولة إطفاء هذه النيران التي تشتعل في كل مكان .

نظرت إلى السماء، فهالني وجود هذه الأسراب الصاخبة من الطيور، التي تحمل في مناقيرها أعواداً مشتعلة، وهي تنقضُ على القرية ملقيةً العيدان المشتعلة عليها، إنها صقور النار جاءت للانتقام .

❖ ❖ ❖

الزوج المفقود

عندما تزوجها كان طالباً بالسنة النهائية في كلية الحقوق بالجامعة اللبنانية، كان يدرك بقرارة نفسه بأنها غير جميلة، لكن قصر قامتها أعطاها نوعاً من الأنوثة، ما أعطاه الشعور بالقوة والقدرة على احتوائها والسيطرة عليها . بالإضافة إلى راتبها الذي ستحصل عليه بعد تخرجها في الجامعة .

بعد فترة، من الطبيعي أن يكتشف الزوجان العيوب الموجودة في كل منهما، وتسقط الأقنعة التي كانا يرتديانها في أيام الجامعة، فتصاب علاقتهما بالملل والإحباط، لعدم قدرتهما على التعايش مع بعضهما دون أوهام . في هذه الأثناء توفيت أم نوال، وتركت لها ثروة لا بأس بها، فاستمدت نوال شعوراً جديداً بالقوة، وأصبح عندها الجرأة لتطلب من زوجها الطلاق، لم تكن مستعدة لاستمرار هذه العلاقة التي لم تعطها أبداً أيّ شيء، وسلبت منها كل شيء، لقد أخذت تخطط، بأنه آن الأوان لكي تبدا حياتها من جديد .

بالنسبة لزوجها سعيد، فلقد كان من الصعب عليه التخلي عن امرأة قد اعتاد أن يعتمد عليها، علاوةً على شعوره النفسي بالإذلال من فكرة خلعه من قبل امرأة، فبدأ يماطلها في القبول، متصوراً بأن الوقت كفيل بتغيير موقفها . فازدادت معاناتها وكراهيتها له، فخطر لها أن أقصر طريقة لخلعه، هي اختفاؤه من حياتها .

تدرك نوال بأن العيب الوحيد الموجود في جسمها، هو عدم تناسق وجهها، فهي تعاني من مشكلة الفك البارز، الذي طالما أثّر في مظهرها الخارجي وثقتها بنفسها، لقد أعطتها إحدى صديقاتها عنوان طبيب جراح مشهور في تركيا، يقوم بعمليات جراحية تجميلية مدهشة . إذ إنه يلجأ إلى تغيير إعادة تركيب عظام الوجه، كما يقوم بنشر العظام الزائدة، ثم بإعادة تركيب العضلات عليها .

لم تتردد نوال في مراسلة الطبيب الجرّاح، وأرسلت له صورة عن وجهها، بعد فترة قصيرة استلمت رسالة من المستشفى، تفيد بأنهم يمكنهم إجراء هذه العملية لتصحيح وضع فكيها، وأن تكلفتها بحدود عشرين ألف دولار . المبلغ لم يعد مشكلة في هذه الأيام . بدأت تعيش في الخيالات، وتغرق في بحارها، وتصورت أنها بعد هذه العملية، ستصبح جميلة جداً، ومع أحوالها المادية الجيدة ووظيفتها الحكومية، فهناك آلاف الرجال الذين سيتمنون الزواج منها، فباشرت تصبُّ جام غضبها على زوجها، وتحمّله مسؤولية جميع الصعوبات التي تواجهها، بهدف الاحتفاظ بوجهة نظر إيجابية عن نفسها، ولكيلا تفقد احترامها لذاتها .

بدأت تجهّز نفسها للسفر إلى تركيا . فباعت حصتها في بيت العائلة إلى أخيها الأكبر بثلاثين ألف دولار . باشرت بالتعامل مع زوجها بشكل استفزازي لتثير غضبه، وتدفعه إلى الموافقة على طلاقها .

في أحد الأيام وفي أثناء جلوسهما على طاولة الغداء، اتهمته بأنه ضعيف جنسياً، ولذلك فهي غير قادرة على الاستمرار معه في حياتهما الزوجية . فقد السيطرة على أعصابه، فأخذ يشتمها وناداها بالعاهرة، وشدّها من شعرها الأسود الطويل بقوة، وأخذ يضرب رأسها بالطاولة، لم يكن أمامها لتوقفه عن إيذائها، سوى أن تتناول السكين الكبيرة الموجودة على سطح الطاولة، وتسدد له عدة طعنات في صدره، وتركت السكينة عالقة في جسده، وأخذ يصرخ : " ساعديني، اطلبي سيارة إسعاف، وسوف أطلقك "، هذه هي آخر كلمات سمعتها منه . ونظرت إلى وجهه الباهت، فشاهدت شفتيه اللتين كانت تشتمانها قبل قليل، قد التصقتا مع بعضهما إلى الأبد . اكتشفت في تلك اللحظة أنها لم تكن في وعيها وقت حدوث هذه الجريمة .

الآن عليها أن تتصرف بسرعة، قبل أن تدخل في فضيحة تدخلها السجن وتدمّرها، فهداها تفكيرها إلى أن تسحب جثته إلى المطبخ، لتقوم بتقطيعها إلى أجزاء صغيرة، فقامت أولاً بفصل الرأس عن الجسم، وبدأت بسلخ اللحم عن العظم، واستعانت بالمفك لتقطيع الأوتار التي تربط المفاصل . أخذت تضع هذه القطع في أكياس زبالة سوداء، لتقوم لاحقاً بإلقائها خارج المناطق السكنية، ولتتكفل الكلاب الشاردة بأكلها .

بعد أن نفّذت خطتها الجهنمية، وضعت جثته في ثمانية أكياس، كان مشهد المطبخ بشعاً للغاية، فقد امتلأ بالدماء، فشطفت أرضيته، وأزالت جميع آثار الدماء، وبقيت أمامها مشكلة تصريف هذه الأكياس .

إن عليها الآن الانطلاق بلا ندم . اتصلت بصديقتها سعاد الموظفة معها في الدائرة العقارية، والتي تملك سيارة بيجو صغيرة، فطلبت منها أن تحضر إلى منزلها بسرعة لحاجة ضرورية . بالفعل حضرت سعاد بعد ساعة إلى منزل نوال . وبعد أن جلست في غرفة الجلوس، أخرجت نوال ستة آلاف دولار وأعطتها لها، لم تستطع في بادئ الأمر أن تستوعب لماذا أعطتها هذا المبلغ . بعد قليل شرحت لها نوال أنها تريد منها أن تساعدها بسيارتها لنقل أكياس الزبالة السوداء التي تحتوي على جثة زوجها، لإلقائها خارج المناطق السكنية . تحت تأثير مبلغ ستة الآلاف دولار، وسطوة الضائقة الاقتصادية القاسية التي يعيشها لبنان، وافقت سعاد على ذلك .

بعد يومين قامت نوال بتحرير محضر في قسم الشرطة بغياب زوجها، الذي اختفى دون أي مقدمات، ذكرت فيه بأنه كان على علاقة مع امرأة مطلقة لا تعرف اسمها، وانضم محضرها إلى آلاف البلاغات في أقسام الشرطة المتعلقة بهروب عدد كبير من الأزواج بسبب عدم قدرتهم على تحمّل مسؤولياتهم تجاه أسرهم في هذه

الظروف التي انهارت فيها الليرة اللبنانية . فبدت الهجرة إلى أوروبا بالهروب بزوارق الموت ملاذهم الوحيد للتخلص من هذا الجحيم، كل ما عليها الآن أن تجهّز نفسها للسفر إلى تركيا لإجراء جراحة التجميل .

في الحياة لا يوجد أمان، ولا يمكنك أن تعرف ماذا سوف يحدث غداً، حاولت أن تنسى الحادث وتركز على المستقبل، لكنها لم تتمكن من السيطرة على الهواجس والأفكار المقلقة التي تنتابها . هذه الوساوس المرتبطة بالخوف من أن تكتشف الشرطة بأنها قد قتلت زوجها، بدأت تتحول إلى مرض، فشرعت بالانعزال عن إخوتها وعن صديقتها سعاد، وعن الأشخاص المهمين بحياتها . فساهم ذلك في منعها من أن تمارس حياتها بشكل طبيعي .

لاحظت سعاد مظاهر الشعور بالضيق الشديد وحالة الحزن والكآبة التي تعتري نوال، فأيقنت بأنها على حافة الانهيار العصبي، ولسوف تعترف بأنها قتلت زوجها، فتورطها في هذه الجريمة، وتأكدت من حدسها، لما أخبرتها صديقتها نوال، بأن هناك بعض الأشياء الغريبة التي بدأت تحدث معها في البيت، ولكنها تتجاهلها متعمّدة، محاولة أن تقنع نفسها بأنها مجرد وهم .

في إحدى الليالي، وبينما هي جالسة تشاهد التلفزيون، رأت ظلاً لكلب أسود يمر من جانبها، فالتفتت بسرعة، لترى ما يحدث، ولكنها لم تجد شيئاً، كما أخبرتها، أنه أحياناً يرن جرس جوالها، وعندما تنظر إلى الشاشة ترى أن الرقم هو رقم جوالها نفسه، تشجعت مرة وأجابت عليه، فسمعت صوت زوجها يقول : " ألو " من الطرف الآخر، فأغلقت الهاتف وهي ترتجف من الخوف .

شرحت سعاد لزوجها وهي تبكي، كيف أنها تورطت في مساعدة نوال على إخفاء جثة زوجها مقابل ستة آلاف دولار، وأقسمت له

بأنها احتفظت بهذا المبلغ من أجل الأيام السود القادمة على لبنان، ليكون هذا المبلغ حاضراً، فيما إذا احتاجه أحد من أفراد العائلة لدخول المستشفى، للمعالجة من مرض الكورونا المنتشر بكثرة في هذه الأيام، فاندهش زوجها من هذا الخبر. أطرق برأسه وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وبدأ يفكر في هذه المصيبة غير المتوقعة.

لم تتصل نوال بأخيها الكبير كعادتها في كل يوم، وعندما اتصل بها على جوالها كان مغلقاً على غير عادته، فانشغل باله، فأسرع إلى منزلها، قرع جرس الباب، فلم يتلقَّ أيّ جواب، فعاد وطرقه بيده بقوة، فلم يسمع أيّ حركة، فاستخدم المفتاح الاحتياطي الذي كانت قد أعطته له نوال، عندما دخل غرفة المعيشة، شاهدها ممددةً على الأرض، وقد فارقت الحياة.

❖ ❖ ❖

الكلب الأعور

قصتي حدثت منذ سبع سنوات، وتحديداً في الخامس من آذار، وهذا تاريخ لا يمكن أن أنساه أبداً، لأنه يصادف يوم عيد ميلادي . في تلك الليلة لم أستطع النوم ولو للحظة واحدة، من شدة صوت نباح الكلب الذي يسكن مع صاحبه المسن المريض بالملحق الصغير في نفس البناء الذي نعيش فيه .

في الصباح لما ذكرت لأمي أنني كنت منزعجاً من صوت عواء الكلب الساكن في ملحق البناء . استغربت من كلامي، لأنها لم تسمع أي صوت غير عادي في تلك الليلة . فأقنعت نفسي، بأن الإنسان، عندما يتقدم بالعمر تضعف حاسة السمع لديه، وتناسيت الموضوع .

في الليلة التالية كنت متوجساً من الذهاب إلى فراشي، لكيلا أسمع صوته المريع مرة ثانية . لكن في منتصف الليل تكررت الأسطوانة نفسها، وعلا نباح الكلب من جديد . فسألت أمي عندما طلّ الصباح، فيما إذا سمعت صوت عواء الكلب خلال الليلة . رفعت حاجبيها مندهشة ومستغربة من تكراري للسؤال نفسه!

بدأت أعاني قبل النوم من الخوف بأنني لا أستطيع أن أنام، ما زاد من توتري، وأمسيت أدور في حلقة مفرغة . أثر ذلك في أعصابي، فصارت مشدودة طوال الوقت، لدرجة لم أعد أستطيع خلالها التمييز فيما إذا كنت صاحياً أو نائماً . وتطور هذا التفكير السلبي ليعتريني بشكل وساوس، تضمنت أفكاراً ومخاوف غير منطقية . فرضت علي التفكير بضرورة التخلص من الكلب المشؤوم، كحل نهائي لا بد منه، لكي أستعيد توازني النفسي .

في أثناء نومي، شاهدت كلب جارنا جاثماً على صدري . وأحسست بثقله وأنفاسه النتنة تدغدغ وجهي . فدفعته بعنف بيدي من شدة

الخوف، فأحسست بأظفار يده اليمنى الحادة تخدش كتفي . قبل أن يرتفع ويختفي في الفراغ .

لما استيقظت في الصباح شعرت بالخجل من مفاتحة أمي بهذا الكابوس . لكني عندما نظرت إلى كتفي بالمرآة، وجدت خدوشاً صغيرة، ومن هلعي رفضت أن أفكر في سببها .

انتظرت حتى المساء، لما نزل العجوز من بيته ليتمشى كعادته في كل ليلة مع كلبه . اقتربت منه وقلت: "مساء الخير جار" فرد التحية بهزة خفيفة من رأسه، تمعنت في وجهه ففوجئت . بأن نظارته السوداء تخفي آثار بعض الحروق والندوب على جانب وجهه الأيسر، لا شك أنه اختار هذه العدسات السوداء الغامقة عن قصد، لتغطية عينه اليسرى المشوهة، وتفرست في وجه كلبه الأسود، فهالني هذا الشبه الغريب والتطابق بين الوجهين، حتى إن الكلب نفسه أعور . ولقد غطى عينه اليسرى بقطعة بلاستيكية سوداء . من المعروف أن الرجل عندما يعيش فترة طويلة مع كلبه، يزداد تعلقهما ببعضهما بعضاً، ويخلق الوقت تماهياً كبيراً بين الكلب وصاحبه .

سيطر هذا الوسواس القهري على تفكيري . فاشتريت من الصيدلية القريبة من منزلي سمَّ الفئران بشكل بودرة بيضاء . ولقد حذرني الصيدلي من خطورة هذا السمِّ على الإنسان، وطلب مني أن أبقيه بعيداً عن متناول الأطفال . لأن تناوله يسبب نزيفاً داخلياً للفأر، يستمر حتى الموت، وكذلك الحالة بالنسبة للإنسان .

مشكلتي الحقيقية، بدأت الآن في كيفية إيصال هذا السم إلى الكلب . وبعد تفكير، وجدت أن أفضل طريقة، أن أضع السمّ في قطعة لحم حمراء، وأعطيها للكلب ليأكلها .

بقي على العيد الوطني خمسة أيام . على الرغم من أنَّ لدى كل واحد منا شعوراً داخلياً بالساعات والدقائق المنقضية . إلا أن هذا

الشعور غير مستقر، إذ إنه يعتمد على الحالة النفسية للشخص . ولما كنت مستعجلاً لانقضاء هذه الأيام الخمسة، فلقد شعرت بمرورها كأنها خمسة أسابيع .

في مساء يوم العيد الوطني، وصلت إلى محل لبيع البيتزا، ودفعت له ثمن بيتزا كبيرة، وطلبت منه أن يضعها في علبتها الكرتونية، ويلصق عليها ورقة ملونة قدمتها له، وقد كتبت عليها : عيد وطني سعيد . وأعطيته العنوان ليوصلها إلى بيت العجوز . بدأت أراقب الولد الذي يعمل على توصيل الطلبات . بعد أن أخذ طلب البيتزا الذي دفعت ثمنه . وبينما هو يهمُّ بركوب دراجته النارية . اقتربت منه قائلاً: "الشخص الذي ستوصل إليه هذه البيتزا . متقاعد مريض وفقير . فقل له هذه هدية من مطعم البيتزا بمناسبة العيد الوطني، لكي تجبر بخاطره"، وأخرجت من كيس معي قطعة من اللحمة الحمراء . متابعاً حديثي: "أعطها لهذا المسكين ليطعمها لكلبه" . وقبل أن يجاوبني دسست في يده خمسة آلاف ليرة سورية، لأقدم له عرضاً لا يمكنه رفضه .

انقضت ليلة العيد الوطني على خير وسلام، ولأول مرة منذ فترة طويلة . غرقت في عشر ساعات من النوم العميق . في المساء حاولت أن أترقب ظهور جارنا العجوز، وهو يتمشى مع كلبه كعادته في كل مساء . لكنه لم يظهر في تلك الليلة .

في اليوم التالي لما عدت من وظيفتي بعد الظهر، لاحظت أن أمي مكتئبة وحزينة . وفهمت أن جارنا العجوز أبو محمود الذي يعيش في الملحق قد مات . فسألت أمي بلهفة: "وماذا حدث لكلبه الأعور" . فنظرت إليّ باستعجاب ." أيُّ كلب ؟ أبو محمود يعيش بمفرده في بيته، منذ وفاة زوجته ياسمين، قبل سنتين ! وليس عنده أي كلب" .

❖ ❖ ❖

شبح امرأة

بينما أنا نائم، أحسست بوزن جسم خفيف على طرف السرير، توقعت أن حفيدي الصغير شعر بالخوف من الأصوات التي يتخيّل أنه يسمعها في غرفته، فجاء لينام بجانبي كعادته في كثير من الأحيان . رفعت اللحاف بحنان ووضعته على جسمه، لأتأكد من أنه يغطيه بشكل كامل . فلاحظت أنه ليس هناك شيء بجانبي . لم أعط الموضوع أهمية، فأنا بنتيجة تقدمي بالسن، أصبح نومي خفيفاً متقطعاً، نظراً لرغبتي المتكررة بالتبول في أثناء الليل . وغالباً ما تأتيني أحلام قصيرة مبعثرة وغير مترابطة، في أثناء نومي، لكني لاحظت بأن ما شعرت به، لم يكن حلماً . تكرر المنام نفسه على مدار الليالي المتتالية، وفي إحدى المرات تشجعت، ومددت يدي ولمسته، فأحسست بوجود جسم بارد حقيقي بجانبي . ابتلعت هذه القصة، ولم أخبر أحداً بها خوفاً من اتهامي بالخرف نتيجة لتقدمي بالعمر .

بدأت أشعر مع الأيام أن هذا الشبح أصبح نزيلاً في بيتنا، وبدأ يلازمني باستمرار، وفي إحدى الليالي، أحسست أنه بجانبي في الفراش، وأحسست بأنفاسه تدغدغ رقبتي، فتملكتني الجرأة وسألته عن اسمه، لدهشتي أجابتني بصوت نسائي واضح، بدا لي مألوفاً، بلكنته الشامية "أنا عمتك خيرية" . فأدركت بلحظتها أنها عمتي فعلاً، والتي توفيت منذ حوالي سنتين بمرض السرطان . فتابعت حديثي : "لماذا تحاولين التواصل معي" ؟ فأجابتني : "إنها جاءت لتحذرني من كارثة ستصيب العالم" . فسألتها من جديد : "هل تستطيعين قراءة الغيب" ؟ فقالت : "أستغفر الله، الغيب لله وحده" .

وتابعت حديثها : لكن عندما تخرج الروح من الجسد، تصبح لها إمكانيات فريدة . فتصبح قادرة على الرؤية البعيدة التي لا تحدها

حدود البصر العادية، وتسمع بشكل غير عادي، أحاديث البشر التي تجري وراء الجدران الكاتمة للأسرار . فمثلاً عندما يخطط ضابط كبير في الجيش، لتنفيذ عملية عسكرية بتاريخ معين، فهذه الخطة تصبح خبراً معروفاً، بالنسبة له ولمساعديه وللأرواح والجن، لكنها تبقى مخفية بعالم الغيب، بالنسبة للأشخاص العاديين .

شعرت بالذهول من هذا الكلام، فتابعت حديثها : إن استمرار أميركا في طبع الدولارات دون غطاء من الذهب أو العملات الأجنبية، وهذا ما تفعله أوروبا أيضاً بطبع اليورو، والصين بطبع اليوان، سيؤدي بالنهاية إلى تضخم اقتصادي رهيب بالعالم، وسيقوده حتماً إلى الانهيار المالي .

لن يكون أمام حكومات العالم لتحافظ على بقائها، سوى أن تفاجئ سكان الأرض بحرب ذرية مدمرة، تنتهي بتخفيف عدد سكان العالم . لقد فشلت الحكومات منذ فترة قريبة بتخفيض عدد سكان الكوكب الأزرق، بنشر فيروسات اصطناعية بين أفراده، ولم يعد أمامها الآن سوى هذه الطريقة القاسية لإنقاذ الكرة الأرضية، لقد تكاثر البشر بأعداد هائلة خلال القرن الماضي، وأخذوا يستنفدون موارد الأرض المحدودة بطريقة جشعة غير معقولة .

الله وحده يعرف أعداد بلايين البشر الذين سيموتون في هذه الحرب العالمية الثالثة . من الطبيعي أن هناك بعض المناطق مثل الجزر النائية التي لن تتأثر كثيراً بهذه الضربة، لا يمكن لأحد أن يتكهن بموعد الضربة الذرية، لكن الاستعدادات في أميركا تجري على قدم وساق للتحضير لها، وأتخيل أنها قد تكون بتاريخ ٩ -٩ - ٢٠٢٥ . فمجموع أرقام هذا العام الميلادي، هي تسعة أيضاً، ما يجعل الأرقام الثلاثة هي نفسها، والرقم تسعة أشد أسماء العدد غموضاً، وأصعبها معنى .

أخذت أفكر جدياً بهذا الموضوع، وتذكرت قول الثعلب السياسي كسينجر : "إن طبول الحرب العالمية الثالثة تقرع، والأطرش هو الوحيد الذي لا يستطيع سماعها، وأنا متأكد بأنه حين تقوم الحرب العالمية الثالثة، فستلجأ الحكومات في بادئ الأمر إلى اتخاذ إجراءات صارمة للمحافظة على الأمن والنظام، لكن عندما تنقطع الموارد الغذائية، ويموت الملايين من الأطفال، وتصبح الحكومات والشركات عاجزة عن دفع رواتب موظفيها . فسيضطر الناس لإيجاد طرق أخرى لإغاثة عائلاتهم . فتبدأ الجماهير بالتحرك للبحث عن الطعام، وتجد نفسها مجبورة على حمل السلاح، لتحصل بواسطة القوة على حاجتها من الطعام، فينهار النظام وتعمُّ الفوضى، ويبدأ الزعران بفرض سيطرتهم على المدن، وقتل الرجال واغتصاب النساء، وتهجير العائلات وهدر كرامة البشر . وستقود هذه الكوارث الناس للشعور بالحاجة لوجود قوة مركزية توقف هذه الفوضى، وبالتالي إلى حتمية ظهور حكومة عالمية موحدة، تستلم زمام الأمور، وتحظى بموافقة جميع البشر .

تابعت حديثها : ربما يبقى أملكم الوحيد، لتلافي هذه المصيبة، هو أن تقنع ابنك، بأن يقوم ببيع جميع ممتلكاتكم والهجرة إلى جزيرة صغيرة في بحر الكاريبي، لأن هذه الجزر لن تتأثر كثيراً بالقنابل الذرية وبالإشعاعات الناتجة عنها، حيث تقوم حالياً معظم حكومات هذه الجزر بإعطائك جنسيتها، بمجرد قيامك بشراء عقار فيها، يزيد سعره على مبلغ معين، حددته سلطات الجزيرة، لجلب الاستثمارات الأجنبية إليها .

هالني هذا التحليل المنهجي، للتضخم المالي من عمتي خيرية، فأنا أعرف بأنها غير مثقفة، وبالكاد تعرف أن تكتب اسمها، فسألت الشبح عن سنة تولد أخيها الأصغر، والذي هو والدي، فلم أسمع منها جواباً، اختفى الشبح بلحظتها، فأيقنت أنه إما أن يكون

قريبها، أو ربما أنه جنيٌ ذكي، قد تقمّص شخصيتها . حاولت أن أتناسى الموضوع، وحمدت الله على أنني لم أفاتح أحداً من عائلتي بهذا الحديث، لكيلا يشكّوا بقواي العقلية .

مضى على هذه الحادثة حتى الآن، أكثر من سبعة أشهر، وأنا مازلت عندما أستيقظ في كل صباح، أهرع مباشرةً إلى التلفزيون، وأبدأ بتقليب القنوات باحثاً عن خبر خطير، ثم أجلس وحيداً في غرفتي، أعد الأيام المتبقية حتى تاريخ ٩ -٩ - ٢٠٢٥ . لقد تكوّن في داخلي إحساس مفرط ، بأن ما سمعته، لم يكن مجرد حلم أو هلوسة، وأنا أرجو الله دائماً، ألا تكون هذه الرؤيا، التي عشتها بأدق تفاصيلها صحيحة، خشيةً على أولادي وأحفادي من هذه الكارثة .

❖ ❖ ❖

نهاية غير متوقعة

عندما زرته البارحة بعد الظهر في مستشفى الزهراء كانت حالته سيئة، وهو ملقى على السرير، وعيناه جاحظتان، وصدره يعلو ويهبط في أنفاس قصيرة متقطعة . الجو في الغرفة معتمٌ كئيبٌ، يبعث على الإحباط . لقد استشرى داء السرطان برئتيه، وتوقع الطبيب أنه لن يعيش حتى الصباح . بينما هو يحتضر، أشار إليَّ بأصبعه، فتقدمت منه، فهمس بأذني : "لا تخف لن أموت بهذه الليلة، فهناك من سيساعدني لكي أشفى من السرطان"، فهززت برأسي موافقاً . لأجبر بخاطره، ولإعطائه نوعاً من الأمل . تابع حديثه مشيراً برأسه إلى ظرف مغلق موجود على الطاولة بجانب السرير : "لقد تركت لك فيه رسالة، تشرح كل شيء" . فهززت رأسي شفقةً عليه، وأنا أسمع تلك الغرغرة المخيفة في حلقه، ولا أدري كيف استطاع أن يتكلم، وأن يميّزني ليخبرني بخطّته .

حين وصلت إلى منزلي فتحت الرسالة بلهفة فقرأت فيها : كما تعرف هناك حضارات بشرية ذكية متطورة خارج كوكبنا . في مجرتنا درب التبانة يوجد أكثر من مئة مليار كوكب، ومن بينها الكوكب الأزرق، وفيه حضارة فضائية متقدمة تقنياً عنا بآلاف السنين .

لقد اتصلت بوساطة التركيز الكامل، مستخدماً الأمواج التي يبثها دماغي، بطريقة التخاطر العقلي لنقل أفكاري مباشرة عبر الأثير، إلى أحد مخلوقاته الفضائية بالكوكب الأزرق، وطلبت منه مساعدتي . فأنا رجل فقير، وأعيل أربعة أولاد وزوجتي . لقد وعدني بأنهم سيرسلون في هذه الليلة فريقاً طبياً لمساعدتي . وأرجو أن أتمكن من اجتياز هذه الليلة من أجل أولادي، فشعرت بنوع متناقض من الخوف والاطمئنان في الوقت نفسه .

اليوم الجمعة والساعة السادسة والنصف . استيقظت صباحاً على رنين الهاتف، لتخبرني زوجة صديقي، بأنه قد فارق الحياة منذ ساعة، أخذت تاكسي واتجهت إلى بيتها، واصطحبتها معي إلى المستشفى بغية استصدار وثيقة بوفاته والحصول على الموافقة لدفنه . بعد وصولنا، طلبت زوجته أن تلقي نظرة وداع أخيرة على جثة زوجها . فأجابنا المسؤول في المشرحة، بأننا بحاجة إلى موافقة الطبيب .

وبينما نحن جالسان مع الطبيب في مكتبه ندردش حول المرحوم، التفت إليَّ مضطرباً وسألني: "فيما إذا كان المرحوم قد أجرى عملية منذ فترة قصيرة لصدره في أميركا" . فالتفتت إليه زوجته قائلة : "بأنه موظف صغير في الدائرة العقارية، ولم يغادر لبنان طوال حياته . وازداد اضطراب الدكتور وظهرت علامات التوتر على وجهه، وتابع حديثه : في حوالي الساعة الخامسة صباحاً، أيقظني الممرض وقال لي : "إن المرحوم يلفظ أنفاسه الأخيرة"، وعندما وصلت إليه كان قلبه قد توقف عن الخفقان، وغاب عن الحياة . حاولت إنعاش قلبه لإعادته إلى الحياة . وفي أثناء ذلك لاحظت لأول مرة وجود شق طولي ناعم على طول صدره، كأنّ أشعة الليزر استُخدمتْ في فتحه، كما أنني لم ألاحظ وجود أي آثار لخياطة الجرح، فاستنتجت بأن مواد لاصقة طبية قد استخدمت للصق الجرح، وكنت قد قرأت في إحدى المجلات الطبية عن مواد بروتينية يتم تحفيزها بوساطة الأمواج فوق البنفسجية، تستعمل في بعض العمليات الخاصة للصق الجروح في أميركا .

ازدادت دهشتنا من هذا الكلام، لكنه تابع حديثه : عندما وصل العاملان المكلفان بنقل جثته إلى المشرحة، وجدا السرير فارغاً والجثة غير موجودة فيه، فاستدعياني إلى الغرفة . أول ما دخلت فوجئت بثوب المستشفى الأبيض الذي كان يرتديه ملقى بجانب

الخزانة، ولما فتحت خزانة الملابس لم أجد البدلة التي كان يرتديها قبل دخوله المستشفى، فخطر على بالي بأنه كما يحدث في قليل من الحالات، بأن قلبه بعد أن توقف لعدة دقائق، قد عاد إلى الخفقان من جديد، فعاد من موته المؤقت إلى الحياة، فقام من سريره، ولبس ملابسه وخرج من باب المستشفى، من دون أن يلفت أي انتباه . لكنني عندما نظرت إلى الطاولة بجانب السرير وجدت بعض الأغراض، فاحتفظت بها .

نزلت فوراً إلى قسم الأشعة، لأتأكد من صور الأشعة السينية التي كان قد تمَّ تصويرها لرئتيه، لكنني لم أجدها، فطلبت من الموظف أن يعطيني إضبارته الطبية، ولكنها اختفت أيضاً، فخطر لي بما أن جميع عمليات دخول وخروج المرضى من المستشفى تتم من خلال برامج الكومبيوتر، فطلبت من موظف الكومبيوتر أن يدقق في اسمه، لكنه لم يجد اسمه مدرجاً في نظام كومبيوتر المستشفى .

أخرج من درج مكتبه ساعةً وخاتم زواج ومحفظة وأعطاها إلى زوجته، لكي تتأكد فيما إذا كانت تعود لزوجها . أخذت تتفحص أغراضه بشغف، وهي تحبس دموعها . ولما فتحت محفظته لاحظت بأن الصورة التي تجمعهما مع أولادهما الأربعة والتي لا تفارق محفظته أبداً غير موجودة، على الرغم من وجود بطاقته الشخصية ومبلغ الخمسين دولاراً فانفجرتْ في البكاء .

قام الطبيب من وراء مكتبه، وربت بيده على كتفها ليهدئها قائلاً : "بأنه سيتصل فوراً بالشرطة الجنائية، وهو متأكد بأنهم سيجدون زوجها خلال أيام"، فأومأتُ برأسي إلى الأرض، محاولاً أن أخفي مشاعر السعادة، والابتسامة التي انطبعت على وجهي .

❖ ❖ ❖

أشياء لا تُنسى

لم أعد أتذكر، متى شاهدته معها للمرة الأولى، لكني أعتقد أن ذلك كان في مطعم "بلس هاوس"، القريب من مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، حيث أعمل طبيباً مقيماً في قسم الجراحة فيها . كانت جالسةً معه على الطاولة المنزوية في زاوية المطعم، ولطالما كنت دائماً معجباً بها، منذ أيام الدراسة .

إنها نحيفة وقصيرة، ولها وجه طفولي بريء ناعم جذاب، وشاءت الظروف أن نجتمع معاً بمستشفى الجامعة، حيث إنها طبيبة مقيمة في قسم الأشعة . حاولت عدة مرات التقرّب منها ولفت انتباهها، لكني فشلت في ذلك، وبقيت علاقتنا رسمية وسطحية . شعرت بالحسد الشديد وأنا أنظر في وجه هذا الرجل الوسيم، وهو يبادلها نظرات الإعجاب، فشعرت بأني أقل مرتبة منه، ما خلق لديَّ شعوراً بالبغض والكراهية نحوه .

لقد كانت فتاة ذكية وقوية الشخصية، ولا أدري ماذا شدّها إلى هذا الرجل الوسيم، ربما لتلفت أنظار عائلتها إليها، ولتتباهى به أمام صديقاتها، أو لعلها شعرت بانجذاب جنسي نحوه، أو ربما لتقنع نفسها، بأن فوزها بهذا الرجل الفاتن، يعود لكونها امرأة مميزة، ولتغطي إحساسها الداخلي بالنقص، لكونها ليست على قدر كبير من الأنوثة الصارخة، أما أنا فبرأيي الشخصي، إن الدخول في علاقة عاطفية ليس له علاقة بالشكل أو بالصوت، بل له علاقة بالرائحة، والتي تحدث بشكل تلقائي من دون أن نلحظ ذلك، ولعلي اخترت هذه النظرية العلمية، لأبرر لنفسي لماذا فضلته عليَّ .

حدث ذلك في ليلة السبت، ومن عادتي أن أكون طبيباً مناوباً في تلك الليلة، لأني من قرية بعيدة عن بيروت، وليس عندي مكان لأقضي السهرة فيه، على عكس أغلبية الأطباء . بينما أنا وراء مكتبي

رنَّ جرس الهاتف، وأخبرني موظف الاستعلامات بأن الدكتورة لميس تريد أن تتكلم معي، في بادئ الأمر لم أستوعب ما قاله الموظف، ولكني عندما سمعت صوتها الذي أستطيع أن أميزه من بين جميع أصوات نساء العالم فهمت ذلك .

بصوت تشوبه بحة بكاء، أخبرتني بأن خطيبها تعرض لحادث سير خطير، وعندما جلبوه إلى قسم الإسعاف بالمستشفى، فإن موظف الاستعلامات يصر على أن يدفع المرافقون له مبلغ أربعة آلاف دولار، كتأمين قبل دخوله قسم الطوارئ، وإنها لا تملك هذا المبلغ بهذه اللحظة، وتود أن أقرضها إياه وستعيده لي . أخذت المصعد، ونزلت إلى مكتب الاستعلامات، لقد أدركت بمرارة أن علاقتها قد تطورت مع هذا الشخص البغيض، حتى انتهت بالخطبة، اعترتني رغبة قوية في أن أقول لها، بأني لا أملك هذا المبلغ، لكن عندما وصلت مكتب الاستعلامات وشاهدتني، لمعت عيناها بدموع محبوسة، وركضت نحوي واحتضنتني متصوّرة أنني جئت لإنقاذها .

تَنشّقتُ رائحة بشرتها الناعمة التي تفوح منها رائحة أزهار الليمون، فبدت أكثر جاذبية وإثارة من أي وقت مضى، ولم أجد نفسي إلا وأنا أخرج الماستر كريديت كارد من محفظتي وأدفع أربعة الآلاف دولار . بعدها جرى إدخال خطيبها إلى المستشفى، وتم نقله إلى غرفة العمليات الجراحية، لتحضيره بسرعة، لإجراء العملية . بما أنني كنت مناوباً بتلك الليلة، فلقد استدعاني الجراح الاختصاصي لمساعدته في غرفة العمليات . نظرت إلى جسمه الممدد على طاولة العمليات تحت ضوء المصباح الساطع، وبصعوبة بالغة تعرفت على وجهه الوسيم، بسبب الكدمات السوداء التي تغطيه بالكامل، كان المريض في حالة غيبوبة تامة، فلقد تعرض لنزيف حاد، وتوجد آثار انثقاب رئوي نتيجة للحادث، إنها محاولة يائسة على الجراح أن يقوم بها لمحاولة إنقاذه .

عمل شقاً وسط صدر المريض خلال عظم الصدر، وقصّ العضلات الوربية وفتح غشاء الرئة، فتجمدت يداه عن متابعة العملية، لقد اكتشف أن للمريض أربع رئات، كل رئة مزودة بشريان يتصل مباشرة بالقلب، فأدرك أن هذا المخلوق ليس إنساناً عادياً، لكنه سيطر على أعصابه، وطلب من الجميع مغادرة غرفة العمليات، ما عدا مساعده وطبيب التخدير، وبينما أنا أهمُّ بمغادرة الغرفة مع بقية أعضاء الطاقم الجراحي، أومأ لي الطبيب الجراح بأن أبقى معهم بالغرفة . بعد فترة قصيرة فارق المريض الحياة، فغادر الطبيب الجراح الغرفة على عجل، بعد أن طلب من مساعده أن يبقي الجرح مفتوحاً ونظيفاً، ولقد قمت بمساعدته على ذلك، كنت مذهولاً من هذا المنظر، ولم أستطع أن أستوعب ما شاهدته عيناي .

بعد حوالي نصف ساعة عاد الجراح ومعه مدير المستشفى، وتأكد بعينيه من وضع الرئات، ثم تحدث معنا نحن الذين بقينا في غرفة العمليات، وأخبرنا بأنه من المعلوم للهيئات المسؤولة، أن هناك أشخاصاً فضائيين يعيشون بين سكان الكرة الأرضية، وتملك هذه المخلوقات القدرة على أن تتشكل خارجياً بشكل البشر العاديين، وأن الحكومات والمؤسسات تعمل جاهدة على كشف هذه المخلوقات المندسة بيننا، وطلب منا عدم الإفصاح عن هذه المعلومة لأي شخص مهما كان، حتى لا يسيطر الذّعر على البشرية، فتتأثر الحياة اليومية لجميع الناس، كما أن انتشار الخبر سيفسد الخطط السرية، التي تقوم بها الحكومات والمؤسسات المسؤولة لاحتواء هذا الخطر .

بعد أن انتهى من حديثه خطر على بالي أن أسأله عن الكوكب الذي جاءت منه هذه المخلوقات، ولكنني لم أملك الجرأة، لذلك قررت على الأقل، أن أستغل الموقف، فسألته عن مصير أربعة الآلاف دولار التي دفعتها لتأمين دخول المخلوق الفضائي للمستشفى، لأنني

كنت متأكداً بأنه من الصعوبة عليّ تحصيل هذا المبلغ بعد وفاته، بلطافة شديدة أجابني: "لا توجد أي مشكلة، راجع رئيس الأطباء الجراحين" . فاعتبرت جوابه نوعاً من الرشوة لشراء سكوتي عن الموضوع .

فعلاً باليوم التالي ذهبت لمقابلة رئيس الجراحين، وقبل دخولي مكتبه أخبرني سكرتيره بأن الشك بأربعة الآلاف دولار جاهز باسمي في قسم المالية، فرجعت أدراجي مباشرةً إلى محاسب المالية واستلمت الشك، لأني فعلاً كنت بحاجة ماسة إلى هذا المبلغ، نظراً لسفري بعد ثلاثة أسابيع للالتحاق بجامعة ميتشغان في أميركا، حيث إني كنت قد حصلت على منحة دراسية فيها، لإتمام تخصصي في الجراحة العامة .

بعدها لم أسمع أي خبر من لميس، ولم تتصل معي بالهاتف، وتصورت بأنها تناست الموضوع، لكيلا تدفع أربعة الآلاف دولار، إذ فجأة يرن الجوال، وأسمع صوتها ببحته المميزة، بدأت مكالمتها بالاعتذار عن تأخرها بالاتصال، وأنها انتظرت حتى تمكنت من تأمين أربعة الآلاف دولار، أثار استغرابي أن صوتها كان عادياً، لا تشوبه أي نبرة للحزن، ما أثار في نفسي أحاسيس متناقضة بين الفرح والخوف، واتفقنا على أن نتناول الغداء باليوم التالي في مطعم "بلس هاوس" القريب من مكان عملنا .

أول ما جلسنا على الطاولة، قدمت لها العزاء بوفاة صديقها، لم يبدُ على وجهها آثار التعاسة والضيق، فدفعني فضولي لسؤالها، عن موضوع خطبتها للمرحوم، فأجابتني وهي تبتسم بدلال "ليس تماماً"، فعرفت أنها تتهرب من سؤالي، فحاولت أن أقنع نفسي بأنها تخطت نزوة عابرة قد عاشتها، ولعلها تفكر الآن في بدايات جديدة . أخرجت من حقيبتها شكاً قائلة: هذا هو المبلغ الذي اقترضته منك،

والشك صادر عن زوج عمتي، فرفضت أخذه، فعادت لتلح عليّ من جديد، ولكي أحسم النقاش نهائياً، أخذت الشك ومزقته إلى قطعتين وأعدته لها قائلاً: "إني سآخذ الشك في المستقبل وليس الآن" . وأخبرتها بأني مسافر إلى أميركا بعد حوالي أسبوعين، لأتابع تخصصي في الجراحة العامة، وشجعتها على أن تفكر بالسفر إلى أميركا لمتابعة تخصصها، ولا سيما أنها طبيبة ناجحة وذكية، وعدتها بأني سأحاول مساعدتها للقدوم إلى جامعة ميتشغان . أمضينا أكثر من ساعتين ندردش فيهما، مرتا علينا وكأنهما دقيقتان .

بالنهاية نهضت واحتضنتني وهي تودعني، فشممت رائحتها الممزوجة بعطر خشب السنديان، بشكل يختلف كلياً عن رائحتها في المرة السابقة، فحرّكت في داخلي كل رغباتي الجنسية المكبوتة نحوها، فتأكدت بأن رائحة جسد المرأة يتأثر بنوعية الأجواء التي تتواجد فيها، وتابعتها بنظراتي وهي خارجة من باب المطعم، لتختفي تماماً بين أرتال المارة على الرصيف .

❖ ❖ ❖

الجحيم الآن

في ليلة باردة، من ليالي شهر ديسمبر، كان الشرطي جالساً بمخفر قرية فقرا السياحية الواقعة على قمة جبل كسروان والمطلة على سفوح تلة صنين، يشرب الشاي ويتذكر أيام الماضي، ثم استرسل في تأملاته، محاولاً أن يتوقع ما ينتظره بهذه القرية في المستقبل، مترقباً بفارغ الصبر طلوع الشمس، لتنتهي فترة مناوبته . إذ فجأة تتوقف سيارة تكسي، وينزل منها رجلٌ مرتدياً بيجامة النوم، يبدو عليه الاضطراب الشديد، ويدلف مسرعاً إلى داخل المخفر .

سأله الرجل عن الضابط المسؤول بالمخفر، فنظر إلى جواله، فوجد الساعة تقارب الرابعة صباحاً، فطلب منه أن يعود بعد حوالي خمس ساعات، حيث من المفروض حضور الملازم الأول في ذلك الوقت، لكن الرجل كان مرعوباً لدرجة كبيرة، مما قد يفكر فيه الشرطي، لو علم بحالته النفسية، وهو يروي له قصته، وسيعتقد بأنه مختلٌ عقلياً، أو على الأقل أنه لن يصدقه . اعترف الرجل بأنه عاجز عن مغادرة المخفر، لأن هناك ثلاثة أشخاص يلاحقونه لقتله، وأصرَّ على البقاء بالمخفر حتى وصول الملازم الأول . قدم الشرطي كوباً من الشاي للرجل قائلاً: "شكلك تعبان على الآخر، اشرب الشاي الساخن لتستعيد قواك"، فهزَّ الشاب رأسه بالإيجاب، وبعد أن شعر بالاطمئنان بدأ يسرد قصته:

عند وصولي البارحة إلى مطار بيروت، كانت الساعة الثانية بعد الظهر، توقعت أن أجد أبي في انتظاري بالمطار، ولاسيما أني غبت عن البيت ثمانية أشهر، حيث كنت أعمل مدرساً للغة الإنكليزية في إحدى ثانويات مدينة جدة بالسعودية، فانتابني القلق من عدم وجود أحد بانتظاري . حاولت أن أتخلص من الأفكار السلبية التي راودتني عن صحة والدتي المريضة بالسرطان، وألا أدعها تسيطر على

تفكيري، وتعكر مزاجي الجيد الذي أشعر به وأنا أطأ أرض الوطن .

أخذت تكسي، واتجهت إلى قريتي فقرا، عندما وصلت إلى البيت، فتح أبي الباب، كان هناك شيء غير طبيعي يحيط به، على الرغم من أنه ضمني بقوة، وبدأ يسألني عن أحوالي وأخباري، وقامت أمي بنشاط من أمام شاشة التلفزيون السوداء، والصوت مازال مسموعاً بلغة بدت لي غير مألوفة، وركضت نحوي وهي بصحة ممتازة، تحتضنني ودموع الفرح في عينيها . سألتها عن أختي؟ فأجابتني بأنها في غرفتها تذاكر دروسها، فاندفعت بسرعة إلى غرفتها يسوقني الشوق إليها . عندما فتحت الباب وجدتها جالسةً وراء الكومبيوتر، فاستغربت من ذلك! فعندما تركتها لم يكن عندها كومبيوتر، ولم يكن عندها الخبرة في استخدامه، فقامت من وراء الشاشة وعانقتني بقوة، وهي تبتسم ابتسامة غريبة، خطر لي أنها مصطنعة .

أكثر ما لفت انتباهي في هذه اللحظات أنني لم أجد كلبي الجرمان شيبرد موجوداً لاستقبالي، لما سألت عنه أختي أجابتني: "إنه خرج في ذات يوم من البيت، ولم يعد"، كان هذا الجواب غير منطقي بالنسبة لي، فأنا أعرف كلبي، وأعرف مقدار إخلاصه لعائلتنا، فتقبلت جوابها عَلى مضض، لكيلا أفسد فرحتنا العائلية .

عندما جلسنا للعشاء، كان طعم البيض الذي أعددته أمي مختلفاً عن طعمه السابق الذي اعتدت عليه خلال العشرين سنة الماضية، لقد استخدمت أمي الزبدة في هذه المرة لقلي البيض، مع أنها تعرف جيداً أنني أكره البيض المقلي بالزبدة . لم أعلق على هذا الموضوع، لكيلا أفسد بهجة الجلوس حول المائدة، لكنني شعرت بأن الأمور ليست على ما يرام .

بعد الانتهاء من العشاء، ذهبت إلى غرفتي لأنام باكراً، فلقد كنت مجهداً من السفر، وضعت رأسي على المخدة، ولم تغمض عيناي،

كنت خائفاً من الخلود للنوم، دخل عقلي في مخاوف لا تتناسب مع الواقع الذي أعيش فيه، لقد شعرت بالرعب من أفراد عائلتي . في حوالي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، نظرت من ثقب صغير كنت قد حفرته، عندما كنت مراهقاً، في الجدار الذي يفصل غرفتي عن غرفة نوم والديَّ، كنت في تلك الأيام استخدمه لأتأكد من أنهما نائمان، قبل أن أهرب من نافذتي للذهاب والسهر مع أصدقائي في أحد الفنادق المنتشرة بكثرة في فقرا، ولقد اعتدت على أن أثبت قطعة خشبية في داخل هذا الثقب، حتى لا يكتشف أحدٌ وجوده .

سحبت العود الخشبي من الجدار، فهالني المنظر الذي شاهدته، كانت العتمة مسيطرة بالكامل على الغرفة، بالكاد وبصعوبة تبينت شكل مخلوقين تركيبهما يشبه تركيب أجسامنا لحد بعيد، ولكنهما مضيئان بشكل غير عادي، وكأنهما مكونان من سائل لامع من البلازما لا يمكن وصفه، مغطى بلون رمادي لا يدوم طويلاً، فهو غير ثابت، ويتغير باستمرار من برتقالي إلى أصفر، ثم يعود إلى لونه الأول .

أحسست بدوار مفاجئ وبصعوبة في التنفس، ولم أعرف كيف تمالكت نفسي، وأعدت العود الخشبي إلى مكانه في ثقب الحائط، ثم فتحت نافذة غرفتي، وانطلقت إلى الخارج، وأنا بملابس النوم، بعد أن أخذت معي محفظتي وجواز سفري، وركضت باتجاه ساحة القرية . تذكرت في أثناء ذلك مشهداً قديماً من أحد الأفلام السينمائية الأميركية، حيث يقوم المخلوق الفضائي بسحب دم رجل من سكان الأرض، ويحقنه في نفسه، لكي تساعده الجينات البشرية على تقمُّص شخصية وشكل ذلك الرجل، هذه هي خطة الكائنات الفضائية للسيطرة على الكرة الأرضية، ركبت أول تكسي صادفته في طريقي، وأنا أرتعش من الخوف، واتجهت إلى المخفر .

سأله الشرطي وهو يتمعن النظر في عينيه: "هل أخبرت سائق التاكسي بالمخلوقات الفضائية"؟ فأجابه بالنفي، لأنه لم يثق به! وكان مرتاباً بأنه قد يكون واحداً منهم . ثم كرر الشرطي سؤاله مرة ثانية، ليفهم منه فيما إذا أخبر شخصاً آخر بهذا الموضوع، فأكد له الرجل، أنه لم يخبر أحداً، فهزَّ الشرطي رأسه: "إن ما عشته مجرد كابوس، كان حلماً مخيفاً شاهدته وأنت نائم، وقد انقضى إلى غير رجعة"، لكن الرجل عاد من جديد، ليؤكد ويقسم بأن ما شاهده كان منظراً حقيقياً، لا جدال فيه" . حينئذٍ قال الشرطي: "إذاً سأدخلك إلى غرفة الضابط المكلف بالمناوبة لهذه الليلة، لتكتب محضر ضبط بالحادثة" .

تقدم الشرطي ثم فتح له باب الغرفة، عند دخوله المكتب، وجد شخصاً، لم يستطع تمييز ملامحه، يجلس على الكرسي الجلدي الفاره، خلف طاولة خشبية سوداء فخمة، وجهه باتجاه النافذة المقابلة، وظهره إلى الباب . حين اقترب منه، سمع صوت إغلاق الباب وراءه، ثم حركة القفل، حينها أدار هذا الشخص المجهول الكرسي، بحيث أصبح مواجهاً له، فقابل مخلوقاً رمادياً من سائل لامع من البلازما، نسخة طبق الأصل عن المخلوقين اللذين شاهدهما قبل ساعات في بيته . انتابته نوبة من الهلع، وبدأ قلبه يخفق بقوة، وشعر بقطرات العرق الباردة تنساب فوق جبينه، فالتفت إلى ورائه، ليجد الشرطي خلفه، وعلى وجهه ابتسامة صفراوية مصطنعة، ذكرته بالابتسامة التي شاهدها على وجه أخته .

❖ ❖ ❖

الطابق الخامس والعشرون

لم يشعر إلا وجسمه يهوي من شرفة شقته في الطابق الخامس والعشرين، التي كان قد انتقل إليها مع زوجته منذ أسبوعين .

للوهلة الأولى أحسَّ بنفسه وكأنه معلّقٌ في الهواء، ثم فجأة بدأ يندفع بسرعة كبيرة نحو الأسفل، منذ البداية ومن شدة خوفه تصوّر أن قلبه قد توقف عن الخفقان، وأنه على أبواب الدخول في مرحلة فقدان الوعي . بعجلة تراءت له علاقته القوية بربِّه، وإيمانه بأنه سيغفر له خطاياه، ويدخله الجنة، ليتخيَّل بعدها أن جميع الأمراض المزمنة التي يعانيها، ومشكلاته المادية كافة قد أصبحت الآن خلفه، فانتابته حالةٌ من الارتياح، لم يكن قد عرفها إلا في أيام طفولته الأولى، لقد تحققت في هذه اللحظة جميع رغباته المكبوتة .

أخذت الخيالات تمرُّ سريعاً، كشريط سينمائي أمام عينيه، فتداخلت صورة ابنه الوحيد مع ملامح والديه وإخوته، ثم هيمن على عينيه بالنهاية بشكل قاتم شبحُ زوجته وهي تدفعه من حافة البلكونة .

وقبل أن يصطدم بسطح السيارة المركونة إلى جانب مدخل البناء بأقل من عدة سنتيمترات، استيقظ مذعوراً من نومه، ليتخطَّى ذلك الكابوس الذي عاشه، بسبب خليط هذه المشاعر المتضاربة والمتناقضة التي تعشِّشُ في رأسه، ولو أنه قد تأخر لجزءٍ من الثانية عن الاستيقاظ، لكان فعلاً قد ارتطم بسطح سقف السيارة، ومات بالسكتة القلبية نتيجة لشعوره الحقيقي، من شدة هذا الارتطام .

التفت مذعوراً بعد نهاية الكابوس إلى يساره، ليجد زوجته السمينة ما زالت مستلقيةً إلى جانبه على الفراش، نائمةً بهدوء وهي تشخر بصوت مزعج ومتقطع . أصبح من المستحيل أن يعود إلى

النوم من جديد، انسحب إلى غرفة الجلوس، وهو يشعر بالإرهاق والكراهية تجاه هذه المرأة البدينة .

جلس على الكنبة وأخرج من علبة خشبية بجانبه ورقة رقيقة للسجائر، وضعها على الطاولة أمامه، خلط التبغ مع كمية قليلة من الحشيشة اللبنانية، وزّعها بالتساوي على طول الورقة ثم لفَّها، فحصل على سيجارته المفضلة . إنه يتلذّذ كثيراً بلفّ سيجارة الحشيشة . أشعلها واستنشق دخانها بعمق ونفثه، فبدأ يستمتع بمشاهدة سحابة الدخان وهي تصعد في الهواء على شكل حلقات، فأخذ نفساً ثانياً ونفخ الدخان بقوة، فاندفعت هذه الحلقات اللولبية إلى الأعلى لتتداخل مع بعضها بعضاً .

إنّ أفضل أوقات يومه هو منتصف الليل، حين تهدأ الضوضاء، فيشعل سيجارته، وينطلق في أحلامه، ليصيغ عالمه من جديد . أخذ يتصور بأن جميع مشكلاته ابتدأت بعد زواجه من هذه المرأة التي كانت صديقة لأخته، ولعل الدافع الوحيد لزواجه منها تلك الشقة الصغيرة في الطابق الخامس والعشرين، والتي ورثتها عن أمها . إنه يكنُ كراهية لا يعرف سببها لتلك المخلوقة، لقد خطر له عدة مرات بأن يطلقها، لكن معاشه الذي يتقاضاه من وظيفته كمراقب فني في وزارة الأشغال العامة، لا يكاد يكفيه لاستئجار شقة متواضعة، ولطالما فكّر مراراً بأن يتخلص منها بدفعها من بلكونة الشقة، لكنه يدرك بأعماقه بأنه رجل ضعيف وجبان وغير قادر على تنفيذ ذلك . بتلك اللحظة أحسّ بحقد على أخته التي كانت سبباً في هذه الزيجة، وانتابته أيضاً كراهية عميقة لجميع الأشخاص الذين يعرفهم، تمنى لو تقوم الحرب العالمية الثالثة، وتستخدم فيها القنابل الذرية لتقضي على هذا الجنس البشري الذي لا يستحق الحياة .

مضت ساعات وهو جالس بسكون يجترّ هذه الأحلام، فجأة قطع شريط تخيلاته صوت زوجته الأجشّ: "يعلى عيونك قاعد عم تحشّش، قوم حضّر حالك، صار وقت ذهابك لشغلك" . في هذه اللحظات لم يكن لديه الرغبة في أداء أي عمل، وليس عنده القدرة على التركيز، لكن خوفه من زوجته دفعه إلى غسل وجهه وارتداء ملابسه بسرعة، لكي يبتعد عنها منطلقاً إلى وظيفته .

فتح باب الشقة، واتجه بعجلة نحو المصعد، كبس الزر المخصّص لاستدعاء الهبوط، لم يحدث شيء، ولم تضئ الإشارة لتدل على أن المصعد في طريقه إليه، كما لو أن الكهرباء كانت مفصولة تماماً، فشعر برهبة، فضغط الزر من جديد أكثر من مرة، ظناً منه بأن المصعد سيأتي بسرعة، وقف ينتظر بخوف وصول الكابينة، بالنهاية انفتح باب المصعد، فتنفس الصعداء، واندفع بلهفة إلى داخله، لم تكن الكابينة على مستوى أرضية الطابق، حيث إنها كانت موجودة في ذلك الوقت في بئر المصعد، ربما نتيجةً للإهمال في الصيانة، فهوى من الطابق الخامس والعشرين إلى حفرة المصعد ليلاقي مصيره، مستسلماً لقدره دون أدنى مقاومة .

❖ ❖ ❖

الطبال

لم يعد يذكر متى سمع للمرة الأولى صوت الطنين في رأسه، كان على شكل صفير مستمر، لم يبالِ به في أول الأمر، إلا أن وتيرة هذا الرنين بدأت تتزايد مع مرور الوقت، وبدأت ترافقها أنواع أخرى من الضوضاء والأصوات العشوائية، ما جعل صدى الصرير يرتفع لدرجة أصبح يعيقه عن النوم، فأخذ يشكو من التعب المستمر والإرهاق الدائم . رفض أن يعترف بأنها حالة مرضية، وعليه أن يراجع طبيباً مختصاً في علاج أمراض واضطرابات الأذن . بدأ ذهنه يحاول أن يهرب من تفسير هذه الظاهرة، فلجأ إلى خياله لإشباع رغباته المكبوتة في هوس العظمة وحبِّ الظهور، فعلل هذه الأصوات الغامضة، على أنها شيفرة خاصة تأتيه من سكان العالم الثاني، لتنير له ولأتباعه الطريق في هذا العالم المعتم .

كان وسيم يعيش مع والده وأخته في قرية الدفنة في جبل لبنان، ويعمل بدوام جزئي عند والده الذي يملك دكاناً صغيرة لبيع الفواكه والخضراوات بالقرية . تحت تأثير الضائقة الاقتصادية، كان لا بد له من البحث عن وظيفة ثانية لتساعد عائلته على التعايش مع الغلاء . لقد أحبَّ الموسيقا منذ صغره، وكان يُبهر الجميع بعزفه على الطبلة في الحفلات العائلية، سنحت له الفرصة، ليظهر موهبته، ولينضم إلى فرقة موسيقية محترفة في بيروت، تؤدي الأغاني القريبة من الناس، على طريقة الروك العربي، حيث تتسم موسيقا المجموعة بالألحان الغربية كخلفية لها، محتضنةً بالوقت نفسه الأغاني العربية الشهيرة، لجذب أكبر عدد من الناس إلى حفلات الأعراس غير المكلفة، التي تقام في بيروت أو القرى المجاورة لها . كانت المجموعة مؤلفة من ثلاثة رجال وأختين داليدا ولينا، اللتين تؤديان

الأغاني الشبابية بأصوات مقبولة، فهناك فرح في رنة صوتيهما، يعطي البهجة للحضور، كاسراً قساوة الظروف الصعبة التي يمرّ بها لبنان .

كان شكل داليدا الأخت الكبرى تحت الوسط، أما لينا فكانت بنتاً جميلة تفوح منها رائحة الأنوثة غير الناضجة، التي تجدها في البنات المراهقات، فحام حولها جميع أفراد الفرقة .

تحت تأثير الكبت الجنسي الذي يلازم وسيم، والذي ازدادت ضراوته، بسب طبيعة علاقة العمل التي تجمعه مع الأختين، تصور بأنه من الأسهل عليه إقامة علاقة عاطفية مع داليدا، ولاسيما أنه لاحظ بالفترة الأخيرة، أنها تلاطفه وتهتمّ لأمره، وتظهر له مقدرتها على تفهّم معاناته النفسية، فازداد تعلقاً بها . وبسرعة غير معقولة فاتحها بموضوع الخطبة، محاولاً الهروب إلى الأمام، وتخطّي الواقع المرير الذي يحيط به، فوافقت على الفور، لأنها تدرك بغريزتها، بأنه من الصعوبة على فتاة بجمالها أن تحصل على عريس في هذه الأوقات .

في البداية عارض والدها فكرة زواجها من وسيم، فلقد كان بالنسبة له شخصية معقدة، لا يستطيع فهمها، وكلما نظر إلى وجهه الميّت دون أي تعابير، ازداد نفوراً منه، وعلى الرغم من محاولات ابنته المستميتة لإقناعه بأن وسيم شخص شفاف، يحمل رسالة إنسانية، فإن مشاعره نحوه لم تتغير .

بمرور الوقت بدأت داليدا تقتنع فعلاً، بأن خطيبها يحمل قدرات غيبية، يستمدها من الرسائل المشفرة التي تصله من مخلوقات العالم الثاني، بدأت تروِّج لأصدقائها ومعارفها عن الرسالة التي يحملها خطيبها لإنقاذ البشرية، ما شجع وسيم على التمادي في أحلامه، وكان قد قرأ في إحدى الجرائد بأن حرباً عالمية ثالثة ستنفجر قريباً

بسب أوكرانيا، فسارع للتنبؤ لمن حوله، بأن حرباً ذرية ستقع قريباً في الشرق الأوسط، وأن كثيراً من الناس سيموتون فيها، ما عدا الذين يؤمنون برسالته، هذه الأقوال جعلت منه مسخرةً أمام أعضاء فرقته الموسيقية وجميع معارفه، فشعرت خطيبته بالشفقة عليه، وازداد حبها له .

كثر تردد وسيم بالفترة الأخيرة، على بيت خطيبته داليدا، وكان كلما شاهد أختها الصغرى بملابسها المنزلية الخفيفة، ازداد تعلقاً بها، بدأ يطلق العنان لأحلامه الجنسية نحوها، وتخيل بأنه يقيم علاقات جنسية معها لا أساس لها في الواقع، حتى جاءته الفرصة أخيراً، عندما ذهب لزيارة خطيبته، فتحت له لينا الباب، ودعته بشكل طبيعي إلى الدخول لكي ينتظر أختها، ليجد نفسه وحيداً معها . حاول أن يقنع نفسه بأن غريزته الجنسية نحوها شيء طبيعي، لا دخل لظروفه بها، لذا لا بأس من أن يطلق العنان لهذه الغريزة التي كانت تتآكله كالنار من الداخل . إن الكبت الجنسي الذي يعاني منه، هو خلف كل ما أصابه من اضطرابات نفسية، نتيجة للأحاسيس المتناقضة التي تنتابه منذ أيام طفولته، ما كاد يجلس على الكنبة، حتى لاحظت بخبرتها، علامات الإثارة الجنسية التي ظهرت على وجهه، لقد ظهر لمعان واضح في عينيه، وهو ينظر بشهوانية إلى صدرها، أخذ يتكلم بصوت خافت مبدياً إعجابه بها .

خطر لها أن تذهب إلى غرفة نومها بسرعة، وتدخلها وتقفل الباب عليها، بحيث سيكون من الصعب عليه أن يكسر الباب الخشبي ليدخل إلى غرفتها، فتسللت بهدوء باتجاه الغرفة، وعندما دخلت إلى الغرفة سمعت خطواته خلفها، حاولت أن تستدير وتعود بشكل طبيعي إلى غرفة الجلوس، لكنه أمسك بيدها بقوة وجرها نحو الفراش . كانت منذ البداية لا تستلطفه، أما الآن فلقد شعرت

بالكراهية والاشمئزاز منه . انقضَّ عليها كأنها فريسة، محاولاً خلع قميصها، فأخذت تقاومه مدافعة عن نفسها، وبدأت تصرخ لكي تلفت انتباه الجيران، ليحضروا لمساعدتها . من شدة خوفه أطبق بيده على فمها ليوقف الصريخ، فعضّت خنصره الصغير بقواطعها حتى كادت تقطعه، فنزف الدم بغزارة من يده، ما زاد من إثارته الجنسية، فانطلق مستوى الهرمونات في جسمه، حتى بلغ حداً لم يعد بإمكانه السيطرة عليه، فقرر لا شعورياً الاستمرار بعملية اغتصابها، وتحول إلى حيوان هائج كل همّه إشباع غريزته الجنسية منها، متصرفاً بجنون غير عابئ بنتيجة أفعاله . أطبق براحة يديه بقوة على عنقها، وبدأ يضغط عليه ليمنعها من المقاومة، فتوقفت عن الحركة، واستسلمت له من شدة خوفها، لقد شاهدت ظلال الموت بعينيها، بعد أن انتهى منها، نظر إليها فوجدها نائمة لا تتحرك، فانتابه شعور متأخر بالذنب والندم .

أشعل سيجارته، وجلس على الكنبة في غرفة الجلوس، يفكر كيف عليه أن يتخلص من هذه الجثة بسرعة، فخطيبته أو أبوها قد يحضر أحدهما إلى البيت في أي لحظة، الحلّ الوحيد أمامه أن يشعل حريقاً في البيت ليخفي جسدها ومعالم الجريمة التي ارتكبها، ذهب إلى المطبخ، وتفقد أسطوانة الغاز فوجدها نصف ممتلئة، إنها الحل الوحيد أمامه . فتح الصمام إلى آخره، ثم مفاتيح البوتوغاز الأربعة، فبدأ الغاز برائحته البشعة التي تشبه رائحة البيض الفاسد ينتشر في أنحاء البيت، يجب عليه أن ينتظر حتى يملأ الغاز أنحاء البيت كله، قبل أن يشعل النار لكي يحترق كل ما في البيت، ومعه جسد لينا، حتى لا يكتشف الطبيب الشرعي بأنها قد خُنقت واغتُصبت . أخذ شمعة وجدها في المطبخ، وأشعلها ووضعها في زاوية غرفة النوم، متخيلاً أنه بعد دقائق سيتسرب الغاز إلى غرفة نومها،

وحينها سينفجر مزيج الغاز مع الأسطوانة ليحرق البيت بأكمله .

غادر المنزل مسرعاً، ووقف أمام الباب الخارجي الذي لم يغلقه بشكل كامل، ينتظر سماع دوي الانفجار، مضت أكثر من عشر دقائق، ولم يحدث شيء، فدخل إلى البيت من جديد، ذهب إلى أسطوانة الغاز ليتفقدها فوجدها مغلقة، ففسر ذلك بأنها إشارة من مخلوقات العالم الثاني، فاتجه مباشرة إلى غرفة النوم، وبينما هو ينظر إلى الفراش، باحثاً عن جسد لينا، إذ يحسُّ بأن جسماً ثقيلاً يهوي على رأسه، فاعتراه ألم عارم، تلاه شعور بالضعف والاستسلام، والرغبة في النوم، ففسر ذلك على أنها إشارة ثانية من السماء .

بعدها سمع أصواتاً، وشاهد خيالات غريبة لم يستطع استيعابها، وكأنه شاهد شبح لينا التي قام باغتصابها يقف على مسافة قريبة منه، ودَّ لو أنه يستطيع أن يتكلم معها، ويشرح لها مقدار حبه لها، وأن يعتذر منها على فعلته، لكنه أحس بشخصين يحملانه على نقالة بعيداً عنها إلى خارج بيت يشبه في ملامحه بيت خطيبته داليدا، ثم وضعوه في داخل سيارة إسعاف تشبه في شكلها إلى حدَّ بعيد سيارات الإسعاف المستخدمة في لبنان، فتأكد بأن الحياة في العالم الثاني لا تختلف كثيراً عن الحياة التي نعيشها حالياً على وجه الأرض .

بينما كان المرض يقوم بوضع قناع الأوكسجين على وجهه، وهو ممدد في سيارة الإسعاف، التفت إليه قائلاً: لقد عرفتك، إنك أنت الشخص الذي كنت ترسل لي الرسائل المشفرة بشكل أزيز صوتي، من العالم الثاني .

❖ ❖ ❖

الموت يقرع الباب

ليس هناك شيء واحد في هذا العالم يمكن أن يخيفه أكثر من حضور شبح الموت . لذا دأب على الابتعاد عن التفكير فيه، ساعدته على ذلك صحته الجيدة، وعدم تقدمه في العمر . مع كل هذا، فإن صورة الموت كانت دائماً حاضرة في ذهنه، ولطالما حاول أن يخفي ذكريات الذعر المكبوتة في أعماقه، نتيجةً لنشأته في بيئة محافظة، تؤمن بأن الرجولة تقضي بعدم إظهار العواطف، إلا أن الخوف ظلَّ مهيمناً عليه، من خلال التأثيرات اللاواعية المتراكمة في عقله الباطن، ما أدى إلى انعكاسها، على سلوكه وعلاقاته العاطفية مع الآخرين . حاول أن يقنع نفسه باستمرار، بأن من الصعب على الموت أن يأتي لزيارته، وهو في صحة ممتازة وثراء فاحش .

كان يحلو له أن يصف الأشخاص الذين يقدمون على الانتحار، بأنهم جبناء مذعورون من الموت، لدرجة أنه لم تعد لديهم القدرة على انتظاره، فيسرعون بالذهاب إليه بأنفسهم . بالمقابل فإن غريزة الخوف من الفناء المتأصلة فيه، دفعته للتركيز على الاستمتاع بمظاهر الحياة اليومية السطحية المتوافرة للأغنياء، فانغمس في حياة الرفاهية والتسلية، والتمتع بممارسة العلاقات الجنسية، مع أكبر عدد ممكن من النساء، ليتناسى الهاجس الذي استحوذ على تفكيره وتصرفاته طوال حياته .

أخيراً أدرك الحقيقة على صوت حبات التراب وهي تنهال على جسده، لترتطم بقماش كفنه الأبيض، وهو مستلقٍ في الحفرة الضيقة تحت الأرض، محاطاً بأهله المجتمعين حول قبره، يتلقون التعازي بوفاته، وها هو يسمع صوت ابنه الكبير، الذي يميزه من بين

كل أصوات العالم، يردُ على المعزِّين بصوت حزين تغالبه الدموع، ما دفعه للشفقة على ذاته . بعد قليل خفّت الضوضاء، وها هو صدى الأصوات يأتي من بعيد، ليخبره بأن الجموع تركته وحيداً ورحلت عنه . القبر يضغط عليه بشدة، ولا يشعر بالراحة فيه . كان بودِّه لو أن حفار القبور قد وسَّعه قليلاً . الوقت يمر ببطءٍ، أخذ يفكر إلى متى يمكن أن يستمر هذا الشعور بالانتظار .

فجأة ظهر أمامه مخلوقان أسودان أزرقان، شكلهما مرعب يقطع الأنفاس، عيونهما مثل قدور النحاس، فيها بريق أصفر يخطف الأبصار، ولهما أنياب طويلة مثل قرون الظباء، لونها أخضر غامق، تبرز من فميهما المتلئين بالنار، سحنتهما بشعة ومقرفة لدرجة لا يمكن وصفها، وزاد من خوفه بأنهما بدأا يتكلمان معه بلغته المحلية، بصوت عالٍ له دويّ، يشبه صوت الرعد الهادر، فانتابت جسده رعشة مستمرة، لم يعد باستطاعته السيطرة عليها .

سأله الأول: "من ربُّك"؟ كان شكل فمه المتلئ باللهب، وصرير صوته الحاد مرعباً، ثم أحسَّ بصفير شديد يرن في أذنيه . منظرٌ تقشعرُ منه الأبدان، فأحسَّ بأنه يعيش لحظات الاحتضار من جديد . فقد رشده، وتخيَّل من شدة الرهبة، بأن أفضل طريقة لإرضائه واتقاء شره، هو مسايرته فأجابه: "أنت"، فلم تظهر على وجه هذا المخلوق أيّ آثار أو انطباعات تدل عن رضاه، وتابع سؤاله: "من نبيُّك"؟ فازداد خوفه، ودخل في نوبة من الهلع، فالتفت إلى المخلوق المجاور وأشار برأسه إليه: "هذا" . لقد تصوّر بأنه بهذه الرشوة، ربما قد يحصل على رضا شريكه الآخر، ما قد يسهم في تحسين وضعه . نظر من جديد إلى وجه الثاني، فلم تبدُ عليه أي تعابير للسرور! لقد احتار الآن، فيما يجب عليه أن يفعل! ليرضي هذين المخلوقين المرعبين . إذ يُفاجأ بالسؤال: "ما دينك"؟ حينها انهار كليّاً، ولم يعد

باستطاعته أن يستمر، وشعر بأنه قد انتهى، وأن قلبه قد توقف فعلياً عن الخفقان، ليسمع صوت ابنه ينقذه قائلاً: "بابا قمْ صار وقت السحور، لم يبقَ على طلوع الفجر إلا ربع ساعة" . نهض من الفراش وهو يحمد ربه على أنه كان مجرد كابوس، وقد انقضى، لكن من بعد الآن، عليه أن يعيد تفكيره جدياً، بموضوع الموت، وأن يستعدَّ له، فقد يأتي في أيٍّ لحظة .

❖ ❖ ❖

إنذار من الفيسبوك

مرحباً نوال

بعد مراجعة حساب فيسبوك الخاص

بك نوال كرم، تمَّ الآن تقييد

صلاحية وصول الحساب إلى

الإعلانات بسبب استخدام سلوك

زائف

أو انتهاكات لسياسة الإعلانات أو

إرشادات المجتمع المتبعة لدينا .

تمَّ الآن تعطيل أي إعلانات قيد

التشغيل مرتبطة بحساب فيسبوك

هذا .

في البداية لم تستوعب هذه الرسالة، خطر لها أن هناك خطأً باسمها، ثم عاودت التفكير، فشركة فيسبوك اختصاصية عملاقة لا يمكنها الوقوع في مثل هذه الأغلاط، لكنها متأكدة بالوقت نفسه بأنها لا تملك حساباً في أي بنك، ولا تملك كريديت كارد، فتذكرت خالها الثري الذي يعيش في الأرجنتين، إنها بحاجة لأن تشعر بأنها ذات قيمة، وتنتمي إلى الطبقة الغنية في بلدتها .

لقد نشأت في بيئة فقيرة، وتعرضت في صغرها للضغوط والحرمان، رغم أن هذه المشكلات قد انتهى عهدها منذ زمن طويل، إلا أنها ما زالت في داخلها، فحاولت أن تقنع نفسها، بأنّ خالها ربما قد فتح حساباً باسمها في البنك، ليستعمله من أجل تجارة مادة المتة التي يصدّرها إلى لبنان .

أرسلت رسالة إلى إدارة الفيسبوك، طالبة فيها تزويدها بالمعلومات عن الكريديت كارد الذي استُخدمِ في حسابها، لدهشتها بعد أربع ساعات استلمت رقم الكريديت كارد، الصادر عن بنك المشرق في بيروت . لم تعد تعرف ماذا تفعل، فهي مدرّسة للغة الفرنسية في ثانوية حكومية، تعيش مع أمها وأخيها العاطل عن العمل، وتساهم بقسم كبير من راتبها في مصاريف البيت، مخطوبة منذ فترة قصيرة إلى موظف يعمل محاسباً في البنك العقاري بالبلدة، لم يكن بودّها أن تطلع أهلها أو خطيبها على احتمال وجود رصيد باسمها بالبنك، حتى لا يحاولوا تشليحها إياه .

في اليوم التالي أخذت إجازة من مدرستها، ونزلت من بلدتها الصغيرة عبرا، قاطعة خمسين كيلومتراً، متجهة إلى بنك المشرق في بيروت . لم تكن تعرف رقم حسابها بالبنك، ولكيلا تلفت نظر الموظف إلى ذلك، بعد أن أظهرت له أوراقها الثبوتية، أخبرته بأنها تريد مقابلة معاون المدير، لأنها تفكر بتحويل حسابها الجاري إلى وديعة، فهي تدرك أن البنوك اللبنانية لا تملك سيولة نقدية كافية بهذه الأيام، وتمرّ بأزمة خطيرة، نظراً للفوائد العالية التي تدفعها للمودعين، ولو طالبت برقم حسابها، للكشف عن رصيدها لخلق الموظف لها ألف سبب وسبب ليمنعها من الوصول إليه .

في أثناء المقابلة اكتشفت أن رصيد حسابها الجاري حوالي أربعمئة وعشرين ألف دولار، فقامت بتحويله إلى وديعة، لا يمكن سحبها إلا بحضورها شخصياً، بفائدة تسعة بالمئة، تستحق الدفع بعد ستة أشهر . ثم عادت إلى بلدتها، لتنتظر الانفجار الكبير، فالشخص الذي يستخدم حسابها الجاري، عندما يعلم بتحويله إلى وديعة سيجنُّ جنونه، ويتصرف بطريقة غير متوقعة .

بعد يومين وبينما هي في مدرستها، اتصل بها خطيبها على

جوالها، وصوته متشبعٌ بالقلق: "هل نزلت البارحة إلى البنك في بيروت، وفتحت حساباً جديداً"؟ فأجابته نعم، فاطمأن باله، واتخذ صوته لهجة غير مكترثة، قائلاً: إن كل ما يفعله هو من أجل تأمين مستقبل أفضل لهما ولأطفالهما، وأصرَّ بوجوب مقابلتها في المساء في مطعم النوار، لأن هناك حديثاً خاصاً مهماً بينهما، يجب ألا يطّلع عليه أي إنسان .

عندما اجتمعا كرّر لها عبارة حبّه لها، وأنه على استعداد لأن يضحي بحياته من أجلها، وأن هذا الحساب يستعمله من أجل تبييض الأموال لأشخاص يعملون في تجارة الحشيش، وهو يستغل صفحتها على الفيسبوك للدعاية وللاتصال ببعض العملاء . ذكّرها بأن راتبه ستمئة دولار، ولولا هذه المخاطرة لما تمكّن من شراء سيارة جديدة لها، ولا تمكّن من شراء شاليه على البحر وسجلها باسمها، ذنبه الوحيد أنه يحاول أن يجعلها تعيش كملكة . فسألته باستغراب: "كيف تستطيع أن تفتح حساباً بالبنك باسمها"؟ فذكّرها أنه عندما سجّل الشاليه باسمها، وقعت بعض الأوراق المتعلقة بملكيتها، وكانت هناك ورقة مدسوسة بينهما لم تنتبه إليها، تضمنت توكيله بفتح رصيد باسمها في البنك، فأخذتها الدهشة، ولم تنبس بأي كلمة . اكتشفت بلحظتها الجانب المظلم لشخصيته المبنية على الخداع والأنانية، والتي طالما نجح في إخفائها عنها . ختم حديثه بأن عليها أن تعيد هذا المبلغ إلى أصحابه، ملوِّحاً بأنه سيضطر إلى استخدام العنف معها، لأن العصابة لو عرفت بالموضوع، فإنها لن تتهاون في قتله .

عليها غداً أن تذهب معه إلى بنك المشرق في بيروت، لتسجيل اسمه كمستفيد ثانٍ من الوديعة، وبعدها سيتدبر هو الأمر مع المصرف لحل هذا الموضوع . سألها فيما إذا كانت قد أخبرت أمها أو أخاها بالقصة، فأطرقت برأسها قليلاً ثم أجابته: "إنها أخبرت فقط

صديقها طارق"، لأنه نزل معها إلى بيروت، عندما ذهبت إلى البنك" . لم تتردّد في الكذب عليه، لأنها بدأت تتصور بأن خطوته الثانية، قد تكون التخلص منها لطمر الموضوع نهائياً، لكنه الآن بعد أن عرف بأن هناك شخصاً آخر على دراية به، فقد يتردد في ذلك . . فجأة ظهرت تعابير الغضب والاشمئزاز على وجهه، ولا سيما أنه يكره طارق منذ زمن بعيد، فهو مدرس للغة الفرنسية في مدرسة خطيبته نفسها، وكانت هناك شائعات بالبلدة، تغمز إلى أنه كان على علاقة غرامية بنوال . وظل دائماً يتساءل بسرّه كيف كانت تقبل على نفسها بأن تكون على علاقة عاطفية مع هذا القزم البشع الحقير .

بكل هدوء أخبرها بأن عليهما أن يتخلصا من طارق فوراً، فهو شخص حقود ثرثري وفقير، وسوف يستغل الموضوع، ويبدأ بابتزازهما باستمرار، وعندما ينتشر الخبر، فإن المجموعة التي يقوم بتبييض أموالها ستقتله لتغطية الفضيحة . ليس أمامها الآن أيّ خيار، إما أن تضحي به، أو تضحي بطارق، فغطّت في تفكير عميق، لتعيد ترتيب أفكارها، ثم هزت رأسها بالموافقة . لقد أتتها قوة داخلية رهيبة، انبعثت من شعورها بأنها تملك أربعمئة وعشرين ألف دولار، ولن يكون من السهل عليها أن تتنازل عنها .

أيقظت هذه الكلمات كراهيتها الكامنة المتواصلة في أعماقها لطارق، لقد استطاع أن يتلاعب بعواطفها، إلى درجة أنها استسلمت له طائعة مختارة، بعد أن وعدها بالزواج والأطفال، ثم هرب من وعوده واختفى من حياتها . لقد وضعت

نفسها في موقف لا تحسدها عليه أيّ فتاة، وخسرت احترامها لذاتها، لأنها مكّنت هذا الشاب القصير أن يتمتع بها، ويأخذ منها ما يريد .

في مساء اليوم التالي، بعد أن انتهت من العشاء مع أخيها وأمها، أخبرتهما بأنها تشعر بالتعب وأنها ذاهبة للنوم في غرفتها، طلبت من والدتها أن توقظها الساعة السابعة صباحاً . بعد أن دخلت غرفتها، أغلقت قفل الباب، وتسللت من النافذة إلى الحديقة الخلفية، ومشت بسكون إلى سيارتها المركونة على بعد حوالي خمسين متراً من بيتهم الريفي ذي الطابق الواحد،

حسب الموعد، توقفت بالقرب من محطة البنزين القريبة من بيتها، وصعد طارق إلى سيارتها الجيب، واتجها في طريق ترابي ضيق إلى المدافن الرومانية الواقعة في طرف البلدة . لقد اعتادا الذهاب إلى هذا المكان الموحش الذي لا يجرؤ الناس على الاقتراب منه في الليل، لممارسة الجنس في المقعد الخلفي من سيارتها . أوقفت السيارة في زاوية المقبرة، أطفأت المحرك وأنوار مصابيح السيارة، فأصبح الظلام داكناً، بحيث لم تعد ترى أمامها سوى بضعة أمتار، الوجوم يخيّم على المكان، لاحظ طارق أن حزناً لم يعتد رؤيته كان يرتسم على وجه نوال، وتساءل في سره، لماذا اختارت هذا التوقيت لمواعدته في هذا المكان المحمل بالذكريات، انتقلت مع طارق إلى المقعد الخلفي، أحسّ بأن وضعها غير طبيعي، كانت مرتبكة وقلقة، حاول أن يخلع قميصها فتمانعت بدلال مصطنع، وتوجس من تصرفاتها الغريبة مما سيأتي، من دون أن يعلم أنه لن يراها أبداً بعد تلك الليلة .

فجأة انفتح باب السيارة الخلفي، وشعر بيدٍ تشده بقوة خارج السيارة، كان الظلام حالكاً، من هول الصدمة استسلم من دون أي مقاومة، واعتقد أن الرجل يريد أن يسلبه نقوده، سمع صوتاً لرجل، لم يتبين ملامحه بسبب العتمة صارخاً: "أعراض الناس مو لعبة"، وضربه على رأسه بمطرقة حديدية صغيرة كانت جاهزة بيده، واستمر يضربه بوحشية مردداً: "أعراض الناس مو لعبة"، حتى سال

الدم من فمه، بينما كانت هي جالسة في المقعد الخلفي ترتعش من الرعب، وضعت أصابعها في أذنيها، لكيلا يصلها صوت حشرجة الموت، لتسمع بعدها خطيبها: "انزلي من السيارة بسرعة، وساعديني على الحفر، لحظّنا الجيد، التربة هنا رخوة" .

نزلت من السيارة، واقتربت نحوه، لم يميز من العتمة ماذا كانت تمسك في يدها، حتى شاهد فجأة وميضاً وسمع صوت طلقة نارية، أحس بعدها بألم شديد في صدره، لقد أدرك في لحظتها، بأن رصاصة قد اخترقت جسمه، حاول أن يقاوم السقوط على الأرض، لكن قدميه لم تعدا قادرتين على حمله، فهوى على الأرض وعيناه شاخصتان نحو الأعلى، كانت السماء السوداء تبدو بلا حدود، والنجوم تلمع بحدة بشكل لم يلاحظه من قبل، شاهدةً على رحيله عن هذا العالم .

أخذت المسدس من يدها ووضعته في يد عشيقها الميت، وضغطت بأصابعه بشدة عليه، لكي تنطبع بصماته على المسدس . تركت كل شيء خلفها كما هو وصعدت إلى سيارتها، شغلت المحرك متجهة إلى بيتها، فتحت نافذة السيارة، فشعرت بالهواء البارد المنعش يملأ رئتيها، وفكرت بمبلغ الأربعمئة وعشرين ألف دولار، فأحسّت بنشاط ونشوة لم تعهدهما من قبل، بعد أن ابتعدت قليلاً، خلعت القفاز البلاستيكي الذي كانت ترتديه في يدها، وألقت به من النافذة، وتابعت طريقها .

❖ ❖ ❖

رؤية خطيرة

خرج من منزل خطيبته غاضباً، وما كاد يهمُّ بنزول درج البناء، حتى لحقت به أم خطيبته وبيدها كيس صغير قديم من البلاستيك الأسود، وأعطته إياه قائلة: "مالك نصيب عنا، هي ذهباتك الله يهنيك فيهم"، ورجعت بسرعة مغلقةً الباب خلفها خوفاً من ردة فعله . كان في الكيس جميع الهدايا الذهبية التي قدمها لخطيبته . شعر في هذه اللحظة بأن هذه المرأة اللعينة، قد مسحت كرامته ببلاط الدرج، فأحس بازدياد ضربات قلبه وبرعشة مفاجئة خفيفة في جسمه . لم يكن بودِّه أن تتطور هذه الجلسة مع خطيبته سلمى وأهلها إلى هذا الحد . لقد كان يتوقع من سلمى أن تقف إلى جانبه خلال النقاش بسبب علاقة الحب التي تجمعهما، وكان موقناً بأن حبهما قادرٌ على أن يتخطى كل المشاكل المادية التي تخلقها له حماته .

فقد سيطرته على أعصابه، عندما قالت أم خطيبته في أثناء المناقشة، موجهة كلامها لابنتها: "اتركيه، هناك مئة طبيب ومهندس يتمنون صرمايتك"، فشعر بالإهانة، لكونه مدرساً للغة الفرنسية، فأجابها: "شو ناطرين"؟ فتطور مجرى الحديث لدرجة أن حماته بالنهاية طردته من المنزل . صفَّت سلمى إلى جانب أمها، ولم تدافع عن موقفه، فأدرك بلحظتها أن سلمى ما هي إلا صورة ذهنية رسمها في مخيلته عن بنت مثالية جميلة غير موجودة، والآن قد تمزقت هذه الصورة، وظهرت سلمى على حقيقتها .

بعد أن دخل غرفة نومه، شغَّل التلفزيون وأشعل سيجارته، وبدأ يحملق في حلقات الدخان وهي تتصاعد في هدوء نحو سقف الغرفة، وفي داخله عدة أصوات تتحدث في الوقت نفسه عن الحب والانتقام . لم يعد يجد لذة في تدخين السيجارة، ولا الاستمرار بهذه الحياة . شعر

بالعجز لعدم قدرته على التحكم بمصير علاقته بسلمى التي يجد فيها اللذة والسعادة، أخذ يلوم نفسه لأنه تسرع في مجابهة حماته السابقة، لقد تعرض خلال حياته إلى نوبات اكتئاب كثيرة، ما جعله يفقد ثقته بنفسه، أحس بأن قدرته على الاستمتاع بالحياة تتلاشى .

نظر بخوف إلى علبة الحبوب المهدئة للأعصاب الموجودة على الطاولة أمامه، والتي اشتراها من الصيدلية منذ يومين . رفعها بيده، وبدأ يقلبها بأصابعه بهلع، وهو مسترخٍ على الكنبة . إنها ما زالت مختومة، وفيها ثلاثون حبة، تصور أنه إذا بلع كل هذه الحبات مع كأس الماء الموجود بجانبه، فسيذهب في رحلة طويلة، بعيداً عن متاعب هذه الحياة التي لا تنتهي .

التقطت عيناه الفارغتان منظراً لمذيعة في نشرة أخبار التلفزيون المسائية، وهي في زيارة لمشفى بيروت الحكومي المكدس بالجرحى نتيجة للانفجار الضخم الذي حدث مساء البارحة في مرفأ بيروت، وأدى إلى أضرار كبيرة، لأنه ترافق مع موجة صادمة أدت إلى تهشيم الواجهات الزجاجية للمباني، فتطايرت قطع الزجاج في الهواء، وخلفت الآلاف من الجرحى والمشوهين . بطريقة غير مباشرة قارن وضعه مع هؤلاء الجرحى المساكين المددين في المشفى، فشعر أن عليه الامتنان للأشياء الجيدة التي يمتلكها في حياته، والنعم التي حصل عليها من دون مقابل .

لعل ذلك الشعور أيقظ الوازع الديني في أعماقه، ما جعله يتردد في الإقدام على أخذ الحبوب، إن فكرة الانتحار هي قمة التحدي لله الذي منَّ عليه بهذه الهدية، والآن بدأ يفكر في رفضها لأنها لم تعجبه، ويود أن يعيدها إلى صاحبها، إنه احتجاج صامت على تدابير الله، من أجل فتاة كانت توهمه منذ قليل بأنه فتى أحلامها، ولكنها بعد أن حصلت على عريس أفضل منه قد تخلت عنه، إن فكرة الانتحار قد تكون في

مفهومها أسوأ من عملية رفض إبليس للسجود لآدم، لأن الذي منع إبليس من ذلك هو التكبّر، وليس الاعتراض على قدر الله .

عندما وصل إلى هذه النتيجة، شعر بنوع من الارتياح، فحمد ربه على اكتشافه لحقيقة سلمى قبل أن يتزوجها . نهض عن الكنبة، واتجه مسرعاً باتجاه الصيدلية، لكي يصل إليها قبل أن تغلق أبوابها مع نهاية الدوام، ليعيد علبة الدواء، وليستعيد مبلغ عشرة آلاف وخمسمئة ليرة لبنانية من الصيدلي .

بينما هو في طريقه إلى الصيدلية، غارقاً في النشوة لرؤيته هذه الحقائق البعيدة، صدمته سيارة مسرعة وهو يقطع الشارع، فتسبب الحادث بإصابته بعدد من الكسور الخطيرة في أنحاء جسده، وتم نقله إلى مشفى بيروت الحكومي، وأجريت له عملية جراحية لجبر الكسور التي لحقت به، إلا أنه فارق الحياة بعد يومين متأثراً بإصابته البليغة .

❖ ❖ ❖

سأخبر الله عنكم

فتح عينيه بفتور شديد على صوتها الأجش: "قوم يخرب بيتك ما بتشبع نوم، تأخرت على شغلك" . كان الوقت باكراً في صبيحة ذلك اليوم من شهر يناير، والشمس تشرق للتو . شعر بأن أصابع قدميه قد تجمّدت من شدة البرد، فهذه البطانية الصغيرة الخفيفة بالكاد تكفي أن تغطي جسمه النحيل، لكنه مع كل هذا، فهو لا يستطيع أن يجابه زوجة أبيه . قام متثاقلاً من فرشته على الأرض، ونظر إلى أخيه الذي يصغره بأربعة أعوام، فما زال نائماً تحت بطانية واسعة وسميكة، ولم توقظه أمه حتى الآن، من أجل الذهاب إلى مدرسته .

جلس على الطاولة الصغيرة في المطبخ، وسكبت له زوجة أبيه كأساً من الشاي الساخن، وأعطته رغيفين مع قطعة صغيرة من الجبنة، فهذه ستكون وجبته الرئيسية لهذا اليوم . عليه أن يمشي الآن على قدميه لأكثر من ساعة، حتى يصل إلى تحت جسر الكولا في بيروت، حيث يفرد بسطته على الأرض، لينشر بضاعته من علب محارم الورق وعلب الكبريت عليها .

قبل مغادرته البيت، سلمته خالته عشرين علبة من المحارم ودرزينتين من علب الكبريت، وأكدت عليه ألا يعود إلى البيت قبل أن يبيع علب المحارم جميعها، مرددة بأن البيت ليس خاناً، وعليه أن يدفع ثمن إقامته ومصروفه . لكنها نسيت أن تقول هذا الكلام نفسه لابنها . إنه يشعر بكراهية غريبة تجاه هذه المخلوقة، ولقد امتدت هذه الكراهية إلى أبيه الذي أصبح شخصاً آخر، بعد أن توفيت أمه، وتزوج من هذه المرأة الشريرة، وأضحى كل همه إرضاءها، ما دفعه للحقد على أخيه الصغير أيضاً . لطالما فكّر أن يقوم في أثناء الليل، ويرش مادة الكاز بأرضية البيت، ويشعلها، ويحرقهم جميعاً . هذه الفكرة مازالت تراوده طوال الوقت، ولا يستطيع التخلص منها،

تغذيها الغيرة من أخيه، وغريزة الانتقام من أجل تحقيق العدالة، على الرغم من أن لحظات اللذة لهذه التخيلات لا تدوم طويلاً، إلا أنها تساعده على الاستمرار .

وصل إلى موقعه تحت جسر الكولا، بسط قطعة صغيرة من القماش على الأرض، وصفَّ عليها علب محارم الورق وعلب الكبريت . الساعة الآن السابعة صباحاً، وحركة السير ما زالت خفيفة، توقع أن يصل صديقه خالد بعد قليل، ليضع بسطته إلى جانبه، حيث يبيع علب المسكة الأجنبية وأكياس النايلون الصغيرة، لكنه عملياً، يقوم ببيع أكياس النايلون التي في داخلها مادة لاصقة من الغراء، مادة الشعلة، فيقوم بشرائها بعض الأطفال المشردين والعمال المياومين، لاستنشاقها على قارعة الطرقات أو في الحدائق العامة . وعادة ما يطلبون المزيد من رائحتها لتخدير أجسامهم المتعبة، للهروب من هذا الشقاء الذي لا ينتهي . لقد أعطاه صديقه خالد مرة كيساً صغيراً وجربها وشمَّها، إنها بديلٌ رخيصٌ عن المخدرات، ولكنها أكثر خطورة منها، وتؤدي بالنهاية إلى الإدمان، انتابه بعد شمِّها نوعٌ من النشاط والانتعاش، ولكنه سرعان ما اضمحل بعد وقت قليل، وعاودته الرغبة في شمِّ المزيد منها، لكن ليس لديه ما يكفي من النقود ليعتاد على شراء مادة الشعلة .

كان الجو بارداً، وضع قطعة كرتون كبيرة يحملها عادة مع بضاعته وتربع عليها، منتظراً أن يمرَّ زبونٌ عابرٌ ليشتري من بسطته، قاعداً غارقاً في أحلام اليقظة، سارحاً بتفكيره في الماضي، حول أمه التي تركته، وماتت منذ ست سنوات، محاولاً أن يصيغ هذه الهواجس بشكل خريطة لطريق قد يجمعه معها من جديد، فيخرجه من يومياته المثقلة بالفراغ . إن سوء معاملة زوجة أبيه شجعه على الانفصال عن هذا العالم القاسي المخيف .

لقد مضى الآن أكثر من ساعة ولم يحضر خالد، حاول أن يبعد عن تفكيره بأنه ربما كان مريضاً، أو أن عناصر من القوى الأمنية قد ألقت القبض عليه، لأنه يبيع مادة الشعلة، بعد قليل جاء سعيد، وهو ولد آخر يبيع الدخان على بسطة تحت الجسر أيضاً، فرش قطعة الكرتون على بعد عدة أمتار منه . ووضع عليها ثلاثة أنواع من علب الدخان المفتوحة، لأنه يبيع بالسيجارة الواحدة، وصفَّ إلى جانبها علب الكبريت، إنه لا يميل إلى هذا الشخص، ولعل تلك الكراهية تعود إلى علب الكبريت، التي خلقت بينهما عداوة كار .

الوقت يمضي بتمهّل، ربما بسبب شعوره بالملل . حتى الآن لم يبع ولا علبة محارم واحدة، بينما رأى أن سعيد قد مرَّ عليه أكثر من ستة أو سبعة زبائن، إنه يفكر أحياناً أن يترك بيع علب محارم الورق، وأن يبيع السجائر، فأرباحها مضمونة، وزبائنها كثيرون .

الوقت يمر ببطء أكثر من المعتاد، ولعل البرد القارس لا يشجع العالم على التسكع في الشوارع . السماء ملبدة بالغيوم الكثيفة والفضاء قاتمٌ، ينذر بموجة أخرى من الأمطار، إنه يكره الأمطار، لأنها تقلل من فرصه في بيع علب المحارم، كما أنها تدخل الكآبة إلى نفسه . حاول أن يقنع نفسه بأن الوقت مازال مبكراً، وبعد قليل ستمتلئ الساحة تحت الجسر بالمارة، وسيبيع عدداً من علب المحارم .

راقب بطرف عينه بسطة الدخان، فوجد أنها خالية الآن من الزبائن أيضاً، مرَّ بخاطره أن اليوم هو الأربعاء، وهو منحوس لأن أمه ماتت في هذا اليوم، سأل الصبي الجالس خلف بسطة الدخان فيما لو أنهما ينقلان بسطتهما إلى فوق الجسر، ويبيعان بضاعتهما على الرصيف، فعدد المارة هناك أكثر من هنا، لكن رفيقه أجابه بأنه ربما قد تمرّ على الجسر دورية للشرطة، فنضطر لترك البسطة للهروب منهم، فيستولي رجال الدورية على البضاعة، ويتقاسمونها فيما بينهم، فقررا البقاء في مكانهما المنعزل تحت جسر الكولا .

الآن قد مضى عليه أكثر من خمس ساعات، ولم يستفتح بليرة لبنانية واحدة، فأخذ يقنع نفسه من جديد بأن الطقس بدأ يتحسن، وبعد قليل سيزداد عدد المارة، وسيبيعهم علب محارم الورق، لكن الغيوم الرمادية الداكنة اللعينة مازالت تحجب الشمس، كانت قليلة عند الفجر، ولكنها آخذة في التكاثر مع مرور الوقت، ما دفعه إلى التشاؤم من جديد . أحسَّ بأن درجات الحرارة آخذة بالانخفاض، وبدأ يشعر ببعض الصعوبات في تحريك أصابع قدميه .

إنه يدرك أن بيع علب المحارم خارج عن سيطرته، وأن كل ما عليه هو الانتظار، فهذه المواقف الرتيبة تبطئ الوقت . بدأ يفكر جدياً بماذا سيقول لزوجة أبيه عندما يعود مساءً إلى البيت، وتمنَّى في هذه اللحظة لو أن أمه كانت موجودة لتستقبله عندما يفتح باب البيت .

لقد دخل وقت العصر، ولم يعد هناك أمل في أن يحضر خالد لمساعدته، وعليه أن يتدبر أمره بنفسه، لو كان خالد موجوداً لاشترى منه خمس أو ست علب من أجل مساعدته، وعندما تكون أحوال خالد جيدة فإنه يعطيه ألفي ليرة لبنانية لشراء ساندويشة فلافل في أثناء عودته إلى بيته . قطع تفكيره مشاهدة الصبي بائع بسطة الدخان، يلوّح له بيده مودعاً، لقد رصد بعينيه أن مبيعات السجائر لم تكن جيدة في هذا اليوم، لكن على الرغم من هذا، فإن صاحب البسطة عاد إلى منزله، لاشك أن أمه موجودة في البيت لتدافع عنه أمام أبيه .

الوقت يمضي، بدأت العتمة تخيّم على المكان، وتمددت الظلال تدريجياً تحت الجسر، لا أحد يجوب المكان، لقد أصبح من الخطر عليه أن يبقى وحيداً تحت الجسر، وقد يخطر لأي رجل كبير أن يهجم عليه ويأخذ بضاعته . لم يبع حتى الآن ولا علبة واحدة، ولم يعد باستطاعته أن يعود إلى بيته . حاول أن يقف، لكن قدمه

اليسرى لم تتحمل وزنه، فلقد كانت متجمدة من شدة البرد، خلع حذاءه، وحاول أن يدلك أصابع قدمه، لكنها مازالت متجمدة كالثلج، فشعر بالخوف، وبطريقة لا شعورية أخذ عود ثقاب من علبة الكبريت، وأشعل علبة محارم، ثم قرَّب قدمه منها، احترقت العلبة بكاملها بسرعة، ناشرة كمية صغيرة من الحرارة، فشعر ببعض الارتياح، لكن أصابع قدمه مازالت متجمدة، فأشعل علبة ثانية من محارم الورق، فساهمت الحرارة المنبعثة منها بتدفئة قدمه، فتمكن من تحريك أصابعه بصعوبة، لقد آن الأوان لمغادرة الموقع، فجمع بضاعته ولفَّها بقطعة القماش، وحمل قطعة الكرتون تحت إبطه، واتجه إلى فوق الجسر .

وضع بسطته على الرصيف فوق الجسر، وأخذ يراقب بحذر دوريات الشرطة، مازالت درجة الحرارة تنخفض مع قدوم الظلام، أحسَّ بالبرد يدخل إلى أعماقه فينخر عظامه، لكنه يعرف أنه من المستحيل أن يعود إلى البيت قبل أن يبيع على الأقل عشر علب من المحارم، للهروب من هذا البرد القارس . عاد لممارسة أحلام اليقظة، فتخيَّل أن أمه تجلس متربعةً إلى جانبه على الرصيف، وأصابع يدها تداعب خصلة شعره المتهدّلة على جبينه، فشعر بنوع من السعادة، وأحسَّ بالدفء ينساب في جسمه، إنه لن يدعها تتركه هذه المرة، وتذهب وحدها، لقد قرر أن يرافقها لكيلا يبقى وحيداً، لم تعد لديه القدرة على تحمّل الحياة .

قطع أحلامه فجأةً صوتُ أحد الشرطيين اللذين أصبحا أمامه: "ما بتعرف أن التبسيط بالشوارع ممنوع، تعال معنا إلى المخفر، والبضاعة مصادرة" . كان هدفهما تخويفه، لكي يركض هارباً، فيصادرا البضاعة، ليتقاسموها بينهما، لكنه لم يتحرك من مكانه، إن هذه العلب السخيفة أصبحت تمثل له الفرق بين الحياة والموت .

قام من مكانه، وحاول أن يضع البضاعة داخل قطعة القماش، لينسحب من على الرصيف بهدوء، لكن الشرطي قبض على يده، ومنعه من ذلك، فما كان منه إلا أن دفع يد الشرطي برفق، وحاول إكمال عمله . هنا صاح الشرطي: "كمان عمٍّ تعتدي على رجال الشرطة"، ولطمه بكفه على وجهه، وعلى الرغم من كل هذا الإحباط الذي يعيش فيه، قرر ألا يسمح للشرطي بأن يدوس على كرامته . لم يبقَ هناك شيء ليخسره، فلكم الشرطي بكل قوته على وجهه، باغتت اللكمة الشرطي، فانحنى إلى الوراء، وتعثرت قدماه، فوقع على الأرض، فما كان من شريكه الشرطي الآخر، إلا أن هجم على الولد الصغير كالمجنون صارخاً: "كمان عمٍّ تضرب رجال الأمن" . وبدأ يضربه ويرفسه برجليه، لم يستطع أحدٌ من المارة التدخل في هذه المعركة غير المتكافئة، وتمالك الشرطي الملقى على الأرض نفسه، ومن شدة شعوره بالإحراج أمام الناس المحيطين به، قام من مكانه، يملؤه الحقد، وقبضة يده اليمنى مشدودة مصراً على إيذائه، وبحركة سريعة سدّد لكمةً قويةً إلى وجه الصبي، فاختلَّ توازنه، وسقط من فوق جسر الكولا .

خلال فترة سقوطه من هذا الارتفاع الذي لا يزيد على ثمانية أمتار، شعر بسعادة كبيرة وهو يودع هذا العالم، الذي لم يعرف فيه إلا التعاسة، وهو الآن ذاهبٌ في طريقه لملاقاة أمه، وسيخبر الله عنهم .

❖ ❖ ❖

سهرة مشؤومة في فندق الكاريبيتول

على ما أذكر، كان ذلك في سهرة عيد رأس السنة الفائتة في فندق الكاريبيتول، تحت إصرار زوجتي العنيدة، حضرنا الحفلة، بدعوة من صاحب شركة ستاركول للألمنيوم، حيث تعمل زوجتي سكرتيرةً له، أنا أعرف أن طبيعة عملها تقتضي عليها بأن تقدم بعض التنازلات الخفيفة، من أجل مصلحة العمل، وللحصول على تعويضات إضافية مع راتبها في آخر الشهر، لكني شعرت بالامتعاض من فكرة لقاء هذا الرجل، فأنا لا أرتاح له، لأنني بطبيعتي شخص انطباعي، أحكم على الناس من النظرة الأولى، ولعل ذلك يعود إلى أن ذاكرتي تختزن في أعماقها منذ أيام الطفولة صورةً لصبيٍّ صغير كنت أكرهه، يشبه إلى حدٍّ كبير شكل هذا الرجل، أو لربما تأتي من خلف مشاعر الغيرة والحسد التي لا أريد أن أعترف بها .

كان زواجي مثل أكثر زيجات الشباب في هذه الأيام مبنياً على المصالح المتبادلة، فزوجتي تشاركني في مصروف البيت، بسبب سوء الأحوال الاقتصادية، ما أعطاها شعوراً بالاستقلال الذاتي، ودفعها إلى التمرد في كثير من الأحيان، كنّا نجبر أنفسنا على الاستمرار بالتساكن، من دون كثير من الحب والرومانسية، بعكس ما نشاهده في المسلسلات المصرية على التلفزيون، ونتمنى لو كان باستطاعتنا أن نعيشها، آملين بأن حضور الأولاد في المستقبل سيقوي الروابط بيننا .

جلسنا على الطاولة، وكنا ثمانية أشخاص، المدير صاحب الدعوة، وبجواره زوجته البدينة مرتدية فستاناً فاخراً، ظهرت عليه ماركة غوتشي الشهيرة، محاولةً لفت الأنظار إلى أناقتها، عوضاً عن جمالها، وجلست مقابلهما ابنتهما الوحيدة المدللة وزوجها الذي يعمل معاوناً لأبيها، ثم مدير الشؤون الإدارية في الشركة وزوجته

الشقراء اليافعة الجميلة، لقد فهمت من زوجتي مؤخراً، بأن الشقراء أصبحت عشيقة المدير، وأنها ستطلق زوجها لكي يتزوجها .

كنت جالساً أرتشف من شراب الويسكي المتوهّج في أسفل كأسي، برائحته المعتقة التي تذكرني برائحة المسك، منتشياً مستمتعاً بمراقبة هذا المجتمع الاستهلاكي المُتنمّر، والذي يعتقد بأنه سفير الحضارة الأوروبية في بلدنا .

قام المدير ورقص مع زوجته، كما رقصت الشقراء الجميلة مع زوجها، وبقيت أنا جالساً على الطاولة، أتلذذ بشرب قطرات الويسكي وأراقب الجميع . رجعوا إلى الطاولة بعد انتهاء الرقصة، وجدت نفسي مجبوراً لسماع أحاديثهم السخيفة، وحتى مشاركتهم فيها، بعد قليل عاد المدير إلى حلبة الرقص مع الصبية الحسناء زوجة مدير الشؤون الإدارية، وتمعنت النظر في زوجها، فبدا وقد لفّه الغضب، كأنه كلب مسعور تتطاير من عينيه شرار الحقد، لكنه ظلَّ جامداً في مكانه لا يتحرك .

الصالة مزدحمة بالطاولات، لكي تستوعب أكبر عدد ممكن من الأشخاص . كنت أسترق النظر إلى الطاولة المجاورة، حيث جلست سيدة جميلة، جذبت انتباهي، بدأت رقصتها الأولى مع زوجها، وتبعتها بالثانية مع أحد شباب شلتهم، وعادا أدراجهما بعد انتهاء الرقصة وهي مبتسمة . لا شك بأنه كان يمتدح جمالها، بهذا النوع من الكلمات التي تستمتع به كل نساء العالم، وشاهدته وهو يحاول أن يهمس في أذنها، فتمانعت بغنج ودلال، وابتعدت عنه، فما كان من زوجها إلا أن فقد أعصابه وقال: "إنك فعلاً رجل بلا أخلاق"، بصوت عالٍ سمعناه جميعاً، وتابع حديثه: "الحق عليّ لأني عملتك زلة، وعزمتك على طاولتي" . فقام الشاب ولكمه على وجهه، فتدخل بقية المدعوين الذين معه لتبييض الوجه، وقاموا بمهاجمة الشاب، ورمى أحدهم بزجاجة الشمبانيا على وجهه، فسال الدم من أنفه، وتعرض

المسكين للضرب الوحشي بالركل وتحطيم الصحون على رأسه، وبحركة جنونية للدفاع عن نفسه أخرج مسدسه، وأطلق ثلاث طلقات في الهواء بغية إخافة المهاجمين لإبعادهم عنه .

عندما سمع الحضور صوت الطلقات النارية، بدأت النساء بالصراخ، واندفع الناس مذعورين إلى الأبواب محاولين الخروج من الصالة، ساد هرج ومرج، وانقلبت بعض الطاولات والكراسي في أثناء ركض القطيع، لكن خلال بضع دقائق تدفق رجال أمن الفندق، وألقوا القبض على مطلق النار، واسترجعوا النظام، طلبوا من الموجودين أن يعودوا إلى طاولاتهم، وأن يستمتعوا بتتمة السهرة، وقامت الفرقة الموسيقية بعزف أغنية راقصة من جديد، لتخفيف احتقان الجو، وإعطاء الانطباع بأن الأمور كلها أصبحت على ما يرام .

عدنا مثل الآخرين إلى أماكننا، عندما وصلت إلى الطاولة، كان المدير قد سبقنا بالجلوس عليها في مكانه الأصلي بصدر الطاولة، لكن رأسه كان منحنياً إلى الأمام، لما وصلت زوجته إليه صرخت مولولةً، لقد شاهدت سكيناً مغروزة في أسفل رقبته من الخلف، وقد غطت رأسه الدماء، حينئذ أغلقت إدارة الفندق الأبواب، ومنعت جميع النازلين من مغادرة الفندق حتى حضور الشرطة الجنائية .

بعد حوالي نصف ساعة حضرت الشرطة الجنائية، وسألوا الأشخاص الجالسين على الطاولات المجاورة لطاولة القتيل بعض الأسئلة التقليدية، أخذوا أسماءنا، وطلبوا من جميع الجالسين على طاولتنا الحضور غداً في الساعة العاشرة صباحاً إلى قسم التحقيق الجنائي في شارع الحازمية، بعدها قام الطبيب الشرعي بمعاينة الجثة، وبالنهاية تم نقلها إلى المستشفى .

في اليوم التالي وفي الساعة العاشرة تماماً، وصلت أنا وزوجتي إلى قسم الشرطة الجنائية، فوجئت بوجود الأشخاص الخمسة الآخرين،

جالسين مطرقين في صالة الانتظار، بعدها جاء موظفان وأخذا بصمات اليد لكل واحد منا على حدة، لمقارنتها بالبصمات الموجودة على مقبض السكين التي قتلت المدير . بعد أكثر من ساعتين، جاء ملازم أول بالشرطة، وطلب من زوجتي والسيدة الشقراء الجميلة الانصراف، لعدم وجود مصلحة لديهما من وفاة المرحوم، وبحسب خبرتي فإن الهدف من إطالة فترة الانتظار هي للتلاعب بأعصاب الشهود، وزيادة الضغط النفسي عليهم .

بدأ التحقيق باستدعاء زوجة المرحوم إلى داخل غرفة المحقق، ليفاجئها بسؤاله عن علاقة زوجها بالسيدة زوجة مدير الشؤون الإدارية، وعن الشائعات التي تؤكد أنه ينوي تطليقها للزواج من عشيقته، أخذت بالبكاء، وأقسمت بابنتها الوحيدة، بأنها على الرغم من أعماله الدنيئة، فهي لم تفكر يوماً بقتله، لأنها ببساطة غير قادرة على القتل . فأحرجها المحقق بسؤاله، كيف تبررين وجود بصمة يدك على مقبض السكين، فزاد بكاؤها، وتوقع منها المحقق أن تنهار تحت هذا الشد العصبي وتعترف، لكنها ظلت مصرة على أنها لم تقتل زوجها . بعدها لم يجد المحقق بداً من الاعتراف بأن البصمات على السكين لا تعود لها، اعتذر منها، وطالبها بمغادرة المبنى من دون التكلم مع أي شخص في صالة الانتظار، بمن فيهم ابنتها وصهرها، وبالفعل رافقها الشرطي إلى خارج المبنى للتأكد من ذلك .

جاء دور ابنته، واتبع المحقق الأسلوب نفسه، بأنها المتهمة الأساسية بقتل أبيها، لأنها الوريث الأول للشركة، وهدفها منع أبيها من الزواج من عشيقته، وأن بصماتها على مقبض السكين أكبر دليل على ذلك، محاولاً أن يضعها تحت أكبر قدر ممكن من التوتر، لكي تفقد السيطرة على أعصابها، لكنها نفت ذلك ولم تنهر، بالنهاية اعتذر منها المحقق لوجود بعض الملابسات في دراسة البصمات،

وطلب منها أن تغادر المبنى، من دون أن تُطلعَ أحداً على مجرى التحقيق . ثم استدعى المحقق زوج ابنة القتيل، ووجّه إليه الكلام نفسه، متهماً إياه بأنه المستفيد الأساسي من موت عمه، ليصبح مديراً للشركة، وأخبره بأن بصماته موجودة، كدليل قطعي على مقبض السكينة، ليتراكم الضغط النفسي عليه، فيفقد توازنه، ويقر بارتكابه الجريمة، لكن على الرغم من كل ذلك، لم يعترف، ورفض الاتهامات الموجهة إليه بشدة، فلم يجد المحقق بداً من الاعتذار منه عن الخطأ الذي وقع في تحليل بصمات الأصابع، ثم طلب منه مغادرة المبنى .

بعدها جاء دور مدير الشؤون الإدارية، واتهمه المحقق، بأنه قتل المدير العام دفاعاً عن عرضه وشرفه، وأن هذا الدافع مقبول في محاكمنا بشكل عام، وعده بأنه سيحصل على حكم مخفف لا يزيد على سنة واحدة، إذا أقر بارتكاب الجريمة، ليشجعه على الاعتراف، مؤكداً أن الإثبات موجود لديه، لأن بصماته مطبوعة على مقبض السكين، فأنكر هذه الاتهامات بحدة، فلم يجد المحقق بداً من الاعتذار منه، لأن البصمات الموجودة على السكين لا تعود له، وأن هناك خطأً قد حصل في تحليل البصمات .

أخيراً جاء دوري، فاستدعاني المحقق ودخلت الغرفة . سألني إن كنت على علمٍ بالعلاقة بين زوجتي ومديرها، فأجبته بأنها علاقة عادية، وكأي علاقة بين سكرتيرة مع مديرها، فهناك ظروف تفرضها طبيعة العمل، نظراً لوجودهما المستمر مع بعضهما، طوال وقت ساعات الدوام، فأعاد سؤاله: "لكن هناك شائعات كثيرة منتشرة بين الناس حول علاقتهما" . فأدركت بخبرتي من أسئلته بأنه شخص سطحي، فقلت له: "ربما هناك شائعات حول زوجتك وحول أخواتك البنات، فهل يمكنك أن تصدق هذه الشائعات"؟ فلم يعجبه جوابي،

فعدل من جلسته قائلاً: "لكننا وجدنا بصماتك على مقبض السكين المغروزة في رقبة المرحوم"، فأجبته: "إذاً لا داعي للاستمرار في التحقيق، ومن واجبك أن تحيلني الآن فوراً إلى القضاء، فأدرك بأني أستخف بذكائه" . فتابع حديثه: "أريد منك اعترافاً خطياً بأنك قتلته دفاعاً عن شرفك، لأني متأكد بأنك أنت الذي أقدم على قتله، وبما أنك محامٍ، فأنت تعرف الحالات الشخصية المخففة التي يجوز أن تأخذ بها المحكمة، وفقاً لأحكام القانون"، فحملقت بوجهه، لأتأكد من جدية أقواله .

تابع حديثه: "لكن إذا رفضت الاعتراف، فعندنا الفلقة، وعندما أضعك على الفلقة ستعترف، وحينها لن تستفيد من ميزة الظروف التخفيفية التي يعطيها القانون للقاتل دفاعاً عن شرفه" . نظرت إليه مرة ثانية، وأدركت أنه شخص هشٌ يمكن التلاعب به بسهولة، لقد صادفت عشرات الأشخاص من أمثاله في أثناء مرافعاتي بالمحاكم . قلت له: "عندما أخرج من الغرفة الآن، سأذهب بوجهي إلى المدعي العام، وأشرح له بأنك تريد أن تنتزع اعترافاً مني بالقوة على أني القاتل، لكي تستطيع أن تتستر على القاتل الحقيقي الذي ارتكب الجريمة، وبذلك تصبح أنت بالقانون شريكاً بالجريمة" .

ظهرت أمارات الخوف على وجهه، وقال مازحاً وهو يحاول تلطيف الجو: "أنتم المحامون غير الله ما بيقدر عليكم، لكنني كنت أقوم بواجبي، وسأعترف لك كرجل لرجل، بأنه لا توجد أي بصمات على مقبض السكين، وكنت اخترعت قصة مطابقة البصمات، لكي أجعل الشاهد ينهار، وليعترف بأنه ارتكب الجريمة"، ثم اعتذر مني، وبينما هو يصافحني، خطر لي أن أقول له بأنني في أثناء هذه الطوشة، وبينما كنت بالقرب من زوجتي عند الباب لمحاولة مساعدتها للخروج من الصالة، التفتُ إلى

الوراء، فشاهدت المدير الإداري، وكان بيده فوطة بيضاء، ألقاها بسرعة على الأرض قبل أن يلتحق بنا، لكني فكرت بأنني لو أدليت بهذه الإفادة، فإن الموضوع سيتعقد، وسوف ينقلون التحقيق إلى مستوى أعلى، وسنضطر للتعامل مع محققين أكثر خبرة وذكاء من صاحبنا الملازم، فغيرت رأيي، وغادرت الغرفة .

لما أصبحت خارج البناء، فوجئت بزوجتي تنتظرني داخل سيارتها، وسألتني بلهفة، وهي مرتبكة: "ماذا قال لك المحقق"؟ فأجبتها: "إنه ولد صغير يستمد قوته من النجمة التي على كتفه، وسينتهي الأمر بإغلاق القضية بعد ثلاثة أشهر، والاكتفاء بالادعاء على مجهول"، فهزت رأسها وبدت مرتاحة، وعلت وجهها ابتسامة عريضة، "من برأيك كان القاتل"؟ فأطرقت برأسي وترويت قليلاً، ثم أجبتها: "تبدو الأمور أحياناً بعكس ما هي عليه" .

❖ ❖ ❖

علاقة على الفيسبوك

عادةً ما يبدأ صباحي بفنجان قهوة سادة وسيجارة مالبورو، أشعلها وأستمتع بنفث دخانها في الهواء إلى الأعلى، بشكل حلقات دائرية منفصلة . وبين الفينة والفينة، أنظر إلى شاشة جوالي لمتابعة آخر البوستات، حتى تصير الساعة العاشرة، وحينها أتسلل من البيت باتجاه مقهى الغلاييني على الروشة في بيروت، لأجتمع مع صديقي جلال لتمضية ساعتين في تدخين شيشة معسل التفاح، وبعد انتهاء جلستنا يقوم جلال بدفع الحساب، ويوصلني بسيارته إلى بيتي، ثم يتابع طريقه إلى معمل والده .

لقد مضى عليَّ أكثر من ستة أشهر وأنا أبحث عن عمل، فأصبحت تسليتي الوحيدة أن أجتمع في المقهى مع صديق طفولتي جلال لقتل الوقت . في إحدى الجلسات أخبرني جلال بأنه تعرف على بنت جميلة على الفيسبوك، وهي في السنة الثالثة في كلية الصيدلة، وبدأ يسرح في مدح جمالها وثقافتها، فتوقعت أنه وقع في حبّ لصورة بنت اخترعها لنفسه، وربما لا تتوافق مع الواقع، لقد خلق وهماً وبدأ يؤمن به . تابع حديثه بأنه قد أرسل لها رسالة إعجاب على المسنجر، وأنها أجابته على رسالته، متناسياً أن البنات يحببن قراءة المجاملات وكلمات الإعجاب لإشباع غرورهن .

في الجلسات التالية بالمقهى، أصبح حديث جلال يدور كله حول نوال، صديقته الجديدة على الفيسبوك . لقد اكتشف وجود صفات كثيرة مشتركة بينهما، وبدأت تبادله المشاعر نفسها، متناسياً أن الأحاسيس الإلكترونية أكثر جاذبية من الأحاسيس الحقيقية، لأنها وليدة الأوهام المثالية . حاولت أن أنبهه بأن الوقوع في الحب على الفيسبوك مشكلة خطيرة، لأن الشخص يقع في حب بنت طوّرها بمخيلته من صورتها على صفحتها على الفيسبوك، لإشباع رغبته الجنسية، لكن في هذه

الآونة، أصبح من الصعب أن يستمع إلى نصائحي، وكان عليَّ بالمقابل أن أسايره، لأنه بالنهاية هو الذي يدفع حساب جلستنا بالمقهى .

كنت أتوقع في كل مرة نجتمع فيها، أن يخبرني بأن علاقته الافتراضية قد انقطعت مع نوال، وأنه قد عاد من جديد إلى عالم الواقع . بعد أن عاش واستمتع بتجربة العلاقات الافتراضية، لكنه استمر بعلاقته معها رغماً عني، لأني لم أدرك بلحظتها، أن الفيسبوك سمح له بالظهور أمام نوال بأفضل طريقة ممكنة، لقد حدثها عن معمل والده، وعن سيارته المرسيدس السوداء، وأخفى عيوبه الأخرى التي سوف تظهر في أول لقاء مباشر بينهما، وفي آخر مرة اجتمعنا فيها بالمقهى، أخبرني أنه اتفق مع نوال على أن يذهب غداً مع أهله إلى منزلها لخطبتها .

ذهب في تلك الليلة إلى بيت عائلة نوال، وصعد مع والديه الدرج، حتى وصلوا إلى الطابق الثالث، ضغط زر جرس الباب بلهفة، متوقعاً أن تطل نوال فاتحةً الباب، ولكن أحداً لم يفتح الباب، فعاد من جديد وضغط مرتين على الجرس، لكنهم لم يسمعوا أي حركة داخل البيت، فأعاد الكرّة من جديد، لكن السكون ظل مخيّماً على البيت، أصبح جلال محرجاً كالولد الصغير، لقد اكتشف أن كل كلام نوال ليس سوى مثاليات على جدران صفحتها على الفيسبوك، لقد أحس بأنه خسر احترامه لذاته، وفقد احترام والديه .

أصبح في حالة من التوتر العصبي، وأمسى بحاجة للسماح لمشاعره بالظهور للتخفيف من حدتها، فاستدار وقرع جرس باب الشقة المقابلة، بعد قليل فتح رجلٌ مسنٌ الباب، فبادرت والدة جلال بالاعتذار منه للإزعاج، وأخبرته بأنهم على موعد مع جيرانه من أجل خطبة ابنتهم نوال، لكن يبدو أن هناك شيئاً ما، منعهم من فتح الباب . فظهرت علامات الرعب في عيون الرجل المسن: "المرحومة نوال، نوال لقد انتحرت منذ ستة أشهر، وأمها وأبوها

سافرا إلى عند ابنهم المقيم في دبي" . فتدخل أبي فوراً قائلاً: "هناك ثمة خطأ بالعنوان" ثم شكره وعدنا إلى بيتنا .

في الطريق .. وفي أثناء عودتنا إلى بيتنا، لم يتطرق والدي إلى الموضوع، ولم يوجّه إليّ اللوم، وتظاهرت والدتي بأن الأمور طبيعية، وكأنها لم تكن . لكن عندما دخل جلال غرفة نومه، كان تحت شدٍّ عصبي كبير، فجلس على الكنبة وهو يشعر بفقدان الثقة بنفسه، وانتابه إحساس بالخوف من المجهول . وبينما هو يفكر بما حدث، شعر بيد نوال قد خرجت من تحت بلاط الغرفة، وأخذت تشده نحوها إلى الأسفل، كان وجهها كما هو على صفحتها بالفيسبوك، ولكنه أزرق قليلاً، ومالت جبهتها إلى السواد، أما ذراعها فكانت شاحبة تميل إلى الاصفرار، وبرزت شراييها وأوردتها بلون كحلي غامق من خلال الجلد، ورائحتها غريبة تشبه رائحة البيض العفن، كما لاحظ خروج مقلة عينها من مكانها وهي تحملق فيه باستمرار برغبة شديدة . تابعت جذبه بقوة نحوها، شعر بأنه يسبح خارج جسده، وأنه باشر بعبور نفق مظلم بسرعة لا توصف، لمح في آخره نوراً أحمر يتوهج مصدراً حرارة عالية، وطار بالنفق وسط شعور غامض بالخوف من الصريخ والعويل الصادر عن نهايته .

قام بمقاومة يد نوال، وأخذ يرفسها برجله الأخرى، وحرّك يده ليحرّر قدمه من يد نوال التي غرزت أظفارها في لحمه في أثناء العراك، اصطدمت يده بمصباح الطاولة الموجود إلى جانبه، فوقع على الأرض محدثاً صوتاً عالياً، فهرعت أمه إلى غرفته، لتجده غارقاً في نوبة هلع مخيفة، فقد فيها السيطرة على نفسه، وهو يهتز ويرتعش ويتعرق ويعاني ضيقاً بالتنفس . فخطر لها أنه أصيب بنوبة قلبية، فضمته إلى صدرها كطفل صغير أعادوه إلى أمه التي لم تره منذ زمن طويل، فشعر بالأمان، وزالت عنه جميع مخاوفه، وتفقد بيده اليسرى قدمه، حيث أنشبت نوال أظفارها، فوجد عليها آثاراً لدمٍ ناتجٍ عن جروح وخدوش سطحية .

❖ ❖ ❖

الفوضى الآن

عدنان واحدٌ من مئات ملايين الأشخاص الذين يعيشون على الحبوب المهدئة للأعصاب . وصف له الطبيب مرة، بأن يتناول حبة واحدة مساءً قبل النوم للتخلص من القلق الناتج عن عدم شعوره بالأمان، بعد أن شاهد بعينيه كيف أن العملة الورقية تنخفض قيمتها في كل يوم، وأن البنوك في لبنان أصبحت معرضة للإفلاس، ومدخراته في بنك بيروت والتي هي بحوالي أحد عشر ألف دولار، قد أصبحت في خبر كان، إضافة إلى انتشار الفيروسات الحديثة مثل الكورونا، التي تبث الرعب في كل مكان، ما دفعه لزيادتها من تلقاء نفسه من حبة إلى حبتين يومياً، من دون مراجعة الطبيب . لكن بعد عدة أسابيع، ما لبث أن وجد نفسه مرغماً لزيادتها إلى أربع حبات يومياً، للاستمرار بالحصول على السعادة والراحة النفسية ذاتها . معللاً ذلك، بأن الدكتور غير اختصاصي، وهو لا يعرف عدد الحبوب اللازمة لمعالجته من الاكتئاب المستمر .

لقد أصبح على غير ما هو عليه، فهناك شعور داخلي دائم بالنشوة، وهو يعيش معلقاً بين الواقع والماضي، وبين خيالات أبطال المسلسلات التلفزيونية التي يدمن على مشاهدتها باستمرار . نسي حينها مشكلة الخوف نهائياً، كان قد قرأ بالمصادفة في إحدى المجلات، عن تجربة أجراها الجيش الأميركي على سترة بيضاء يلبسها الجنود، فيصبحون غير مرئيين، إذ إن مبدأها يقوم على وجود كاميرا مثبتة بجانب السترة، تلتقط الصورة الموجودة خلفها، وتعكسها على وجهها، فتصبح السترة متماهية مع محيطها، وغير مرئيّة للعدو .

بقيت الفكرة عالقة بذهنه، من دون أن يستوعب تفاصيلها الفنية، واعتقد أنها امتداد بطريقة ما لطاقية الإخفاء التي كان يسمع عنها وهو صغير . استدلَّ من أحد مواقع الإنترنت على اسم معالج

روحاني مضمون نيجيري الجنسية، لكتابة التعاويذ السحرية والاتصال بالجن في العالم السفلي، فذهب عدنان لزيارته في حي المصيطبة ببيروت، فأقنعه المعالج النيجيري بأن عليه أن يعطيه على الحساب ستين دولاراً، ليشتري بها "تيساً" يقدمه قرباناً لآلهة الشياطين، لأن الشياطين تحب دماء الحيوانات الحية، ما سيساعده في استخدام سحر الفودو لتحقيق رغبته، ثم طلب منه أن يعود بعد ثلاثة أيام ومعه ثلاثمئة دولار، ليعطيه خاتم فضة بحجر العقيق اليماني الأسود، يلبسه في سبابته اليمنى، وهو خاتم التأثير والسلطة ودفع الشرور، فيصبح غير مرئي .

فعلاً عاد بعد ثلاثة أيام، وبوساطة الإيحاء أقنعه الساحر النيجيري أنه أصبح بمقدوره إخفاء شكله باستدعاء القوى الشيطانية الموجودة حوله في الكون وجذبها إلى داخله، فدخل في عالم الوهم . لقد أمسى واقعه من صنع تخيلاته، إن لَبْس الخاتم بحدِّ ذاته غير كاف ليجعله غير مرئي، بل إن عليه أن يسمح لهذه القوى الشيطانية بأن تتلبسه، لكي يتحقق اختفاؤه عن عيون البشر .

لَبْس عدنان الخاتم، فتوهم بوجود طاقة عارمة في داخله، واتجه ماشياً إلى بنك بيروت، دخل باب البنك الرئيسي، واتجه مباشرة إلى باب الموظفين الإداريين، وهنا استوقفه حارس الأمن الذي يضع على خصره مسدساً وسأله: "لوين رايح يا أخ، ممنوع الدخول إلى قسم الصرافين"؟ بتلك اللحظة اكتشف بأنه إنسان عادي مرئي للجميع، وأدرك أن الساحر قد لعب عليه، فارتبك من هذا الموقف، وتجمد في مكانه، فما كان من رجل الأمن إلا أن دفعه بعنف إلى الخلف، وبطريقة لا شعورية مدَّ عدنان يده، وانتزع مسدس الطاحونة الماجنوم، من على خصر الحارس، وصوّبه باتجاهه لإخافته، إلا أن الحارس حاول أن يدافع عن كرامته أمام الناس، فجرب انتزاع المسدس من يده، فانطلقت رصاصة أصابت الحارس بكتفه، هنا بدأ

صراخ بعض الزبائن الموجودين في البنك، والذين جاؤوا لسحب الحد الأدنى المسموح لهم به من ودائعهم، حاولوا خلق الفوضى، لعلهم يتمكنون من مهاجمة الصرافين الموجودين بالبنك، للحصول على ودائعهم المالية المجمدة . هرع حارس أمن ثانٍ، وأطلق طلقتين من مسدسه باتجاه عدنان، لكنه لم يصبه، وأصابت إحدى الطلقات يد أحد الزبائن في البنك، فانفجرت الحلقة المفرغة من الكراهية والحقد بين المصارف والعملاء، ونظر الموجودون إلى المقتحم كبطل يحاول استرداد حقوقه المسلوبة، فهاجموا الحارس مطلق النار، وضربوه ضرباً مبرحاً .

شجع انفجار العنف بقية الموجودين على التفكير باستعادة ودائعهم، هاج الزبائن على صوت إطلاق النار، وثارت غريزة القطيع الكامنة في داخلهم، فاندفعوا من باب قسم الصرافين، لانتزاع ودائعهم بالقوة . فتحوا الدروج وبدؤوا بإخراج الدولارات . حصل البادئون بالهجوم على آلاف الدولارات المكدسة في الدروج، بينما لم يحصل المتأخرون على أي مبلغ، فبدأ العراك بين الزبائن أنفسهم للحصول على أكبر حصة من الدولارات، أما عدنان فأشهر مسدسه وانطلق إلى الطابق الثاني، حيث مكتب مدير البنك . حاول الحارس الشخصي للمدير الواقف أمام باب مكتبه منعه من الدخول، فأطلق عليه النار من دون تردد، ودخل عنوة إلى غرفة المدير .

عندما شاهد مدير البنك عدنان أمامه مشهراً مسدسه، ونتيجة لهذا التهديد الذي لا يمكنه السيطرة عليه، شعر بالتوتر والخوف من الموت، فاقترح عليه أن يعطيه كامل المبلغ الموجود في خزنته الحديدية بالمكتب، وهي بحدود مئتي ألف دولار ليتركه وشأنه، فوافق عدنان على الفور، أخذ المبلغ ووضعه في كيس، ونزل إلى الطابق الأول راكضاً باتجاه الباب الخارجي للبنك، ففوجئ بأن

الباب الخارجي أصبح مغلقاً، حيث إنه تم إغلاق جميع الأبواب الخارجية أوتوماتيكياً، بعد أن رنّ جرس الإنذار عند بدء إطلاق النار . كما أن صوت جرس الإنذار نبه الشرطة إلى أن عملية سرقة تجري داخل البنك .

خلال دقائق كانت مفرزة من الشرطة قد أحاطت بفرع البنك، ومنعت الناس من الاقتراب منه، بعد قليل ناشد ملازم أول بالشرطة بوساطة مكبر للصوت الشخص الذي أطلق النار، لكي يسلم نفسه، ووعده بأن الحكومة ستنظر بعين العطف إلى مشكلته . ثارت الزبائن المحملة بالدولارات داخل البنك، وأيقنت أن الشرطة ستسلب منهم حقوقهم، أما عدنان فأصبح في وضع صعب، لأنه أطلق النار على حارسين للأمن . خلال هذا الوقت تجمع الآلاف من الناس في الخارج حول البنك، وضربوا حلقة حول رجال الشرطة المحاصرين للبنك، وأخذوا يصرخون مطالبين بالحصول على أموالهم المودعة، والتي يرفض البنك إعادتها إليهم، ويهتفون ممجدين البطل الذي أطلق النار في داخل البنك . سلوك القطيع دفع المتجمعين خارج البنك للوحدة والتماسك ضد القانون، لاستشعارهم بالخطر على مصادرة ودائعهم من البنوك والسياسيين المتواطئين معهم . خلقت الفوضى نوعاً من البلبلة والتحريض ضد البنك، وأصبح الناس يهتفون: "عدونا يوجد هنا"، ورددت الحشود شعارات ضد الحكومة، أما رجال الشرطة فقد بقوا على الحياد، ولم يحركوا ساكناً .

عاد عدنان وصعد إلى الطابق الثاني، ودخل غرفة مدير البنك، وفتح نافذته، وألقى منها مبلغ المئتي ألف دولار على الحشود الغاضبة التي تحاصر البنك، لقد استيقظ من الحلم الذي يعيش به، وأدرك أنه قد تسبب في مقتل شخصين بريئين يقومان بوظيفتهما، فشعر بتأنيب ضميره، ونتيجةً لهذا الإحباط الدائم،

أخذ المسدس وأطلق رصاصة في رأسه، بدأت أوراق المئة دولار تتطاير في الهواء، فهجمت الحشود الغاضبة، وبدأت تتقاتل مع بعضها من أجل تلقف الورقات المالية، وضاع رجال الشرطة بين المتظاهرين، وفي خضم هذه الفوضى، اندفع الزبائن داخل البنك إلى الباب الخارجي، وتمكنوا من خلعه، وخرجوا راكضين مثل قطيع الثيران، ليذوبوا بين الحشود التي كانت تحاصر المكان .

❖ ❖ ❖

تحت تأثير البنج

بينما أنا مستلقٍ على سريري في المستشفى، أعاني من الضجر، فساعات الانتظار عادةً تمرّ ببطء شديد، كنت متوتراً ولا أدري ماذا أفعل . خطر لي أن أركّز ببصري على نقطة سوداء، لرأس المسمار الموجود أمامي على الحائط . استمررت بالتحديق فيه بشكل ثابت، من دون أن أشتّت انتباهي أو أرمش بعيني، فصفا ذهني، وشعرت بالهدوء والاسترخاء، وتخيلت صوراً لوجوه أشخاص أحبهم، فدخلت في حالة من السكون . لقد اعتدتُ على القيام بتمارين القوة المغناطيسية للنظرة منذ صغري، فهي تريح أعصابي، وأنا الآن أمضي وقتي بممارستها، حتى يحين موعد عمليتي الجراحية لاستئصال المرارة بوساطة المنظار . هناك دائماً شعور بالرهبة من الموت، لكني في تلك اللحظات لم أكن خائفاً، لأن الطبيب الجراح أكد لي مراراً، بأنها عملية بسيطة، ولا تستدعي القلق، لكن تبقى فكرة الخوف من المجهول مسيطرةً على تفكيري . قد لا يرتبط التخدير العام بالوفاة، إلا أنه قد يحدث بسببها أحياناً .

أخيراً جاءت الممرضة، وحقنتني بإبرة مسكنة في الوريد، لكي تساعدني على الاسترخاء . بعد فترة قصيرة، عادت ومعها ممرض، ساعدتني في الجلوس على كرسي متحرك، دفعه الممرض باتجاه غرفة العمليات الجراحية، لأجد نفسي بالنهاية، ممدداً على طاولة العمليات . أول ما لفت انتباهي في هذه اللحظة شدة الأضواء الساطعة المركزة على جسدي، فأُصبت بالانبهار من شدة لمعانها . وضع الطبيب الكمامة على أنفي وطلب مني أن أستنشق غاز التخدير بشكل طبيعي، وأن أتوقف عن التوتر، وأن أبدأ بالعدّ من واحد إلى مئة، وأخذ اختصاصيُّ التخدير يتحدث لي عن ميزات

عملي كمهندس مدني، ليشدَّ انتباهي بعيداً عن انتظار وتوقع لحظة فقدان الوعي . شعرت بالخوف من أن يبدأ الجراح العملية قبل أن أكون قد دخلت في مرحلة اللاوعي، فصرت أحرك سبابتي باستمرار، لأعطيه الإشارة بأنني مازلت واعياً .

أصبح كل خوفي الآن منصباً على ألا أتحدث من دون وعي، وأنا تحت تأثير البنج، فأنا الآن عالق بين مستوى الوعي واللاوعي، وقد يبوح عقلي الباطن بما أفكر فيه بشكل دائم، فيكشف لساني عن بعض أموري السرية، ويخرجها من طَي الكتمان إلى عالم العلن . لكل واحد منا قصص مستورة يحاول أن يخفيها عن الجميع، ربما لأنه يخجل منها، أو لأنها خطيرة، قد تؤدي به إلى الهلاك . علماً بأن الجهاز الطبي يدّعي أن كل ما ينطق به المريض، يعتبر سراً مقدساً، لا يمكن التحدث به لأي إنسان، لأنهم أدوا القسم على التمسك بقسَم أبقراط، قبل مزاولتهم مهنة الطب، لكن في هذه الأيام، أصبح من الصعوبة بمكان، أن تثق بأيٍّ إنسان .

كانت ليلة ضبابة كئيبة على ما أذكر، تدنت فيها الرؤية، بعد أن غادرت بار فندق الشيراتون في منتصف الليل، أخذت الطريق الضيّق المؤدي إلى ساحة الأمويين، كانت العتمة تلف الشارع، إلا من بعض الأضواء الخافتة المنبعثة من المصابيح القليلة المعلقة على أعمدة الإنارة المنتشرة على جانب الطريق . شاهدت خيالاً لدراجة تسير في منتصف الشارع، وما زاد في ظلام الليل، أني نسيت إضاءة المصباحين الأماميين لسيارتي . وفجأة أحسست بهزة خفيفة في السيارة، تلاها صوت ارتطام خفيف . شاهدت ظلاً لرجل وهو يطير في الهواء، ليقع على جانب الرصيف، فاختفت النشوة التي كنت أعيشها من جراء كأسي الويسكي . ولم أعد أدري ماذا أفعل . توقفت ونظرت من نافذة السيارة إلى المسكين، وشاهدته وهو يئن محركاً رأسه . فاطمأن بالي،

فلا شك أن إصابته خفيفة . فأنا أصلاً لم أكن مسرعاً عندما صدمت دراجته بسيارتي، حاولت التبرير لتبرئة نفسي، بأنه هو المسؤول عن هذه المصيبة، فقد كان يسير باتجاه معاكس في منتصف الشارع، وهو بذلك مخالفٌ للقانون . لربما كان سكراناً أو تحت تأثير المخدرات، فأسرعت في طريقي مبتعداً عن موقع الكارثة . على الرغم من شعوري بالذنب، لم أتوقف لمساعدته، وأقنعت نفسي، بأن السيارة القادمة بعد بضع دقائق، ستشاهده وهو ملقى على قارعة الطريق، وسوف تأخذه إلى المستشفى . عملياً كنت خائفاً من قدوم الشرطة ومن المساءلة القانونية .

لما وصلت إلى بيتي شعرت بذعر شديد، وسمعت صوت دقات قلبي في أذني، وأخذت أتنفس بسرعة، فعرفت حينها بأنني أصبت بنوبة هلع ما بعد الصدمة . أخذت حبتين من دواء منوم، وذهبت إلى فراشي لأتخلص من التوتر، ولكي تهدأ أعصابي . ما كدت أغمض عينيّ حتى شاهدت قطاً أسود جاثماً على صدري، تسيل من أنيابه نقاط دم حمراء، لتقع على قميصي، حركت يدي اليمنى لأدفعه بعيداً عني، ولكني لم أحسّ بها . أصبح جسمي كله مشلولاً وعاجزاً عن الحركة . حاولت أن أصرخ بأعلى صوتي لأخيف القطّ، ولكن صوتي ظلَّ مختنقاً في حنجرتي . انتابني فزع شديد، واستيقظت من نومي، لأجد أن كل ما شاهدته، كان عبارة عن حلم قصير استمر لبضع دقائق . أصبحت خائفاً من العودة إلى النوم، خشية أن يتكرر هذا الحلم من جديد .

بدأت أتجنّب النوم لكثرة الأحلام المرعبة التي أشاهدها، أثّرت قلةُ النوم في حياتي، فأصبحت مشوش التفكير وغير قادر على التركيز . بدأت أحبّ العزلة والابتعاد عن أصدقائي . لم أعد أعيش الحياة التي كنت قد تعودت أن أعيشها . ولأول مرة في حياتي بدأت أعاني من وسواس الموت والخوف من العقاب .

لاحظ صديقي سعيد تغيّر أحوالي، ففاتحني بهذا الموضوع، وردَّ ذلك إلى أن عيناً قد أصابتني، لأني تاجر غنيٌّ، أو لربما أن هناك فتاة، ألقت عليَّ تعويذة بوساطة ساحر شاطر، لكي ترغمني على الزواج منها، مع أنني لا أؤمن بهذه الخزعبلات، لكن كنت كالغريق الذي يحتاج إلى قشة ليتعلق بها .

دبّر لي صديقي موعداً مع غجري يعيش في منطقة القدم، على أطراف مدينة دمشق، وعلى حسب زعمه فهو مشهور في فكّ السحر والإصابة بالعين، وعنده القدرة على استحضار قوى غير مرئيّة من الكون، يمكنها أن تساعدني على حدوث تغييرات في جسمي، فتخلصني من اضطراباتي النفسية . لما دخلنا الخيمة التي يعيش فيها، أجلسنا على الأرض حول طاولة خشبية مستطيلة متهالكة . أخذ عود أسنان من على الطاولة، رسم به ست علامات على شمعة حمراء، فقسمها إلى سبعة أجزاء متساوية، وعلى الوجه الآخر بالعود نفسه كتب اسمي بحروف لاتينية . وضع الشمعة بيني وبين مرآة صغيرة، حملها بيديه، وطلب مني التركيز على لهيب الشمعة، وأخذ يلقي تعاويذ بلغته الدومرية . وعندما احترقت الشمعة بكاملها، أخبرني بأن اللعنة قد دُمّرت مع احتراق الشمعة . عند مغادرتنا الخيمة، دسست في يده عشرة آلاف ليرة سورية .

يقوم مبدأ السحر على الوهم، فهو نشاط يغيّر حالة معتمدة، بناء على إرادة الشخص، إنه الإيحاء للشخص المسحور بأن في مقدرته تغيير أحواله، باستقدام الأفكار الإيجابية الموجودة حوله في الكون وجذبها إلى دماغه . وبذلك تتحقق الأماني التي يريدها، وتصبح جزءاً من واقعه الحالي، يلعب الزمن دوراً في تسهيل هذا الأمر . إن الطبيب يعتمد على القدرة الذاتية لجسم المريض للشفاء، بمساعدة مرور الوقت، والدواء يحفّز قدرة الجسم اللامتناهية

للتخلص من المرض، إذ لا يمكن لشخص أن يشفي شخصاً آخر إذا لم يكن عند الآخر الرغبة في الشفاء . وبدأت مع مرور الوقت أعود إلى حياتي الطبيعية السابقة . تناسيت حادثة الدراجة برمَّتها، ولم يعد هناك ما يربطني بها سوى بعض الهلوسات التي أشاهدها في المنام من فترة لأُخرى .

بعد انتهاء العملية الجراحية، نقلوني إلى غرفة الإنعاش، لأتعافى من التخدير . لما أخذت أصحو شاهدت اختصاصيَّ التخدير بجانبي . فسألته بتردّد: "هل تتذكر ما قلته في أثناء العملية تحت تأثير البنج"؟ فأدار وجهه نحوي مبتسماً: "السوالف التي نسمعها في غرفة العمليات لا تحصى ولا تنتهي" . فعدت من جديد مكرراً سؤالي، فقاطعني: "في أثناء الجراحة، يركز كل واحد منا على عمله، لأن الغلطة بكفرة، ولا يعني ما يقوله المريض شيئاً، تحت تأثير البنج" . تابع حديثه: "على ما أذكر، منذ حوالي شهرين كان هناك مريض شاب في حوالي الثلاثين من عمره، وكنا نجري له عملية قلب مفتوح، لقد اعترف تحت تأثير البنج، بأنه هو القناص الذي اغتال جون كندي رئيس أميركا في مدينة دالاس قبل خمسين عاماً" . فتحت فمي من الدهشة، وسألته: "هل معقول أنه قام بذلك"؟ فسكت قليلاً ثم أجابني: "ربما هذا الرجل أتى من العالم الموازي لعالمنا، لأنه بعد أقل من أربع وعشرين ساعة، اختفى الرجل مع الأوراق الثبوتية كافة، والمتعلقة بدخوله إلى المستشفى .

❖ ❖ ❖

قوارب الموت

هذه القصة أنقلها حرفياً كما حدثت معي، ومع الشاب الذي كان جالساً إلى جانبي، في قارب الموت الصغير المكدس بعشرين شخصاً مثل علبة سمك السردين، منطلقين إلى عرض البحر، لتحقيق حلم الهجرة إلى الشمال الذي يراود جميع اللبنانيين، بغية الهروب من الأوضاع الاقتصادية المتردية في بيروت.

أبحرنا من طرابلس، مهاجرين بطريقة غير شرعية إلى جزيرة ليسبوس اليونانية، فمعظم المهربين يفضلون الطريق البحري إلى اليونان، باعتباره أقل خطورة من الطرق الأخرى.

في البداية ظهر البحر هادئاً، لكن بعد أن توغلنا في المياه لعدة ساعات، بدأت السحب الكثيفة تتجمع فوقنا، وهاج البحر، وأخذت الأمواج العاتية تلعب بزورقنا المطاطي ذي المحرك الصغير الذي يعمل على البنزين، وزاد من سوء الأحوال، تكدس عشرات غالونات البنزين فوق بعضها في مؤخرة الزورق.

لما جاء الليل ازدادت كثافة الضباب المنتشر حولنا، واشتدت سرعة الرياح، بدأ الركاب من شدة اضطرابهم يتقيؤون على أنفسهم، وعلى أرضية الزورق، ما ضاعف من تعاسة الرحلة، بعدها اصطدم القارب فجأة، بحائط مائيٍّ تجاوز ارتفاعه خمسة أمتار، فارتفع أحد الركاب في الهواء، وسقط في البحر، وابتلعته المياه السوداء، جمد سائق الزورق في مكانه عاجزاً عن القيام بأي شيء لمساعدته، فالظلام الدامس والأمواج العالية تحيط بنا من كل جانب. ثم تابعنا شقّ طريقنا إلى اليونان، وأصبح هؤلاء الأصدقاء الذين يجلسون منذ ساعات بين مفعمين بالأمل، ويائسين مذعورين، كأن شطراً من أرواحهم ذهب إلى البحر، وانطفأ فيه.

لعل الخوف الشديد من اقتراب الموت، هو الذي دفع جاري ليفشي سرّه لإراحة ضميره، أو ربما لتبرير سلوكه، ولإقناعي ببراءته، لكن هل يمكن أن تكون ذاتنا بالنقاء الذي كانت عليه سابقاً، عندما نعترف بخطيئتنا لأنفسنا، لتطهير روحنا وتنقيتها من ذنوبنا، ثم تابع جاري حديثه:

لما عدت من وظيفتي إلى بيتي مبكراً على غير عادتي منذ أربعة أيام، فوجئت بوجود زوجتي مع ابن عمتها المراهق بالفراش في غرفة نومنا، فتحولت مشاعر الصدمة التي اعترتني إلى رغبة في الانتقام من هذا الصبي المنافس الذي كسرني وأذلني، فقدت السيطرة على أعصابي، فقفزت على هذا الصعلوك القصير، وطرحته بسهولة على ظهره على الأرض، وأطبقت بكلتا يديّ على رقبته، إلى أن خرج الدم من أنفه، ولما تأكدت من موته، نهضت عنه، وجذبت زوجتي التي تبكي من على طرف السرير، ومددت جسمها على الأرض، وخنقتها مستخدماً البطانية الموجودة على الفرشة . خطر لي بلحظتها أن أتصل بالشرطة وأسلم نفسي، لكني أعرف جيداً بأن عائلة زوجتي من العائلات القديمة المعروفة، والمتنفذة في منطقتنا، ولن يقبلوا أن يعيشوا العار من الفضيحة، لكيلا تقضي على مستقبلهم السياسي ومركزهم الاجتماعي، وسيتدبرون أمري، ويتخلصون مني بطريقة ما، لكي يطمروا الفضيحة، قبل أن تذهب القضية إلى المحكمة .

أغلقت باب منزلي، واتجهت إلى سوق الصاغة، حيث بعت المصوغات الذهبية التي بحوزة المرحومة زوجتي، وبعدها اتجهت إلى ابن عمي في طرابلس، حيث حجز لي مقعداً على هذا القارب المتجه إلى اليونان، وهزّ رأسه قائلاً: لقد بعت هذه القطع الذهبية بألفي دولار، واقترضت من قريبي ثلاثمئة دولار، لكي أدفع تكاليف هذه الرحلة، ولم يبقَ معي أي مبلغ لكي أتدبر أموري بعد وصولنا إلى اليونان، سألني: " هل يمكنك أن تقرضني مئتي دولار، وسأردها لك في المستقبل؟"

كنت أراقبه وهو يختلس النظر إلى السلسال الذهبي المعلق حول رقبتي، وقد ضاقت حدقة عينيه، استجابة لمشاعر الحقد التي تعتريه بسبب الواقع الذي هو فيه . فأجبته: "إنني لا أملك سوى هذا السلسال الذي سأبيعه في اليونان، لكي أشتري بثمنه تذكرة تقلني إلى مدينة أرنهايم في ألمانيا، حيث تعيش أختي مع زوجها" . فهزّ رأسه غير مصدقٍ ذلك، ورسم على وجهه ابتسامة صفراء .

أحسست بالخطر من ردة فعله، وتملكني خوف مفاجئ، ثم قال لي: "إذن سنسافر معاً إلى أرنهايم لزيارة أختنا هناك"، فانتابتني حالة من الرعب، وشعرت بأني سأصاب بنوبة قلبية، فأخرجت من جيبي علبة زرقاء بلاستيكية، فيها حبوب بيضاء مهدئة للأعصاب، وحسب تعليمات طبيبي ابتلعت حبتين، لشعوري بأني على أبواب نوبة من الهلع، والآن عليَّ أن أمكث في مكاني لا أتحرك، على الأقل لفترة ثلاث ساعات، لكيلا أفقد توازني، وأتعرض لخطر السقوط على الأرض .

في اليوم التالي، اقتربنا من شواطئ الجزيرة . كانت الشمس قد بدأت تغوص في البحر، وتحول لون السماء من الأزرق الشاحب إلى اللون البرتقالي الداكن . الشاطئ يبدو مهجوراً من بعيد . وكانت الخطة تقضي، بأن يتم إنزال الركاب، قبل أن يرخي الليل سدوله، ويسود الظلام . طلب منا البحار قائد الزورق أن ننزل بسرعة إلى البحر، حيث إن المياه أصبحت ضحلة، وعمقها أقل من متر، وعلينا أن نمشي بحذر لنصل إلى الشاطئ، قبل أن تحضر زوارق حرس الحدود اليونانية ويقطروا زورقنا إلى عرض البحر، ويتركونا بالقرب من جزيرة قبرص، وحينئذٍ لا يكون أمامنا خيار سوى العودة من جديد إلى طرابلس، بسبب قلة كمية البنزين الموجودة معنا . . نظرت إلى الشاب الجالس إلى جانبي فلم أجده، حملقت في وجوه جميع

ركاب الزورق، وكانوا بحالة مزرية، ولم يكن موجوداً بينهم، لقد اختفى فجأة، من دون أن يترك أيَّ أثر .

عندما قفزت في الماء، وبدأت بالسباحة كنت مشوشاً، فبدا لي أن الشاطئ قد اختفى تماماً، ولم أعد أرى قاربنا المطاطي . التفتُّ برأسي إلى الوراء لأجد نفسي أسبح بعكس موقع الجزيرة، لقد كنت مذهولاً ومرتبكاً بشدة من موضوع اختفاء جاري الشاب، فعكست اتجاهي، وسبحت نحو الشاطئ غير مبالٍ ببقية الركاب، كنت أرتجف وأسناني تصطك من البرد، وبقينا على الشاطئ لفترة قصيرة، حتى حضرت سيارات الشرطة، وأخذوني مع بقية الركاب إلى معسكر خاص، كانت الحكومة قد أعدته للمهاجرين من أمثالنا، في الحقيقة لم تكن معاملتهم سيئة بالشكل الذي كنّا نتوقعه، فلقد أعطونا ملابس جافة وبطانيات ووجبة عشاء ساخنة، ونمنا بتلك الليلة على فرشات إسفنجية في الخيام المنصوبة في المعسكر .

في صباح اليوم التالي استدعاني المحقق لأخذ إفادتي، فسألني عن اسمي وعن جواز سفري، فأخبرته باسمي، وبأنني لا أملك أوراقاً ثبوتية، بعدها طلب مني كتابة اسمي الكامل باللغة الإنكليزية، ثم أدخله إلى الكومبيوتر الموجود أمامه على الطاولة، وسألني: لماذا حضرت إلى اليونان؟ فأجبته بأني جئت طالباً اللجوء السياسي، لأني من معارضي الحكومة الفاسدة في لبنان . كما إنني شاركت بالمظاهرات الدامية التي حاولت إسقاط هذه الحكومة، وإن المخابرات العسكرية تبحث عني حالياً لتودعني السجن، من دون إحالتي إلى المحكمة .

بعد أن ألقيت محاضرتي المؤثرة، انتهت مقابلتي . توقعت أن يتم نقلي مؤقتاً إلى أحد المعسكرات، حتى يتم ترحيلي إلى دولة أختارها من الدول الأوروبية، لكنني فوجئت بالمحقق يسألني: هل أنت متأكد

من تهجئة اسمك باللغة الإنكليزية؟ فأجبته نعم . طلب مني الانتظار في مكتبه، بعد حوالي ربع ساعة، ظهر ممرض قوي البنية مفتول العضلات بملابس بيضاء، طلب مني مرافقته إلى سيارة الإسعاف المركونة بالخارج، حيث سيتم نقلي إلى أحد المستشفيات في العاصمة أثينا، إذ إن الإنتربول كان قد عمم اسمي على جميع الدول، على أنني قاتل خطير هارب من مستشفى للأمراض العقلية في لبنان .

❖ ❖ ❖

لا تنظر إلى المرآة

حينما كنت صبياً، كانت أمي تحذرني من النظر في الضوء الخافت طويلاً إلى المرآة، لقد أخبرتني بأنني إذا أمعنت النظر إلى المرآة لفترة طويلة، وركزت خلالها على صورتي، من دون أن ترفَّ عيناي، فستظهر خلف رأسي صورة لوجه قريني باللون القرمزي الأحمر، لكنني إذا لم أخف، وتابعت النظر إلى المرآة، فسيظهر بعدها صورة الجني الذي يعيش معنا في حمام البيت باللون الأسود .

كانت أمي تصرُّ دائماً على الخادمة الجميلة المراهقة عندنا، بألا تتعرى، وألا تستعرض مفاتنها أمام المرآة، لأن بعض الجن الذين يعيشون في داخل المرآة، قد يشتهون جسدها، وقد يندفع جني متهور من المرآة، ويسحبها معه إلى داخلها، فتختفي من عالم الإنس، لتعيش خادمةً له في عالم الجن إلى الأبد .

على الرغم من هذه النصائح التي كانت تبدو سخيفةً، إلا أنها عشّشت في عقلي الباطن، ومنذ حوالي شهرين، بدأت تظهر لي في الأحلام صورة لبنت تصرخ بأعلى صوتها لكي أخرجها من القبر .

مع مرور الأيام تناسيت الموضوع، جربت أن أخرج هذه الذكريات السيئة التي تخيفني حول وجود الجان التي تعيش في المرايا، وأقوم بإخمادها، ثم استبدالها بذكريات أفضل منها، لكن صورة وجه البنت الذي حاولت تجاوزه، عاد ليلح على الظهور في الآونة الأخيرة من جديد بشكل أقوى مما كان عليه، ولم يعد باستطاعتي تجاهله، وكلما حاولت ذلك عن وعي، عزز ذلك من حضوره، بالنهاية قررت التخلص نهائياً من عقدة الخوف من ذكريات الماضي، وذلك بأن أعيشها فعلياً، مرة ثانية على أرض الواقع .

لقد اكتشفت من تجربتي الخاصة، بأن هناك علاقة خاصة بين الإنسان والمرآة، وأنه إذا انعكست الأشعة المنبعثة من العين التي تحمل

طاقة سلبية على المرآة، فيمكن أن تشكل خطراً للناظر، وعلى الجالسين بالغرفة، حينها فهمت لماذا تلجأ بعض الفتيات لارتداء أحجار طبيعية لمّاعة صغيرة حول رقبتهن، لتعكس شعاع الإصابة بالعين .

دخلت إلى غرفة النوم التي توجد فيها مرآة كبيرة على خزانة الحائط، وكنت قد لاحظت مؤخراً، أنني عندما أكون وحيداً وألتفت فجأة إليها، أرى وجود ومضات وخيالات تتحرك عليها، لكنها لا تلبث أن تتوقف بمجرد نظري إليها، وكأنها واعية بما يحدث حولها . أطفأت جميع الأنوار، بعدها أشعلت شمعة واحدة طويلة بيضاء وضعتها على تسريحة الشعر العائدة لزوجتي، والتي هي حالياً في زيارة مع ابني عند أهلها، فشعرت بالوحدة والرهبة وبسكون الليل يحيطني من كل جانب، إنه مزيج من النشوة والجنون والسعادة بأنني سأكتشف العالم المجهول في المرايا الذي تسكنه القوى الخفية .

جهّزت عقلي لاستيعاب تجارب ومساحات جديدة، بدأت بالتحديق في المرآة، شاهدت في البداية انعكاساً لوجهي مع مفروشات الغرفة، لكن بعد عدة دقائق من التركيز، شعرت ببعض الدوار، وتشوشت رؤيتي لغرفة النوم، فبدت أكثر اتساعاً ولمعاناً، بدأت تظهر على المرآة ومضات ضوئية، ما لبثت حتى تحولت إلى خطوط بيضاء ساطعة خشنة، وأخذت أشاهد بينها أجساماً طافية وبقعاً سوداء متحركة، تحولت بالنهاية إلى سرب من الذباب، أخذ يرسم بحركة متموجة وجهاً ضبابياً كحلياً يشوبه السواد، سرعان ما تجلى في وجه مألوف لبنت ناعمة، لم أره من قبل .

تمالكت نفسي، ولم أدع الرعب يجمد أوصالي، لأنها لو شعرت بضعفي، فستحاول الانتقام مني، وستقوم بسحبي إلى داخل المرآة، ولن يراني أحد بعدها . تذكرت في هذه اللحظات أن هذا الوجه يعود لبنت في العشرينيات من عمرها، جاءت بحالة إسعاف إلى مستشفى السامي الذي أعمل فيه مديراً إدارياً، كانت مصابة بحالة إعياء

شديدة إثر تناولها كمية كبيرة من الأقراص المهدئة بقصد الانتحار . لم يكن مع أمها التي ترافقها مبلغ الخمسين ألف ليرة سورية، وهو الحد الأدنى المطلوب، كضمانة للدفع على الحساب للمرضى الداخلين إلى قسم الطوارئ . هذه كانت تعليمات إدارة المستشفى، ولم يكن باستطاعتي تجاوزها إلا في الحالات الاضطرارية، وبما أنني لا أعرف هذه البنت، فلقد أعطيت التعليمات لنقلها بسيارة الإسعاف التابعة للمستشفى إلى مستشفى المجتهد العام لتلقي العلاج، ولسوء حظها فقد فارقت الفتاة الحياة في أثناء نقلها بالسيارة، بسبب التأخير في تقديم الإسعافات الأولية لها .

عندما وصلت المستشفى كان قلبها قد توقف عن الخفقان، وبعد أن عاينها الطبيب أصدر على عجل شهادة بوفاتها، فتم دفنها بسرعة، وفي حالات نادرة جداً يتوقف القلب بشكل مؤقت، ويدخل المريض في غيبوبة لفترة قصيرة تسمى الموت الكاذب، لكن أحداً لم يلاحظ ذلك، لقد دفنوها وهي حية، وعندما استعادت وعيها، وجدت نفسها مسجاةً داخل القبر . حاولت بكل قواها أن تحفر التراب لكي تخرج من القبر، وأخذت تظهر في أحلام الأشخاص الذين ساهموا في دفنها متوسلةً إليهم لكي يخرجوها من القبر، لكن لم يلتفت أحدٌ إليها، ولم يأخذ الأحلام على محمل الجد، فسألت ربها أن ينتقم لها من الأشخاص الذين دمّروا حياتها .

بعد يومين كانت هناك سيدة في زيارة لمقبرة عائلتها في حي الدحاديل، على أطراف دمشق، في أثنائها سمعت أصواتاً خافتة صادرة من أحد القبور المجاورة، قبل أن تبدأ الأرض بالاهتزاز تحت قدميها، فتصورت بأنها تعيش نهاية العالم، وأن الأموات أخذوا يقومون من قبورهم، عندها خرجت من القبر ذراع امرأة، وظهرت أصابع يدها الصغيرة مخضبة بالدماء، وقد تكسرت أظافيرها، فسارعت السيدة خائفة إلى بيتها، وروت القصة لزوجها، لكنه لم

يصدقها في بادئ الأمر، ولكي يهدّئ من روعها، عاد معها إلى المقبرة للتأكد من ذلك، وأخبرا الموظف المسؤول بالمقبرة، واصطحباه إلى حيث كانت المرأة تحاول الخروج من قبرها، وعلى الفور، تم إخراجها من القبر، ولكنها كانت جثة هامدة، لقد فات الوقت على إنقاذها .

من جديد عدت للنظر إلى وجه البنت على المرآة، إنه يزداد وضوحاً مع كل دقيقة، حتى إنه تحول بالنهاية إلى وجه حقيقي ثلاثي الأبعاد، وأصبح الجزء الأمامي منه خارج المرآة، فدبَّ الرعب في أعماقي، ثم فتحت فمها، وبدأت تمتص الأشياء الموجودة أمامها، وأحسستُ بأنني بدأت أنجذب نحو فمها المفتوح، بدأت الوسائد وعلب المكياج تتطاير في الهواء، وتتجه نحوها، لتدخل في فمها، فتمسكت بطرف السرير الخشبي لكيلا أنزلق إلى المرآة، لكنني بعد لحظات شعرت أن السرير بكامله بدأ يتحرك ببطء نحو المرآة . في تلك اللحظات تحركت تسريحة الشعر التي كانت أخف وزناً، ودخلت في المرآة، فانطفأت الشمعة، وساد الغرفة ظلام دامس، في هذه اللحظة شعرت بأن نفسي تخرج من جسدي، وتسير أمامي، وأراها تتجول في الغرفة كأنني أنا .

لما فتحت عينيّ من جديد، وجدت نفسي مستلقياً على كنبة جلدية بنية في غرفة بيضاء، نظرت من نافذتها، فشاهدت أشجار السنديان الخضراء الباسقة، وبدا البحر من بعيد بلون رمادي فاتح، فعرفت أنني على تلة قريبة من البحر، كان يجلس أمامي رجل في متوسط العمر، يرتدي معطفاً أبيضَ، وخلفه على الحائط بضع شهادات تشير إلى أنه طبيب نفسي، أخذ سحبة عميقة من غليونه، ثم نفث دخانها سحابة بيضاء، شكلت دوامات، وارتفعت نحو سقف الغرفة، ثم سألني بصوت خافت، أعطاني شعوراً بالطمأنينة: "أريدك أن تتذكر أول مرة شاهدت فيها جسد الخادمة عارية على المرآة، ثم كيف بدأت علاقتكما"؟ .

❖ ❖ ❖

لعنة الرقم خمسة

هناك الكثيرون من الأشخاص الذين لا يؤمنون بلغة الأرقام، على الرغم من أنها أكثر مصداقيةً من الكلام الإنشائي، والأرقام بطبيعتها تشبه الأشخاص، ولكل رقم معنى وصفات خاصة به، يرتبط الواحد منا برقم معين منذ ساعة ولادته، ويلازمه إلى الأبد مثل جيناته، لكنه في أغلب الأحيان يعيش ويموت من دون أن يكتشف هذا الرقم .

أبصر مروان النور في الخامس من مايو، ما جعله شديد الارتباط من الجهتين بالرقم خمسة، الرقم خمسة من الأعداد الغامضة المثيرة للجدل، ويرمز إلى التوازن، كان مروان يتخيل بأنَّ لديه ملاكاً وصياً من العالم الآخر، يتواصل معه من خلال هذا الرقم، إنه ليس الوحيد الذي يعيش هذه الأوهام، فهناك أشخاص كثيرون حولنا تسيطر على عقولهم أفكار سوداوية غريبة، ويعانون من هلاوس سمعية وبصرية، نتيجةً لرغباتهم الجنسية المكبوتة منذ فترة المراهقة، حتى إن أي سلوك استفزازي بسيط، قد يجعلهم ينفجرون وينقضون على ضحاياهم، إنهم المرضى عقلياً، الذين يزدادون يومياً في لبنان، بسبب ضغوطات الحياة، نصادفهم أمامنا في أثناء سيرنا في شارع الحمراء، من دون أن نميزهم، وقد يكون عددهم أحياناً من دون مبالغة أكثر من عدد المارة الطبيعيين .

كان ذلك في صبيحة يوم الخميس من خمسة يونيو، الجوّ مشرقٌ والشمس ساطعةٌ، إنه يوم رائع لبدايات فصل الصيف، فجعل مروان يستبشر بالخير، كعادته أخذ الباص من مسكنه في حي المصيطبة، متجهاً إلى المطعم الذي يخدم فيه عاملاً للنظافة، لاحظ أن رقم لوحة الباص تنتهي بالرقم خمسة، فازداد تفاؤله من هذا النهار . من

حسن حظه أن ظروف عمله تساعده للحصول على وجبة غداء مجانية، وإن كان أغلبها من بقايا طعام زبائن المطعم، وقد ولَّدَ ذلك في نفسه بغضاً لهؤلاء الأغنياء الذين يذهبون إلى المطاعم للاستمتاع بأطيب المأكولات .

عندما صعد الباص وجد مكاناً فارغاً إلى جانب بنت ناعمة في العشرينيات من عمرها، فجمع شجاعته وجلس على المقعد إلى جانبها، ويبدو أنها لم تكن مرتاحة من وجوده بجانبها، لعل ذلك يعود إلى ملابسه الرخيصة ورائحة الطعام المنبعثة منه . بدافع من معنوياته العالية، تجرأ وحاول أن يفتح الحديث معها، فطلبت منه ألا يتحرش بها، وأن يترك مقعده ويبتعد عنها . لكنه بقي جالساً بمكانه مصراً على أحقيته بهذا المقعد . لم يحسّ إلا بيد قوية تجذبه نحو الأعلى، ليجد نفسه واقفاً على قدميه، ثم دفعه الشاب الوسيم الرياضي بقسوة إلى الخلف قائلاً باستعلاء: "لو تتحرش بالمتموزيل مرة ثانية، فحسابك سيكون عندي" . وأخذ مكانه بجانبها، ليتجاذبا أطراف الحديث، عندها انسحب مروان إلى آخر الباص، يغمره الخجل، وعيون الركاب تطارده .

هذا الشاب المغرور، الذي دفعه الرياء وحبّ الظهور إلى إهانته أمام الناس في الباص مريض نفسياً، لكنه استطاع أن يخفي مرضه عن جميع من حوله، لكيلا يذهب إلى مستشفى المجانين . أحسّ بملاكه الخاص، يدفعه للسعي للانتقام، لتحقيق العدالة في هذا المجتمع الاستهلاكي المتفسخ، حيث تسيطر المظاهر على قوانين الحياة الطبيعية . ظل منتظراً في الباص حتى نزل الشاب في محطة متحف سرسق، فنزل مروان أيضاً، وسار بالشارع خلفه .

أخذ يقترب حتى أصبح على بعد عدة أمتار منه، لم يكن معه في تلك اللحظة أي أداة حادة، فكّر بقلم الحبر الناشف الذي في جيبه،

بـأنَّ عليـه أن يغرسـه في المنطقـة الواقعـة خلـف الـرأس مكـان التقـاء العمـود الفقـري بالجمجمـة، لتـؤدي الـوخزة في هـذا المكـان الحسـاس، إلى شلله الفوري ثم وفاته، لكنه يعرف مسبقاً، أن رأس القلم صغير، وقد لا يخترق عضلة الرقبة بالعمق الكافي، وسيبدأ الشاب بالصراخ، وسيتكفل المارة بالشارع بإمساكه وتسليمه للشرطة، لينتهي الأمر به في مستشفى المجانين، لأن زوجتـه البغيضـة، تنشـر الأخبـار الكاذبـة عنه باستمرار، للجيران ولمعارفهما بأنه مريض نفسياً . لقد اشتكت مرة عليه إلى مخفر الشرطة، بعد أن قام بضربها لتأديبها، لكنّ أولاد الحلال تدخلوا وأصلحوا الأمور بينهما، فذهبت وأسقطت شكواها عنـد مـدير المخفـر . كـل مـا هـو مطلـوب منـه الآن، أن يتـابع هـذا المنحرف حتى يعرف مكان عمله . ظل ماشياً خلفه حتى دخل مبنى وزارة الاقتصاد، فـأيقن بأنـه موظـفٌ فيهـا، وقـرر أن يعـود غـداً بهـذا التوقيت نفسه، وبجيبته سكين حادة لتنفيذ سير العدالة .

نزعتـه أفكاره المشوشـة، إلى محاولـة السـيطرة بشـكل جنـوني علـى زوجتـه، فعاملـها بقسـوة زائـدة، مـا جعلـها تكرهـه . دفعهـا الحقـد والشعور بالضعف والغلبة، إلى إقامة علاقة جنسية مع أحد أقاربها، لإثبات ذاتها وللانتقام منه . لما عرف بهذه الخيانة، استفزه الغضب، فوضع المكواة الساخنة على وجهها، وهو ممسك بشعرها، النار هي الطريقة الوحيدة للتطهير الروحي، لأنها تجبر الشيطان على مغادرة جسد الإنسان، لكنها تمكنت بعد عراك بالأيدي من الإفلات من قبضته، على نحوٍ تركت فيه المكواة أثراً خفيفاً على جبينها، لكنه كان عميقاً جداً في قلبها، وأصبحت حياتها سلسلة لا تنتهي من سوء المعاملة الزوجية .

عاد غاضباً من عمله في تلك الليلة، أخذ يصرخ ويلقي الأشياء التي يصادفها أمامه على الأرض، وذكّرها بخيانتها، وفقد السيطرة

على نفسه وضربها كعادته، فأصابها ببعض الكدمات الخفيفة، ثم أخذ سكيناً من المطبخ وهدَّدها بذبحها . سكتت عن الكلام، لكيلا تؤجج الصراع، واكتفت بالبكاء . ولربما شعر بالندم من سوء تصرفاته، فذهب إلى فراشه وغطَّ في نوم عميق .

لم تستطع زوجته النوم، فالظلام يغمر غرفة النوم، والصمت الكئيب يلفُّ المكان، ما زاد من إحساسها بالوحدة، مندفعة بتهور من معاناتها النفسية المستمرة . قررت إلحاق الضرر به بالطريقة نفسها التي أضرّها بها . توقف عقلها تماماً عن التفكير . أرادت له بتلك اللحظة، أن يشعر بالألم نفسه الذي تتعايش معه طوال الوقت، وبينما هو مستغرقٌ في نومه، سكبت قليلاً من البنزين على قدميه، وأشعلت النار فيهما، وأسرعت بالهروب من المنزل، حاولت إحراق قدميه للانتقام منه، ولكيلا يستطيع اللحاق بها، وبحيث يصاب بعاهة في قدميه تذكره دائماً بما فعل بها .

الأشياء لا تجري دائماً كما هو مخططٌ لها، مات مروان بعد أسبوع من نقله إلى المستشفى، نتيجة لمضاعفات الالتهابات، ومازالت قضية زوجته عالقة في المحاكم ببيروت، بتهمة القتل عن غير عمد دفاعاً عن النفس .

❖ ❖ ❖

لعنة شيطانية

يـو - جـي - أوه - دوم - ويكـي - اتكـي . مـرَّ علـى هـذه الكلمـات وقرأها بلا مبالاة، وهـو مستلقٍ على الكنبـة، يشاهد على التلفزيـون فيلمـاً مصـرياً اسمـه المومياء، يتحـدث عـن الحضـارة الفرعونيـة القديمـة . لم يكـن يتصـور أبـداً أن معناهـا في اللغـة الصينية العريقـة عيون الـدراجون الزرقـاء تحسـد الضـوء . وهـي لعنـة شـيطانية يلقيهـا كهنـة المعابـد علـى مريـديهم، ليكتسبوا لمرة واحـدة قـوى مظلمـة غـير طبيعية، تمكنهم من تدمير أعدائهم .

دخلـت هـذه الطاقـة السـلبية مباشـرة مثـل الـدخان الأسـود إلى عينيـه، سـاعدها علـى ذلـك الضـوء الخافـت، وجـوّ الغرفـة المشـبع بالسحر والشعوذة، وأنـه كـان في حالـة اسـترخاء تـام، ولم يكـن يـدرك حينـها، أن هنـاك بعـض الكلمـات والأرقـام الـتي لا ينبغـي قراءتهـا أو كتابتها على الإطلاق، لكونها تشكل خطورة على حياة الإنسان .

بعد أن دخلت فيه هذه اللعنـة، أحسّ بـأعراض غريبـة، بـدأ بالتثاؤب، وانتابـه نـوع مـن الخـوف مـن المجهـول والشـعور بصـعوبة التـنفس . أخـذ يتخيـل وجـود أفـاعٍ وقطـط سـوداء ميتـة منتشـرة حولـه في كـل أنحـاء الغرفة . لقد أصبح في هذه اللحظـة قـادراً علـى أن يصـيب بعينـه ضـمن فـترة زمنيـة محـدودة أيَّ شـخص يريـده، لمجـرد التركيـز بنظـره عليـه أو على صورته، وتستمر هذه اللعنة لستٍّ وستين دقيقـة مـن بدايـة دخولهـا . فالرقم ستة له علاقة بالشيطان، واسم الشيطان الملقب بـالوحش ستمئة وسـتة وسـتين، لـذلك يجـب علـى الأشـخاص ألا يكتبـوا هـذا الـرقم، أو يبحثـوا عنـه في الكتـب أو الإنترنـت، لأنهـم بطريقـة غـير مباشـرة يسـتدعون الشـيطان للحضـور إلـيهم . الوقـت يداهمـه، عليـه أن يتـذكر بسـرعة الأشـخاص الـذين لا يستسـيغهم للـتخلص منـهم . فبـدأ بـزوج جارته الحسناء، والذي يسكن بالطابق الخامس من البناء نفسه .

لقد كان يكره هذا الشخص البدين ذا الرأس الكبيرة، الذي يذكره دائماً بشكل الخنزير البري . ولعل حسده له نابع من زواجه بالصبية الجميلة لمياء، التي تصغره بأكثر من عشرين سنة . والتي تزوجته طمعاً في ماله . كان يتبادل دائماً مع لمياء نظرات الإعجاب، عندما يجتمعان بالمناسبات والأعياد . إنه يحسده عليها، وكم يتمنى لو أن جاره يموت وترثه لمياء، لكي يستطيع الزواج منها .

أخرج ألبوم الصور من أحد الأدراج، واختار صورة لجاره، كانت قد التقطت في حفلة عرسه بلمياء . بدأ بالتركيز على وجه الخنزير، ليحمل الطاقة السلبية الموجودة بداخله، ويرسلها من خلال عينيه إلى رأسه، متخيلاً أنه الآن وبينما هو يقود سيارته المرسيدس السوداء سيصطدم بالباص، فيخبط رأسه بزجاج النافذة الأمامي فتتهشّم جمجمته، وسيتم نقله إلى المستشفى ليموت بعد فترة قصيرة .

لكن لكي توافق لمياء على الزواج منه، لابد من التخلص من زوجته، أما ابنه الوحيد فسيرسله إلى عند أمه لكي يتربى ويعيش بكنفها . إنها امرأة فاضلة وأفضل من زوجته بمئات المرات . وسيشعر الصبي بالسعادة مع جدته التي تحبه كثيراً . أما الآن، فعليه أن يتخلص بأسرع ما يمكن من زوجته البقرة السمينة، حتى لا تضيع منه لمياء، وتفكر بالزواج من شاب آخر .

نظر إلى صورة زوجته الزيتية المعلقة على جدار صالون الضيوف . بدأ بالتركيز على عينيها السوداوين الصغيرتين، أخذ يتخيل أنها الآن، في أثناء عودتها إلى البيت، وبينما هي تقطع شارع المالكي ستضربها سيارة تاكسي مسرعة، ما سيؤدي إلى وفاتها فوراً في مكان الحادث .

تذكر بأن عليه أن يتخلص أيضاً من والد زوجته، فهو قاضٍ في محكمة التمييز، وله علاقات كثيرة مع كبار المسؤولين بالدولة . منذ البداية لم يكن يحبه، ولقد تزوج ابنته رغماً عنه بعد قصة حب طويلة، وعادة الأشخاص الذين لا نحبهم يبادلوننا المشاعر نفسها . إنه بلا شك،

سيعارض بزواجه من لمياء . أخرج صورة له من ألبوم الصور، واختار واحدة واضحة بالأسود والأبيض، وبدأ بالتركيز عليه، توهم أنه الآن جالسٌ خلف مكتبه بالمحكمة . سيصاب بهذه اللحظة بسكتة دماغية، وسيشعر بخدر في طرفه الأيمن، ويصبح عاجزاً عن الكلام بشكل واضح، نظراً لهبوط جانب فمه للأسفل، وسيليه دوار قوي، يؤدي إلى غيابه عن الوعي، وبعدها سيتم نقله إلى المستشفى، ليفارق فيها الحياة .

عندما وصل إلى هنا، كان قد مرّ أكثر من ستين دقيقة . بدأ يشعر بالتعب . أحسّ بأنه استهلك كثيراً من طاقته الداخلية، ما جعله يفقد قدرته على التركيز . للإنسان طاقة سلبية كبيرة ضد الأشياء التي لا يمتلكها، والتي يحلم دائماً بالحصول عليها .

رنَّ جرس الموبايل، وكان مخفر المالكي يطلب منه الحضور بسبب حادثة وقعت لزوجته، ما كاد يغلق الهاتف حتى شعر بجلبة في مدخل البناء، فالخادمة السيرالنكية أخذت تولول بصوت عالٍ، يبدو أن أخباراً سيئة قد وصلت للمياء عن زوجها . بالوقت نفسه رنّ جواله من جديد، إنها حماته اللعينة، تسأله عن مكان وجود ابنتها، طالبة منه النزول إلى المستشفى الجامعي فوراً، لأن حماه قد تعرض لجلطة دماغية .

لم يبقَ على انتهاء مفعول اللعنة سوى دقيقة واحدة، لقد شعر بسعادة كبيرة، وأيقن بأن طاقته السالبة التي جاءت عن طريق الحسد قادرة على تدمير كل ما يبتغيه . نظر مزهواً إلى صورة لمياء الحسناء، إنها بعد أسابيع قليلة ستصبح زوجته الجديدة، لقد أصبح يملك كل ما يريد، ثم سمع صوت ارتطام عالٍ قادم من خارج البناء، فخرج إلى البلكونة ليعرف السبب، فشاهد جثة لمياء ملقاةً على الرصيف ملطخةً بالدماء . لقد اختلَّ توازنها وهي تقف على طرف البلكونة، تراقب الناس القادمين لتعزيتها، لاشك أنَّ اللعنة قد أصابتها أيضاً .

❖ ❖ ❖

محتالة على المسنجر

قصتي حدثت منذ حوالي ثلاث سنوات، عندما استلمت طلب صداقة على الفيسبوك من امرأة لا أعرفها . كعادتي فتحت صفحتها، وتمعّنت في صورتها، فوجدتها صبيةً جميلةً، ولاحظت أنها تعمل في مؤسسة مالية في بيروت . كانت صورتها بالنسبة لي كافية، لكي أعطي الموافقة دون تردد . بعد يومين استلمت منها رسالة على المسنجر، تطلب رقم إيميلي، لأن هناك موضوعاً خاصاً تريد أن تفاتحني به . في تلك الليلة لم أنم من شدة توتري، فلقد تصورت بأنها معجبة بي، وتودُ أن تفاتحني برغبتها في قيام علاقة بيننا، حيث إنني لم أكتب على صفحتي بالفيسبوك بأنني متزوج من سيدة تركية .

بعد يومين استلمت على الإيميل هذه الرسالة:

عزيزي أيمن:

قد تستغرب لماذا طلبت صداقتك، لأنك في الحقيقة تشبه عميلاً لدينا في البنك بشكل لا يصدق، وكأنكما توءمان، وبما أنني أعمل سكرتيرة للمدير العام بالبنك، فلقد خطر لي أن نستفيد معاً من هذا التطابق في الخِلْقة . إذا كنت جاهزاً وعندك الجرأة لكي تربح مئة ألف دولار، من دون جهد يذكر، فأنا على استعداد لمساعدتك، بانتظار جوابك بأسرع ما يمكن .

ترددت كثيراً قبل الإجابة على هذا الإيميل، بسبب الخوف من المجهول، لكن طَمَعي بالحصول على المئة ألف دولار تغلب بالنهاية على خوفي، فرددت عليها:

عزيزتي لمياء:

استلمت إيميلك، أنا رجل متقاعد وظروفي المادية صعبة جداً،

وراتبي التقاعدي بالكاد يكفيني، وصحتي لا تساعدني على القيام بالمغامرات، أرجو أن ترسلي لي بوضوح ما المطلوب مني .

المخلص لك أيمن

بعد عدة أيام استلمت منها الإيميل التالي:

عزيزي أيمن:

المهمة بسيطة وليس بها أدنى خطورة، بودّي أن تساعدني شخصياً، على سحب مبلغ من رصيد أحد عملاء البنك الذي أنا موظفة فيه، سأقوم بإعداد بطاقة هوية لبنانية باسمك الجديد، بعد أن ترسل لي صورتين بالمعايير المطلوبة لصور جوازات السفر العادية، وبعدها كل ما هو مطلوب منك أن تجهز نفسك للسفر إلى بيروت، وسأرسل لك تذكرة سفر على خطوط الميدل إيست، ذهاباً وإياباً من إستانبول إلى بيروت .

فعلاً في الوقت المحدد وصلت إلى مطار بيروت، وجدت شخصاً في صالة استقبال القادمين يحمل لافتة عليها اسم أيمن، مربوع القامة ومفتول العضلات، شكله لا يوحي بالثقة، ساعدني في حمل حقيبتي، وقال لي: "المدام بانتظارك في السيارة" وقادني إلى سيارة فيات قديمة سوداء كانت واقفة بالخارج، بالقرب من باب مبنى الركاب، عندما فتحت باب السيارة أصبت بالدهشة، فالسيدة الجالسة وراء المقود سمراء غامقة في الخمسينيات من عمرها، ولا تشبه صورة لمياء الشقراء الجميلة التي عرفتها على الفيسبوك . صافحتني قائلة: أنا سميرة التي كنت تراسلها على المسنجر، فاكتفيت بهز يدها بامتعاض، ولم تسعفني الكلمات لأعبر عن مشاعري نحوها في تلك اللحظة .

لفّنا الصمت العميق طوال الطريق . عندما وصلنا بوابة فندق المريديان، أخبرتني المدام بأن هناك غرفة محجوزة ومدفوعةً أجرتها لمدة يومين باسمي الجديد ميشيل صويبر، ثم أعطتني هوية لشخصية

لبنانية، ظهرت عليها صورتي واسمي الجديد، طلبت مني أن أعطيها جواز سفري، لكي تحتفظ به في أثناء إقامتي بالفندق، فرفضت ذلك بشدة، فتمالكت أعصابها وتغاضت عن طلبها، وتابعت حديثها: "لا شك بأنك تعبٌ من السفر، إن شاء الله غداً في الساعة الثامنة صباحاً، نجتمع على الفطور عندك في المطعم، لأشرح لك خطتنا بالتفصيل" . أعطتني مغلفاً كبيراً، قائلة: فيه دفعة على الحساب عشرين ألف دولار، مع صورة عن إمضاء السيد ميشيل صويبر، ومن المفروض أن تقضي الليلة وأنت تتمرن على تقليد هذا التوقيع، وستحصل على بقية المبلغ بعد الانتهاء من مهمتك في البنك .

لم أرتح لهذه السيدة ولا لسيارتها القديمة، ولا للهجتها "الزغرتاوية"، التي ذكرتني بلكنة طليقتي اللبنانية القاطنة في بلدة الكورة، والتي كنت قد انفصلت عنها بالمحكمة، بتهمة الخيانة الزوجية . من عاداتي السيئة، أني تعودت على إطلاق الأحكام المسبقة على الآخرين من النظرة الأولى، بالإضافة إلى أن مبلغ العشرين ألف دولار على الحساب غير كافٍ، وقد يثير الشبهات، فمن المفروض أن تعطيني نصف المبلغ المتفق عليه مقدماً، كما هي العادة المتبعة في مثل هذه الترتيبات، ما زاد من ريبتي فيها، حتى في أعمال النصب، فالثقة المتبادلة ضرورية لنجاح العملية، وتخيلت أنها ربما تكون محتالة، وتعمل في مافيا لتجارة الأعضاء البشرية، التي أصبحت سوقها مزدهرة في هذه الأيام .

طردت هذه الأفكار السوداء من رأسي، وضعت الورقة الشفافة الموجودة بالظرف فوق التوقيع، وبدأت أمر بقلمي فوقه بدقة، لكي أتدرب على تقليده . أمضيت أكثر من ساعتين وأنا أتمرن على تزوير الإمضاء، حتى أحسست بالملل والإرهاق، فبعد كل هذا الجهد، لم أتقنه بالشكل المفروض . أخذت أتصور ماذا سيحدث لو اكتشف موظف البنك تزويري للإمضاء، وخصوصاً أنني أتكلم بلكنة سورية، تختلف قليلاً بطريقة

مطّها للكلمات عن اللهجة اللبنانية، فشعرت بالرعب، وانتابتني هبات ساخنة وباردة، وأصبت برعشة في يدي، فأدركت في حينها بأنه من المستحيل أن أذهب في صبيحة اليوم التالي إلى البنك .

تفحصت العشرين ألف دولار، وبدت لي بعيني المجردتين أنها غير مزيفة، لكني مازلت بحاجة إلى جهاز كشف العملات المزورة، للتأكد من ذلك، وعلى فرض أنها مزورة، فإن الطباعة قد تمت بشكل متقن جداً، بحيث سيكون من السهل بيعها في تركيا بأكثر من سبعة آلاف دولار حقيقية . قسمت المبلغ الى أربع حصص، وثبتّها بشريط لاصق تحت ملابسي الداخلية، لكي أمر بسلام عبر جهاز كاشف المعادن بالمطار .

تركت حقيبة سفري في غرفتي بالفندق، أخذت المصعد ونزلت ماراً بمكتب الاستقبال بشكل طبيعي، فلقد كنت خائفاً من أن يكون الموظف على علاقة بالسيدة سميرة، وأن يخبرها بمغادرتي الفندق . عندما أصبحت بالشارع، ركبت أول تاكسي صادفتها بطريقي، واتجهت مباشرةً إلى المطار، بالنهاية تمكنت من شراء أول تذكرة ترانزيت وجدتها أمامي لمغادرة بيروت بأسرع ما يمكن، كانت رحلة الطائرة المتجهة إلى روما من نصيبي، وبعد وصولي مطار روما سآخذ طائرة ثانية إلى إستانبول، أخرجت من جيبي ألفاً ومئة وخمسين دولاراً، وأعطيتها لموظفة شركة الطيران ثمن التذكرة، ثم استلمت تذكرتي الجديدة، واتجهت إلى بوابة الرحلات المغادرة .

جلست في قاعة الانتظار، فما زالت هناك ساعتان على موعد إقلاع طائرتي، لا أدري لماذا لم أكن مرتاحاً لطريقة لغة جسد موظفة خطوط الطيران في أثناء حديثها معي، وأحسست بأن ابتسامتها كانت مصطنعة . بينما أنا جالس، أعد الدقائق، جاء رجل بلباس مدني وطلب مني مرافقته إلى مركز أمن المطار، حاولت أن أقنع نفسي بأنه محتال شاهد معي الدولارات، وأنا أدفع ثمن تذكرة الطائرة، وها هو يحاول اختطافي، فأخذت أصرخ بأعلى صوتي في

قاعة المطار، لكي ألفت نظر الناس الموجودين حولي إلى عملية الاختطاف، لكن الرجل أظهر بطاقة رسمية تظهر بأنه من رجال أمن المطار، فابتعد الجميع عنا .

في البداية شعرت بأن أعصابي تنهار شيئاً فشيئاً، لكن بسرعة استعدت توازني، فلا شيء عملياً يدعو إلى القلق، فهويتي اللبنانية كنت قد تخلصت منها قبل قليل برميها في مرحاض غرفة حمام الرجال بالمطار . استعدت ثقتي بنفسي من جديد، فأنا لا أحمل دولارات مزيفة، وكل ما هو عليّ الآن، أن أواجه المحقق بهدوء .

سألني رجل الأمن: "هل اسمك أيمن سويلم"؟ فهززت رأسي بالموافقة، ثم طلب مني جواز سفري، وبعد أن تفحّصه بدقة، سألني عن اختبار فحص الكورونا، فأخرجت من جيبي ورقة الفحص التي كنت قد حصلت عليها في إستانبول، قبل مغادرتي المطار إلى بيروت . نظر بتمعّن إلى تاريخها، ثم قال لي: لقد مضى على تاريخ إجراء الفحص خمسون ساعة، وكما تعرف فإن القوانين الدولية تنص على أن مدة صلاحية الشهادة لركوب الطائرة ثمانية وأربعون ساعة، لذلك لا يمكنك السفر على هذه الرحلة، عليك الذهاب إلى بيروت، للحصول على شهادة فحص الكورونا من مركز طبيٍّ معتمد حكومياً . أما الآن فسنمر في طريقنا على فرع أمن المطار، فرئيس الفرع يريد مقابلتك .

دخلت إلى غرفة صغيرة في صدرها طاولة مستطيلة، يجلس خلفها شاب صغير برتبة ملازم أول، من دون أي سلام أو مقدمات فاجأني بسؤاله عن سبب نزولي بفندق المريديان بهوية لبنانية مزورة باسم ميشيل صويبر؟ حيث إن الشرطة الجنائية، كانت قد تلقت مكالمة هاتفية من سيدة مجهولة، أخبرتهم بأني أعطيتها موعداً في صباح اليوم التالي بمطعم المريديان، لكي أبيعها عشرين ألف دولار مزورة، كنت قد جلبتها معي من تركيا .

❖ ❖ ❖

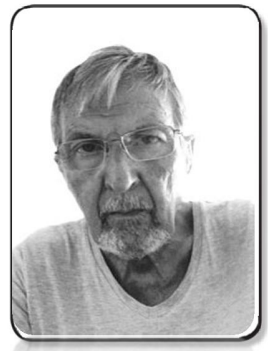

الكاتب في سطور

● **أمين الساطي**، كاتب سوري ولد في دمشق عام ١٩٤١، ذهب ودرس في أميركا، وتخرج في جامعة ولاية أوكلاهوما عام ١٩٦٥، وعمل مهندساً مدنياً في ديترويت في شركة الدراسات Smith Hinchman & Grylls لحوالي عامين، بعدها عاد إلى سورية وتوظف بوزارة الأشغال العامة، ثم أرسلته الوزارة بمنحة دراسية إلى معهد Bow Centrum في مدينة روتردام في هولندا، وحصل على شهادة في عام ١٩٧٣، ليعود بعدها إلى وظيفته السابقة في وزارة الأشغال العامة، في عام ١٩٨٣.

● سافر إلى السعودية ليعمل في مكتب الرشيد للاستشارات الهندسية، سافر خلال عمله إلى فرع المكتب في مدينة فاس بالمملكة المغربية، وعمل هناك لمدة عامين، ثم عاد إلى المركز الرئيسي للمكتب في مدينة الرياض وتابع عمله فيه، حتى تقاعد عن العمل في عام ٢٠١٦، ليسافر بعدها إلى مدينة دبي بالإمارات العربية ويتقاعد فيها.

● عضو في اتحاد الكتاب العرب في سورية.

● عضو في اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات.

مؤلفاته

١ - كتاب أوهام حقيقية مجموعة قصصية، الطبعة الثانية، إصدار دار النشر الإنكليزية أوستن ماكولي، في عام ٢٠١٨.

٢ - رواية نبوءة على التلفاز، نشر خاص في عام ٢٠١٩.

٣ - كتاب الممسوسة مجموعة قصصية، إصدار دار النشر توتول في عام ٢٠٢٠.

٤ - رواية شوارع الغضب، إصدار دار النشر توتول في عام ٢٠٢١.

٥ - مجموعة من القصص القصيرة، تمّ نشرها في المجلات العربية.

بعد أن نشرت كتابي أوهام حقيقية ورواية نبوءة على التلفاز، بدأت في كتابة قصص قصيرة مرعبة، حيث يفقد بطل القصة إحساسه بذاته خوفاً من التعبير عن رغباته الجنسية المكبوتة الجامحة، ليتماهى مع شخصية جديدة ترضي الأشخاص ممن حوله، فيضطر إلى بناء عالمٍ خياليّ وهميّ يعيش فيه، مجتازاً الخطَّ الفاصل بين الواقع والخيال.

أمين الساطي

ISBN 978-9933-619-12-1